دكتور صباح عبيد دراز

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

أساليب القصر

في

القرآن الكريم

وأسرارها البلاغية

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

دكتور صباح عبيد دراز

كلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر

أساليب القصر

في

القرآن الكريم

وأسرارها البلاغية

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ — ١٩٨٦م

مطبعة الأمانة

٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، كما نعوذ ، به سبحانه من زلة الفكر ، وغفلة القلب ، وجموح القلم ، ونسأله التوفيق والتيسير والعون فيما نأتي ونذر ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وبعد ..

فهذا بحث في أساليب القصر القرآنية ، ضمن بحوث أخرى ، عشت معها زمنا ، وألقيت منها نجوما على طلاب كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف ، في أسيوط ، ودمنهور ، وعلى طلاب الدراسات العليا بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى المكرمة .

والمنهج الذي ارتضيناه يتسم بالمغامرة والمخاطرة ومع ذلك ندعو اليه دائما لأنه الأمثل في رأينا وهو يتمثل فيما يأتي :

استقصاء الأساليب القرآنية ــ في الغرض الذي يبحث ــ قدر الطاقة . ثم مراجعة علمائنا في تحليلاتهم وتعليقاتهم ــ الطويلة أو الموجزة ، لا لنقل آرائهم ونسج ثوب مرقوع منها ، ولا للتتبع التاريخي لفكرة ما ، فهذا أمر محدود القيمة ان لم تضف اليه نظرات فاحصة وانما لمواجهة الرأي بالرأي والفكرة بالفكرة وهذه الاحتكاك يعين حتما على استخلاص الأدق والأصوب والأبقى من الآراء والأفكار .

والعلماء الذين نعنى كثر كاثر وحشد ضخم فمنهم علماء التفسير على اختلاف مناهجهم بدءا بالطبرى الذى تسربت آراؤه الى من بعده فأضافوا اليها وصاغوها صياغة بلاغيـــة ثم الزمخشرى والرازى ، وأبو حيان والبيضاوى وأبو السعود والنيسابورى والشهاب الخفاجى والسيوطى والألوسى وغيرهم ، ولا تحسبن أن من جاء بعد الزمخشرى كان صورة منه أو نسخة منقحة أو عالة عليه . بل كانوا أئمة كبارا لهم فكرهم وآراؤهم ، حقا انهم أفادوا كثيرا من الكشاف ولكن بقيت لهم خصائصهم المتميزة وكانت لهم مراجعهم المتنوعة واتجاهاتهم الخاصة فالرازى مثلا كان من أذكياء العالم ذا نظرة كلية شاملة اهتم بالقضايا القرآنية وبأسرار التناسب بين الآيات وعقد عديدا من الموازنات واهتم بمعطيات الآيات والسور وسخر لذلك فكره الموسوعى فكان حكيما نحويا بلاغيا أصوليا أديبا ومن عجب أن الذى يقترب من حمى القرآن ويعيش معه يرق أسلوبه وتصفو نظرته ، ويشف حسه حتى وان كان متعمقا فى المعلوم المنطقية أو الملاحظ اللغوية الجافة . وهكذا كان الرازى مع

وأبو حيان مثلا كان للزمخشرى بالمرصاد فى آرائه النحوية ، وكثير من آرائه البلاغية المبنية على اختلاف النظرة فى النحو والاعراب ، وكان كثير الاعجاب بابن عطية متتبعا لصاحب الكشاف .

هذان وغيرهما يحتاج بحثهم جهودا مكثفة لبيـــان خصائصهم وسماتهم واضافاتهم .

وهناك علماء الاعجاز وعلوم القرآن والمتشـــابه والمتنـــاظر القـــرآنى .

ومنهم علماء النحو وعلماء البلاغة والنقد وحتى علماء أصـــول الفقه فى دراستهم عن تحديد الدلالات والصيغ ، وهو جهد مشكور حين يجمع بينه فى قرن واحد لايماننا بأن علوم العربية والاسلام ، وبخاصة

ما اتصل منه بالقرآن ، كل تتعدد جوانبه فى توافق لا تنافر ، ثم أن
ما اتصل منه بالقرآن ، كل تتعدد جوانبه فى توافق لا تنافر ، ثم أن
كثيرا من علماء التراث ما كانوا يحبسون أنفسهم فى دائرة ضيقة تسمى بالتخصص فالزجاج والفراء والزمخشرى والرازى وأبو حيان والسهيلى وابن هشام وشهاب الدين القرافى والمرادي وغيرهم لهم بحوثهم الطيبة ونظراتهم الناقدة فى البلاغة القرآنية وان تناثرت كالدرر فى تواليفهم والباحث الجاد من يتسقطها أو يغوص عليها يثرى بها فكرا ويكمل أو يجمل بها رأيا •

أما من عالجوا البلاغة العربية فمنهم أصحاب الاتجاه الأدبى وهم الأكثر عددا وبحثا ومثلهم الذين كتبوا فى بلاغة القرآن أو متشابهه وعلومه •

أما أصحاب الاتجاه المنطقى التحديدى كالرازى فى النهاية والسكاكى والقزوينى وبخاصة مدرسة التلخيص شروحا وحواشي وتقارير ففيها لفتات ذهنية ذكية وتوفيقات مشرقة واجتهادات فارعة وأخص من ذلك عروس الأفراح ثم حاشية عبد الحكيم والأطول وهى تحتاج قدرا من المصابرة لا يستغنى عنه باحث جاد يأخذ منها ما يناسب البحث والعصر •

ثم ان استقصاء الأساليب والآراء فيها وعقد موازنات بين الأساليب فى الغرض الواحد يقفنا أولا على تحديد دلالة الأدوات والصيغ وثانيا على أثر المقامات والسياقات فى الصياغة واختلافها من نسق الى آخر ، وكيف تؤدى الأداة أو الصيغة دورا خاصا فى نسق معين وقد وجدنا شذرات من ذلك عند علماء المتشابه كالاسكافى والكرمانى الذى خفف أسلوب الاسكافى ومنحه روحا وحسا ،

والفيروزبادى فى البصائر وان اتكأ على الكرمانى كما تتناثر ذلك فى بعض المؤلفات فى الإعجاز والتفسير والبلاغة .

وهذا المنهج أخيرا يصحح بعض الأحكام الموهمة قديما وحديثا ، وسوف نجد أن فصل الآيات من سياقاتها ودون استقصاء نظائرها كان وراء بعض الآراء التى لم يكتب لها التوفيق وليس هذا من القدح فى العلماء ، ونعوذ بالله — من أن يكون همنا تتسقط الأوهام أو العثرات بل هم كانوا قمما لا تطاول إنما كان قصارانا تسجيل ما أدت اليه الموازنات اضافة — ان صح النظر — الى صرح شامخ .

ثم ان البحث كان قريبا مما كتبه المعاصرون فى البلاغة العربية سواء اتبع الكاتب طريقة السلف فى البحث المجدى ، أم صنع — كما يحلو لبعضهم — كتابا من قدح وثلب يظن أنه قنبلة ينسف بها البلاغة العربية وان هى الا لعبة يتلهى بها .

كما كان البحث قريبا ممن كتب فى البلاغة القرآنية سواء كانت خواطر ترف أم بحثا متكاملا أم أنه كان محاولة فاشلة لتطبيق مفاهيم غربية على القرآن كهذا الذى أراد أن يطبق بعض مفاهيم الأسلوبية — التى لا يقتنع بها الا جن عبقر — على بعض الأدوات والأساليب فى القرآن فجاء بحثه خداجا منزوف القوى نتفكه به مع طلابنا النابهين .

ثم ان من المهم فى التأليف البلاغى ، جانب التحليل الفنى والأدبى ، والاقتراب من النصوص وتذوقها واحساس نبضها ورصد ما تشعه من انفعالات ومشاعر فى قلب المتلقى وبخاصة فى الأساليب القرآنية التى تلتئم فيها الكلمات التئاما خاصا معجزا يولد فى النفس هذه الشحنات التأثيرية بل قد يوحى التركيب الخاص للجمل فى المقامات المتوترة جهيرة النبرة بحاد المشاعر ، وعميق الأحاسيس حين يؤلف الأسلوب بين المتباعدات وينظم بين المتخالفات بل حين يكون الشىء تبعا لضده

ـ مما سنقابله كثيرا ـ فى تركيب شديد الوقع تتآزر حروفه وأدواته وكلماته بايقاع متلائم ودلالات متناغمة لتقدم هذا الاعجاز الخارق القاهر ، وقد يكون هذا التحليل ـ على ضوء مما سطره الطباء ـ من أعظم أهداف الدرس البلاغى ، ارتقاء بالحس الفنى والذوق الأدبى والمسيرة العلمية الواعدة ، والمرء ـ من عجائب القرآن ووحى أساليبه ـ وغرائب دلالاته ولطيف معانيه ، ومديد ظلاله ، ومعجز تلاؤمه ، على بعد المواطن والآيات ، فى عجب لا ينقضى وسحر يستبد بالطاقات الانسانية استبداد الشىء الجميل الفائق الجمال بذى الحس المرهف ، والخيال المشبوب .

ومن عجب ـ أننا قضينا من عمرنا شطرا فى معالجة البلاغة القرآنية ، ونضرع الى الله أن ييسر لنا فيما بقى من عمرنا ـ ثم نحس أن بحوثنا وجهودنا وجمعنا بين ما تفرق من رأى واختلف من فكر كان فى قمة عطائه مجرد وصف مبتسر لموصوف خارق الاعجاز أبدى الجمال والجلال .

نعم وهذا شىء أحس بمثله علماؤنا فقد كان العالم منهم يقدم على بحثه فى وفرة نشاط ووقدة حماسة ، وقوة احتشاد ومعان رابية فى قلبه ثم تجده فى نهاية بحثه وقد أحس هو أنه وصف ما انطبع على مرآة قلبه وعقله من شمس القرآن الخالدة وأنه سطر وسعه الكليل وكأنه يحدد قدرته هو وثقافته ولم يقل الا حرفا من حقيقة أبدية ساطعة الجلال ساطعة القهر والجمال فنراهم يؤكدون أن للقرآن وجها من الاعجاز هو أثره فى النفوس وسيطرته على القلوب واحتواؤه الأرواح قال ذلك الخطابى والباقلانى وعبد القاهر والغزالى والسكاكى والزركشى والسيوطى والرافعى ودراز وسيد قطب نماذج من العالمين الفائقين حصرا .

ومع كل ذلك نجد أن ما قالته الأجيال الماضية ويقوله الجيل الحاضر والآتي يذكي المواهب البشرية ويرهف الأحاسيس ويثقف العقول ويرقى بالملكات الفنية ، ويمنح البشرية من عطاءات القرآن الأسلوبية والروحية ما ينعكس على الأدب خيرا وجمالا وعلى الحياة روحا وكمالا .

ونضرع الى الله تعالى أن يجعل قولنا وعملنا وبحوثنا خالصة لوجهه وأن ينفع بها وان يجعلها مما يسطر في صحائفنا وأن يقال لنا كما يقال لبعض الصالحين من عباده « اقرا وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها » والحمد لله رب العالمين .

مكة المكرمة في العشرين من رجب سنة ١٤٠٦ هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ونستفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » .

القصر والتوكيد

من الواضح أننا لو رتبنا أساليب التوكيد وأدواته العديدة ترتيبا تصاعديا حسب قوة التأكيد ، لكان القصر قمة وغاية ، ذلك أنه تأكيد فوق تأكيد ، لأنه يضغط جملتين فى جملة فهو تركيز شديد فى الأسلوب — كما سيأتى —

ولا يخفى أنه لا تفاضل بين أساليب التأكيد فى البلاغة ، ذلك أن أن النسق أو المقام اذا اقتضى لونا منها ، كان هو البليغ دون سواه ، وان تفاوت قوة . وعلاقة القصر بالتأكيد تتيح لنا أن نلقى نظرة واجزة على قصة التأكيد ، وانها لغربية مثيرة ، بدأت منذ نجم للاسلام خصوم من الملاحدة فى فجر الفكر الاسلامى ، ثم تلونت فى العصر الحديث لتكون متكئا فى الهجوم على البلاغة العربية ، ومحاولة طمسها .

ومادة التوكيد لغة تدل على الشد والاحكام ، والتوثيق ، فالتوكيد يطلق على السير الذى يشد به الفرس ، والوكاد حبل يشد به البقر عند الحلب ، ويقال : وكده وكده : اذا قصد قصده ، وتخلق بخلقه .(١)

---

(١) راجع مقاييس اللغة ٦/١٣٩ ومفردات الراغب ٥٣ .

وجاءت المادة مرة فى القرآن الكريم ، فى قول الله تعالى « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » (٢) أى بعد توثيقها باسم الله (٣) .

وللتأكيد أدواته التى تصل عشرين ، ومنه التوكيد الصناعى ، أو اللفظى ، والمعنوى والتكرار والقسم ، والقصر (٤) .

أما حروف الصلة التى نقلت من معانيها لتفيد توكيد ما سيقت فيه ، ففى زيادتها وافادتها التأكيد خلاف قديم حديث (٥)

ولأنه من نسج اللغة العربية ، ومن طرق أدائها . منذ كانت ، نزل القرآن الكريم بلسانهم وعلى مناهج القول العربية وقد كثر فيه التوكيد .

ولقد اعترض بعض الملاحدة قديما ، ووجهوا للقرآن طعونا بما فيه من التأكيد مدعين أن التأكيد ينافى الايجاز ، وقد تصدى لهم أئمة كبار لم يكتفوا بدحض الشبهات بل بينوا للتأكيد قدرا من أسراره الفنية العالية كابن قتيبة ، والخطابى ، وأبى هلال (٦) ثم تتابعت المسيرة فكانت دراسات عبد القاهر وابن الأثير والعلوى وابن أبى الاصبع وكثير من علماء الاعجاز والبديع .

---

(٢) الآية ٩٣ النحل .

(٣) الكشاف ٢/٤٢٥ .

(٤) راجع الاتقان ٣/٢١١ وما بعدها .

(٥) راجع فى القول بالزيادة ما كتبه د. عبد الرحمن تاج فى مجلة مجمع اللغة العربية العدد ٣١ ص ٢٥ والاعداد التالية وفى نفى الزيادة : المثل السائر ١/١٨٠ والبيان العظيم ١٣٦ .

(٦) راجع مثلا : تأويل مشكل القرآن ١٨٢ وما بعدها . وبيان القرآن للخطابى ٤٨ وما بعدها والبرهان للزركشى ٢/٣٨٥ والصناعتين للعسكرى ٢٩٣ وما بعدها .

وهذا التأكيد لم يفهم عند القدماء على أنه وسيلة الحجة وسبيل الاقناع ، ومرتكز المنطق ، ومسند العقل وحده ، كما يخلو لبعض الناقمين على البلاغة أن يفهم ذلك .

بل ان التأكيد أطلق وضعا ، واصطلاحا على ما قرب مأخذه ، وسهل منزعه ، ويكثر أن يجيء فى مواقف الانفعال والتأثر الوجدانى متداخلة مع المواقف العقلية فى أساليبه القرآنية وتأمل على سبيل المثل قول الله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شىء عظيم » (٧) . تجد التأكيد يلبي مطلبا نفسيا وعقليا ، ويؤكد حدثا رهيبا يصدع القلوب .

قال الامام الرازى وهو أكثر المفسرين اغراقا في العلوم العقلية « أمر سبحانه بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة » (٨) .

وقال تعالى « وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون » (٩) .

فليس هنا حجة عقل بل فورة نفوس موارة بالغيظ والحنق والضيق والقلق .

هذا ما أراده العلماء حين جعلوا كثيرا من ألوان البلاغة تفيد التأكيد مع ما تفيده من أسرار ومعطيات فنية كألوان الاطناب من تذييل وتكميل وايغال ، وغيرها وتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه ، والطباق ، والالتفات ، وكذلك علم البيان بكل فروعه ، وأكثر من جلل ذلك بعمق واقتدار الامام عبد القاهر فى كتابه أسرار البلاغة الذى يعد وثيقة نفسية وفنية فى تحليل الأساليب والمواقف باعتراف كبار نقادنا

---

(٧) الحج آية ١ .
(٨) مفاتيح الغيب ج ٢٣ ص .
(٩) الفرقان آية ٤ .

المعاصرين ، وقد يحلو لبعض المؤلفين من العرب أن يهاجموا البلاغة بحجة أن أصحاب المعانى فى البلاغة جعلوا البيان لمجرد ابلاغ المعانى قوية لتصل الى الاقناع العقلى ، ويرى بعضهم أن البلاغة نشأت فى ظل سيادة المنطق (١٠) على التفكير العلمي ، ولذلك فان أهم عنصر فى ظروف القول هو الحالة العقلية للمخاطب « غالبا » وهذا قول عار من الدقة — كما سبق —

صحيح أن فكرة التأكيد ارتبطت فى بعض اتجاهاتها بالخطابة والجدل وبخاصة فى عهد بنى أمية حين كثرت الفرق السياسية والدينية كما يتضح فى مؤلفات الجاحظ وابن قتيبة (١١) .

هذا صحيح وليس هو كل الحق ، ذلك أن التأليف البلاغى بدءا كان لمحاولة الاقتراب من أسرار الاعجاز القرآنى التى أدركها العرب فى القرن الأول فطرة وسليقه ، بعد أن دخل الاسلام أمم وشعوب غير عربية ، تمازجت مع العرب الذين تسرب اللحن الى بعضهم ، وبدأت حركة التدوين والتأليف الواسعة تعليما وحفاظا على علوم الاسلام والعربية ، ولذا كان الاهتمام بالشعر الجاهلى حتى تدرك حجة الله فى الاعجاز . وقد حاول العلماء الاجابة عن كثير من التساؤلات وكان ذلك مدخلا لمعالجة متكاملة للقرآن الكريم منها ما ألف فى مجازه بمعناه الواسع ومعانيه عند أبى عبيدة والزجاج والفراء ، ومنها ما استقل بالبحث فى بلاغته ورد الطعون عليه كبحوث ابن قتيبة والرمانى والخطابى والباقلانى ، كما واكب هذا الاتجاه ، التأليف فى البلاغة العربية كشفا لخصائصها الفنية ، وان تداخلت مع بلاغة القرآن استشهادا وتحليلا كملاحظات الجاحظ وابن المعتز .

---

(١٠) راجع الصورة الفنية د. جابر عصفور ١٠٨ ، والأسلوب د. شكرى عياد ٤٧ .

(١١) راجع البلاغة تطور وتاريخ د. شوقى ضيف ١٤ ، ١٥ .

كان التأليف اذن يشبع متطلبات العصر بحثا فنيا خالصا عن قيم الجمال أو أسباب الحسن في الأساليب ، وهو المنهج الغالب ، أو بحثا مستعينا في بعض جوانبه بوسائل الفكر والبرهان حين تقتضي الحال ، عند بعض العلماء من المعتزلة وأهل السنة .

ويذكر بعض المعاصرين أن تنوع البيئات الثقافية والطبيعية بعد انتشار الاسلام أعان على وجود مذهب المشارقة من علماء خوارزم ، مؤيدا بالدراسة الفلسفية والعقلية في التراث الفارسي ، ثم رد الفعل الذي أوجده طغيان المدرسة الشكلية عند أمثال قدامة بن جعفر ، وقد ظهر أمثال الزمخشري والمطرزي ، والسكاكي والتنوخي (١٢) ومن الممكن التحفظ بالنسبة للزمخشري والتنوخي فالأول مع اعتزاله وعميق فكره كان امامًا في الأدب والتفسير والحديث أديبا متفننا ولذا كان تفسيره الكشاف تفسيرا بيانيا راقيا وقد اعتمد على آرائه الابداعية في التحليل البلاغي من جاء بعده لم يخالفوا عن آرائه الا قليلا كأبي حيان وأبي السعود والبيضاوي والشهاب الخفاجي وغيرهم (١٣) كما أن التنوخي اذا استبعدنا من كتابه « بحث الأدوات بحثا نحويا يبقى الكتاب سهل المأخذ واضح العبارة أدبي الاتجاه ولذا عده بعض المعتدلين من المدرسة الأدبية (١٤) .

ومع أن ازدهار العلوم العقلية وسيطرة الاستدلال والمنطق على البلاغة ، مناسب تماما لهذه البيئة طبيعة وثقافة — كما أكد أكثر من

---

(١٢) راجع : قضايا النقد د. زكي العشماوي ٢٦٧ ، وضياء الدين بن الأثير د. زغلول سلام ٣١٣ .

(١٣) راجع في ذلك : منهج الزمخشري د. الصاوي الجويني ، والبلاغة القرآنية د. محمد أبو موسى .

(١٤) راجع : البلاغة عند السكاكي د. أحمد مطلوب .

باحث — نجد أن مدرسة السكاكى حملها بعض المعاصرين كل أوزار البلاغة ، بمعنى أنهم أصدروا أحكاما عامة على البلاغة العربية من خلال هذه المدرسة ، وكأنها كل الاتجاهات البلاغية فى العالم الاسلامى .

نعم انهم يتهمون البلاغة بأنها بلاغة مخاطب ، وتأكيد ومنطق ، واغفال للوجدان ، وأهمال للصورة ، والاحاسيس وما يثيره التعابير من لذة أو ألم ، وكذلك الصوت والظل والايحاء .

وهذا كله زعم باطل ، وحكم مبتور ناقص ، ذلك أن من علماء العرب رجالا كبارا كالجاحظ ، والرمانى والخطابى والآمدى ، وعبد القاهر ، وابن الأثير الذين عالجوا الأدب على أنه ليس نتاج العقل وحده بقدر ما هو امتاع واثارة لكامن الانفعالات ، مع ما انفرد به عبد القاهر من التوحيد بين فلسفة اللغة وفلسفة الفن ، وقضاياه كما يقول الدكتور الحسماوى — على ثنائية اللفظ والمعنى ، والفصل بين التعبير العادى ، والتعبير المزخرف ، بجعلة النظم منبعا للجمال الفنى (١٥) .

كما أن البحث فى الحروف وأصواتها واللفظ وتلاؤمه تناوله ابن جنى والسهيلى والخفاجى فى « سر الفصاحة » وابن الأثير والسيوطى وحتى السبكى فى عروس الأفراح شارحا للتلخيص .

ثم ان كثيرا من علماء مصر والشام (١٦) والحجاز كابن حجة

---

(١٥) راجع : الصورة الفنية ٣٥٥ ، وعلماء الدين ٣٢٧ ، وفى النقد الأدبى د. شوقى ضيف ١٦٦ والنقد الأدبى سيد قطب ٣٢ ، وقضايا النقد ٢٠٢ الخ .

(١٦) راجع : ضياء الدين بن الأثير : د. سلام ٣٢٧ .

الحموى ، وابن أبى الاصبع وابن معصوم الذين اتخذوا الدرس البيانى والبديعى مذهبا فنيا له مقاييسه الجمالية التى تعتمد الذوق ودقة الاحساس ، وسطوع الفكر ، دون تعقيد المنطـــق ، مـــع الرقة ، والصفاء والسهولة (١٦) .

وقد عاشت المدوستان أو المذهبان مذهب المشارقة من خلال المفتاح وشروح القزوينى والمذهب الأدبى الذى تغلب فى مصر والشام جنبا الى جنب يمثلان مناهج بحث تتعايش فى ود ولا تتنافر حسب رؤية رأى وفكر ثبتها الاسلام من قديم .

ونكرر أن الأصوات التى ألفناها ثائرة على أفكار جزئية فى مذهب المشارقة لو أحسنت قراءة التراث ، وهو كل متعاظم يضم علوم البلاغة والأعجاز والتفسير والنقد والأدب وعلوم اللغة وحتى أصـــول الفقه فى بعض مبـــاحثه ، لو فعلوا ذلك ــ لراجعوا أنفسهم ، ورجعـــوا عن مقولاتهم ولوجدوا فى التراث ما يجيب على كثير من شبهاتهم ، وينتظر منهم دفع المسيرة العلمية الواعدة .

والمثير أن أحدهم لو أراد أن يتقدم خطوة فى عكس ما ينقن من نقد وثلب واستعلاء فارغ ، وفهم شائه لبعض مقولات الغربيين التى يستغرق فهم أدابهم ومذاهبهم النقدية الضاربة فى أعماق تراثهم اليونانى الوثنى ــ عمرا بأكمله ــ ثم لا يكاد يفيد ، لو أراد أن يعالج قضـــية بلاغية من خلال الآيات القرآنية لرأيت عجبا وتهافتا وفقرا علميا حادا ، وبعض ما كتبوه يتفكه به طلابنا النابهون .

كما ننبه الى أن جيل الرواد ، وان كان ذا تيارات تصل الى حـــد التعارض البين أحيانا . بدأ يقوى الآن أثر هذا الاتجاه الذى كان شديد الولاء للغة الشاعرة عند الرافعى والعقاد ومحمود شاكر وغيرهم ، وقد

سار على الدرب خافق شديد الاعتزاز بدينهم وتراثهم يحقق الله بهم
اعجاز كتابه ومعجزة العربية حقا لا ريب فيه

والمهم ان يفيد المتخصصون منا بروح البحث عند العربيين ونقبس منهم السمات • الانسانية العامة في أدابهم لا تلك التي تدور في اطار عقائدهم الخاصة أو موروثاتهم الوثنية أو مذاهبهم في المنفعة واللذة أو نظراتهم المنطرفة الى الحياة والاحياء • وهذه الافادة لا تنقص من البناء الشامخ الحضاري لتراث الأمة الاسلامية بل ايكون اكثر شموخا وعطـــاء •

دلالة القصر

وردت مادة « قصر » فى القرآن الكريم احدى عشرة مرة لأكثر من جذر، منها : القصر بمعنى الكف كقوله تعالى « واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » (١) وقريب منه القصر بمعنى الأخذ من الطول ، كقوله تعالى « فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة» (٢) وبمعنى الحبس كقوله تعالى « وعندهم قاصرات الطرف عين »(٣) ، وجاءت بمعنى ما عظم من أصول النخل أو الشجر فى قوله تعالى فى صفة جهنم « انها ترمى بشرر كالقصر » (٤) كما جاءت بمعنى البيت الضخم الفخم كقوله تعالى « وبئر معطلة وقصر مشيد » (٥) .

وقد زاردت المعاجم اللغوية بعض المعانى للمادة ، كالقصرة : ما يبقى فى المنخل بعد الانتخال ، وقصر الثوب : حوره ودقه ، وقصر المجد : معدنه ، وقصر الطعام : نقص ورخص : ضد (٦) وعلى هذا فجذور المادة لا تنحصر فيما ذكره ابن فارس فى أصلين : أحدهما : ألا يبلغ الشىء مداه ، ونهايته ، والآخر : الحبس . وقد أحس بذلك القصور فقال : ومما شذ عن هذا الباب القصر : جمعه قصرة ، وهى أصل العنق ، وأصل الشجرة ، وقرى : انها ترمى بشجر كالقصر بفتحتين (٧) ، وقال الفراء فى هذه الآية : يريد القصر من قصور مياه

---

(١) الآية ٢ ــ ٢ الأعراف .
(٢) الآية ٣١ النساء .
(٣) الآية ٤٨ الصافات .
(٤) الآية ٣٢ الأعراف .
(٥) الآية ٤٥ الحج .
(٦) لسان العرب ج ٥ والقاموس المحيط ج ٢ .
(٧) مقاييس اللغة ٥/٩٨ .

العرب وتوحيده وجمعه عربيات ، وقال ابن منظور انها قرشية ، لأنه تقصر فيه الحرم أى تحبس • وكذلك الفيروزبادى فى البصائر (٨) •

ورأى الفراء وابن منظور والفيروزبادى — وغيرهم — عربية الكلمة ، يرد على ما ارتآه الدكتور عمر فروخ من أن القصر وهو بناء كبير من حجارة كالقلعة من الكلمة اللاتينية Castra انتقل الى العربية منذ الجاهلية ، (٩) ذلك أن القصر المنزل المبنى من الحجارة مطلقا عربى ، وبخاصة أنه قد عرف عندهم بناء البيوت من الحجارة والجبال كما فى قصة صالح « وتنحتون الجبال بيوتا (١٠) » على أن القلعة وهى الحصن الممتنع فى الجبل وجمعها قلاع وقلوع عربية » (١١) •

وقد تتوارد اللغات على لفظ واحد ، بمدلول متقارب ، ثم ان من كتبوا فى معرب القرآن ومنهم من كان متساهلا فى عد كثير من الألفاظ العربية معربة لكثرة نقوله كالسيوطى لم يذكر أن هذه الكلمة قصر أعجمية (١٢) وليس فى المادة الا كلمة قيصر معربة ولا علاقة لها بدلالة المادة وأصلها •

ويبقى هنا أن تعريف البلاغيين للقصر بأنه لغة الحبس ، انما هو تعريف اللفظ بأشهر معانيه وقد يعبرون عن القصر بأنه عدم المجاوزة الى الغير (١٣) ، وقد دقق صاحب الأطول حين قال لا يبعد

---

(٨) ٤/٢٧٤ •

(٩) مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة ج ٣٥ ص ٦٦ •

(١٠) راجع تفسير أبى السعود ٣/٢٤٣ •

(١١) المعجم الوسيط ٢/٧٦١ •

(١٢) راجع الاتقان ١/١٣٧ •

(١٣) راجع مواهب الفتاح لليعقومى وحاشية الدسوقى ٢/١٦٦ •

أن يكون النقل من القصر بمعنى اختـــلاط الظـــلام لأن فى القصر الاصطلاحى اختلاط الحكم الايجابى بالسلبى (١٤) ، وهذا بعيد لأن من وضع هذا الاصطلاح لم يقصد هذا التعمق البعيد .

والقصر والحصر والاختصاص دلالاتها متقاربة على هـــذه الأساليب ومع أن بهاء الدين السبكى نقل عن والده تقى الدين . تفرقته بين الاختصاص وبين القصر والحصر بأن الأول عام يشمل أســاليب القصر الاصطلاحى وغيره ومثل قولنا اختص زيد بالقيام نجـــد أن العرف البلاغى سوى بين هذه الاصطلاحات .

---

(١٤) راجع الأطول ١/٢١٣ .

القصر ومنابعه

احتفظت كتب التراث قبل الامام عبد القاهر باشارات وشذرات حول القصر لعل أقدمها قول سيبويه م ١٨٠ هـ فى نحو ما أتانى زيد ، لتكون : ما أتانى الا زيد ، ومثله حالتا النصب والجر « دخلت الا لتوجب الأفعال لهذه الأسماء ، ولتنفى ما سواها ، فصارت هذه الأسماء مستثناه » (١) .

وينقل ابن فارس عن الفراء أن انما والنفى والاستثناء لا يأتيان أول الكلام بل لرد كلام سابق ، وينص على أن المثبت أو المقصور عليه هو المؤخر بعد انما ، ولذا يختلف المعنى بين انما قمت وقام أنا ، ويرد الفراء خطأ شاع من أن انما للتحقير اذ جاء فى القرآن الكريم انما الله اله واحد فأين التحقير هاهنا » (٢) .

وينقل الزركشى عن الرمانى فى تفسيره : معنى الا : اللازم لها الاختصاص بالشىء دون غيره ، فاذا قلت جاءنى القوم الا زيدا ، فقد اختصصت زيدا بأنه لم يجىء ، واذا قلت ما جاءنى الا زيد فقد اختصصته بالمجىء ، واذا قلت ما جاءنى زيد الا راكبا فقد اختصصته بهذه الحالة دون غيرها من المشىء والعدو ونحوه » (٣) .

ومن هذه الملاحظات القيمة ما سجله أبو على الفارسى فى الشيرازيات وتناقله العلماء فى مؤلفاتهم كعبد القاهر وابن هشام من أن العرب عاملوا انما معاملة النفى والاستثناء ولذا فصل الضمير فى قول الفرزدق وانما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى .

---

(١) الكتاب ٢/٣١٠ .
(٢) انظر : الصاحبى ١٨٢ ـ ١٨٣ .
(٣) انظر البرهان ٤/٢٤١ والاتقان ٢/١٩٠ .

وقال الزجاج فى قوله تعالى « انما حرم عليكم الميته : أن المعنى: ما حرم عليكم الا الميتة لأن انما تأتى اثباتا لما يذكر بعدها ونفيـــا لما سواه (٤) •

ولا شك أن هذه اشارات لا تقاس بما قدمه عبد القـــاهر من خصائص التعابير فى القصر ودلالة الأدوات والطرق ، ودقائقها ، فقد شيد بعقله الفذ ونظراته النافذة وموهبته الأدبية ما أطلق عليه بعـــد أسلوب القصر ، وفتح الباب لمن بعده أن يكملوا الصرح ، وليس من وكدنا أن نوزع الاتهامات لعلماء كبار فنقول ان الامام لم يحلل كثيرا من الشواهد القرآنية ، وام يوازن بين الأساليب المتشابهة وأنه اعتمد على عديد من الأمثلة المصنوعة مسجلا انطباعاته الخاصة التى تختلف فيها الأعراف والفهوم والبيئات بل نقول ان ما خطه يراعه فى القـــرن الخامس الهجرى سبق به زمانه وجعله درة فى جيد التاريخ » •

تقسيمات بلاغية

عرفوا القصر بأنه تخصيص شىء بشىء بطـــريق مخصـــوص ، ونقل فى الأطول عن بعضهم « جعل بعض أجزاء الكلام مخصـــوصا بالبعض بحيث لا يتجاوزه ، ولا يكون انتســـابه إلا اليـــه بطـــريق مخصوص » (٥) •

فالقصر قد يكون فى الجملة الواحدة ، بين المسند والمسند اليـــه نحو قوله تعالى « وما محمد الا رسول » (٦) ويكون وصفا لانســـبة الاسنادية وقد يكون بين متعلق وأحد جزأى الجملة كقوله تعـــالى

---

(٤) انظر الدلائل ٣٢٨ والمغنى ٣٠٩/١ •
(٥) راجـع شروح التلخيص ١٦٦/٢ والأطول للعصـام ٢١٣/١ •
(٦) الآية ٤٤ آل عمران •

« وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق » (٧) ويكون وصفا للنسبة التعليقية . وقد يكون هذا المتعلق على هيئة جملة أو جمل لها محل من الاعراب كقوله تعالى « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين » (٨) .

ولا شك أن القصر يطرأ على الاسلوب ، بطرقه وأدواته فيحدث فيه خصوصيات ومزايا تتلاءم والحال التى اقتضت طريقا خاصا وصياغة معينة (٩) .

ولما كان الكلام اما ذاتا أو معنى ، موصوفا أو صفة ، قسم البلاغيون القصر من حيث الطرفان : الى قصر موصوف على صفة وقصر صفة على موصوف .

فقوله تعالى « انما الله اله واحد » (١٠) قصر للذات المقدسة على صفتى الألوهية والوحدانية فى مقام استحقاقه تعالى وحده للعباده . بمعنى اثبات هذين الوصفين له سبحانه ، ونفى أن يكون له شريك أو مكافىء أو ولد أو أنه متعدد وقوله تعالى « لا اله الا أنا فاعبدنى » (١١) . قصر صفة الألوهية على ضمير المتكلم جل وعلا ، ونفيها عما سواه .

وعلى هذا فالقصر — كما عبر السبكى — ينتظم حكمين فى وقت واحد ، اثبات الحكم للمذكور ونفيه عن غيره (١٢) ، فكأن جملة القصر

(٧) الآية ٨٥ الحجر .
(٨) الأعراف ٢٠ .
(٩) راجع تقرير الانبابى ٣/٧٢ .
(١٠) الآية ١٧١ النساء .
(١١) الآية ١٤ طه .
(١٢) عروس الأفراح ٢/١٦٦ .

تنحل ــ فى المعنى ــ الى جملتين وتغنى غناءهما فى المعنى العام وقال سيد شريف « ما بعد الا من حيث المعنى جملة مستأنفة غير الجملة الأولى لأن قولك ما جاءنى الا زيد بمعنى ما جاءنى غير زيد ،وجاءنى زيد ، فاختصر الكلام ، وجعلت الجملتان واحدة » (١٣) .

وهذا من حيث المعنى ، ذلك أن الأسلوب الذي يشتمل على القصر ــ كما قال عبد الحكيم ــ فيه حكم واحد يتضمن الاثبات القصدى ، والنفى التبعى ، وليس المقصود افادة حكمين من حاق اللفظ (١٤) ويؤكده أن شهادة التوحيد فيها الاثبات قصدا وان انبنى على نفى لكل ما سوى المقصور عليه ، لا ما يراه المرحوم الدكتور ابراهيم أنيس من أن أسلوب النفى والاستثناء أسلوب نفى ، وأسلوب انما اثبات (١٥) .

وتداخل النفى والاثبات فى القصر يجعله مركزا مخطوما ، ذا اشعاع وظلال ، وقوة حسم لأنه توكيد فوق توكيد (١٦) وبخاصة اذا داخله لون بيانى بالمعنى العام وهذا ما يغلب على الأسلوب القرآنى .

ثم انهم قسموا القصر من حيث المنفى الى حقيقى واضافى ، فاذا كان عاما شاملا فى الواقع الخارجى أو فى نفس الملقى فهو حقيقى كقوله تعالى ــ على لسان يونس عليه السلام ــ « لا اله الا أنت سبحانك » (١٦) وان كان المنفى خاصا فهو اضافى كقوله تعالى « قل إنما أنا منذر » (١٨) قال الآلوسى : يعنى : لا ساحر ولا كذاب » (١٩)

---

(١٣) حاشية السيد على شرح الكافية للرضى ٢٢٦/١ .
(١٤) حاشية عبد الحكيم ٣٠٣ .
(١٥) انظر من أسرار اللغة ١٩٢ وما بعدها .
(١٦) انظر عبد الحكيم ٣٠٤ .
(١٧) الآية ٨٧ الأنبياء .
(١٨) الآية ٦٥ ص .
(١٩) روح المعانى ٢١٦/٢٣ .

الصفة والموصوف

معنى الصفة هنا : المعنى القائم بالغير ، وليس الصفة النحوية ، لأنه لا يفصل بينهما وبين موصوفها ، ولذا لا يدخلها القصر بالاجماع اذا كانت مفردة وعلى الأرجح اذا كانت جملة — كما سيأتى فى الحال — ومثلها : التوكيد والمؤكد والمفعول معه ، والمصدر المؤكد ، أما قوله تعالى على لسان منكرى البعث : « ان نظن الا ظنا » فقد حمل السكاكى التنوين فيه على التنويع أى ظنا ضعيفا ، وهذا أولى من تقدير وصف محذوف كما نقل أبو حيان (١) .

وهذا الوصف أو المعنى قد يكون خبرا أو حالا أو تمييزا ، أو فعلا أو جملة أو جملا متعاطفة أو جامدا فى تأويل المشتق ، كقوله تعالى « والذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم » (٢) . وقال تعالى حكاية عن منكرى البعث « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا » (٣) وقولك ما بكر الا أخوك : بتأويل الكون أى كونه أخاك . ذلك أن الخبر وصف للمبتدأ فى المعنى ، ولو تأويلا .

والموصوف ما قام بنفسه ، سواء كان ذاتا حقيقة ، أو معنى موصوفا كوصف الحركة بالشدة ، أو السرعة أو البطء . (٤)

فاذا كان الطرفان موصوفين أول الثانى بالصفة ، كما تقدم ، واذا كانا وصفين كقوله تعالى : « وما يعدهم الشيطان الا غرورا » (٥) ،

---

(١) راجع المفتاح ١٩٣ والبحر ٥١/٨ .
(٢) المجادلة ٢ .
(٣) الأحقاف ٢٤ .
(٤) الامبابى ٤٠/٣ .
(٥) النساء ١٢٠ .

وقوله سبحانه عن ريح ثمود « ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » (٦) أول الثانى بالموصوف فهو من قصر الصفة على الموصوف .

غير أنه لوحظ فى القرآن أن الطرفين اذا كانا جامدين صحب المقصور عليه وصف كاشف أو اضافة مبينة ونحو ذلك كقوله تعالى « وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٧) .

وكثيرا ما يقع الفعل ومتعلقاته أو الفعل وملحقاته جملة أو أكثر بعد الا ، ويؤوله العلماء بمفرد له موقع اعرابى لارتباط الفكرة بالنسق والتراكيب النحوية قال ابن هشام : فيما نقله الشهاب : اذا وقع بعد الا فعل تصيد له من لفظه اسم يكون هو المستثنى فى المعنى فقال سيبويه مصدر ، وقال المبرد اسم مشتق ، والأول أولى لقوة دلالة الفعل على مصدره بالاشتقاق ، وعلل الأخفش وقوع الفعل بعد الا ، بأنه كلام فى معنى الشرط ، فأشبه الشرط فلذا وقع بعده الفعل ، ألا ترى أن معنى « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا، الا كتب لهم » (٨) . أى ان أصابهم ذلك كتب لهم (٩).

والأخفش أشار الى ملمح فنى فى الصياغة حين يقع الفعل بعد الا ، هو جانب التسبب والترتب ، ووقوع الفعل ضربة لازب ، ومالذلك

---

(٦) الذاريات ٤٢ .
(٧) سبأ ٤٣ .
(٨) الآية ١٢٠ التوبة .

من أثر في تو الى الأحداث وتصوير التعلقب ، وشيء آخر هو ارتباط الفعل حسب نوعه وزمنه وهيئته الخاصة ، ودلالته المعنية ، وكونه مستثنى ، ارتباط بالتركيب ، كهذا اللزوم في الماضى ، والعرض والتصوير والتمهل في المضارع ، مع ما تؤديه متعلقات الفعل ، من اتمام التصوير الكامل لما قصد اليه من أداء .

ومن الواضح ان هذا اللزوم المشابه للشرط ، يقوى هذا الجسم المفاد من أسلوب القصر وقد جاء في بعض الأساليب حين اقتضى السياق والمقام ذلك . (١٠)

وننبه هنا الى أن التقاط صفة دون سواها ، أو موصوف دون غيره، في القصر ، انما هو تحييد وتحديد ، ونضج فنى ، يلتقط ماله خطر في تركيب العبارة ، وبناء الموقف ويدفع ما لا بال له ، وهو الصفات أو الموصوفات المنفية ، التى قد تتسرب من خلال الأوهام والخواطر لتشارك المثبت في الاثبات ، إذ ان فن القول ودنيا الاحياء تموج بالمعانى المتداخلة، والمشاعر المتعانقة ، والموصوفات المتجانسة ،فكأن القصر بناء متكامل للمعنى، وتمييز له، واظهار ، ثم ان الانكار والشك وما هو من سبيلهما مما ترددده البلاغة في تقسيمات القصر ليس الا رموزا للمشاعر والافكار التى يعالجها القصر في عمق ودقة وتركيز ، وحديثنا في الأدب الراقى لا تلك الأمثلة المصنوعة التعليمية فاقدة الحياة .

---

(٩) انظر حاشية الشهاب ٥/١٩١ والاطول ١/٢١٤ .

(١٠) راجع في فكرة التعاقب الجملة الحالية ص من الكتاب

علاقة الصفة بالموصوف

والصفة والموصوف هما طرفا القصر ، مهما تعددت الصياغة ، أو تعددت الطرق التي تحمل على النفي والاستثناء فهو الأصل في هـــذا الباب ــ كما يقولون ــ

والسبب في افادة القصر ، في هذا الطـــريق ، هو أن النفي في الاستثناء المفرغ « الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعل الذي قبل الا وشغل عنه بالمستثنى » (١) هذا النفي يتوجه الى مقدر عام ينساق اليه الذهن ، ويرجع اليه تفصيل المعنى ، هو المستثنى منه ، مناسب للمستثنى في جنسه عرفا ، وفي صفته من الفاعلية والمفعـــولية فاذا استثنى من ذلك المقدر ، شيء بالا ، كان القصر ، ضرورة بقاء ما عداه على صفته الانتفاء ، فقوله : وما محمد الا رسول : يقدر ، وما محمد حقيقه من الحقائق ، أو على صفة من الصـــفات الا عـلى صـــفة الرسالة . (٢)

والمستثنى منه المقدر على جهة الفـرض والتقـدير بعيـد عن الصنعة النحوية ، فان التقدير في النحو كالظاهر ، والتقدير والتفريغ لا يجتمعان ، كما أن المراد بالعام : الشامل نحو الجموع النكرة والعدد ، وأسماء الجنس ، وغيرها .

ثم انه لابد من علاقة تصحح الاسناد ، وقد اشترطوا ألا يكون الطرفان متباينين اذ من شرط المبتدأ والخبر ــ وهما احدى الصياغات

---

(١) الايضاح ٢٢٤ ــ والمطول ١/٢٣٠ .
(٢) راجع شروح التلخيص ٢/٢٣٢ .

— أن يكونا لعين واحدة ، وهذا معنى أن الخبر وصف للمبتدأ فى المعنى، والشىء لا يحكم عليه بما لا يصدق عليه . (٣)

كما لا يكونان متحدين تماما لعدم الفائدة اذ لا يخبر بالشىء عن نفسه ، ولما كان القصر فرع التغاير ، (٤) بمعنى أن يتغاير الموردان(٥) ومن شأنه أن يحدث خصوصيات زائدة ومزايا فنية فى الأسلوب على المعانى الوضعية ، وأن يضغط جملتين فى جملة ، رأينا عديدا من ألوان الأساليب كانت مثارا لقرائح العلماء ، وحافزا على اكتشـــاف خافى الاسرار البلاغية ، على النحو التالى : —

١ — اتحاد الطرفين :

قال الله تعالى « وأوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (٦) .

وقد تأول العلماء : من قد آمن : بمعنى استمر على الايمان ، لأن للدوام حكم الثبوت ويرى الزمخشرى أن معناه : وجد منـــه ما كان يتوقع منه اى الا من قد استعد للايمان وضعفه الشهاب ، والاستثناء متصل مفيد للقصر دال على اثبات الايمان مستقبلا ودوامه لمن اتصف به ، قبل ، ونفيه عن غيرهم ، فلا أمل فيهم ، ولا فائدة فى دعوتهـــم ، وجاز أن يكون منقطعا ، لا يؤمن أحد من قومك بعد ذلك ، كقـــوله « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » (٧) وهذا الثانى قريب .

وفى الآية تسلية لنوح عليه السلام الذى كان يطمع فى ايمانهم ،

---

(٣) راجع الاستغناء فى أحكام الاستثناء : شهاب الدين القرافى ٢٩٧
(٤) راجع عبد الحكيم ١٧٨ .
(٥) راجع الشهاب ٣٣/٨ وتقرير الامبابى ٧٢/٣ .
(٦) الآية ٣٦ هود . (٧) الآية ٥٦ الدخان .

ويتيئس منهم ، وتمهيد للانتقام ، نفيا للحزن والأسى ، فان الدين عزيز وان قل المستمسكون (٨) به .

وقال تعالى : على لسان منكرى البعث « ان هؤلاء ليقولون ان هى الا موتتنا الأولى ، وما نحن بمنشرين » (٩) .

ومقتضى الظاهر أن يقولوا : ان هى الا حياتنا الأولى ، وأجاب فى الكشاف وتبعه أبو حيان انه قيل لهم انكم تموتون موته تعقبها حياة، كما تقدمتكم موته اعقبتها حياة وذلك قوله عز وجل « وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم » (١٠) فقالوا ذلك أى ما الموتة التى من شأنها أن تعقبها حياة الا الموته الأولى ، كقوله : ان هى الا حياتنا الدنيا . (١١)

وتعقبه ابن المنير بأنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين ،الموت والبعث اثبتوا الأولى ، ونفوا ما بعدها ، ذلك أن الموت مرادا به ما قبل الحياة الدنيا لم يذكر فى السياق حتى يدخله الحصر ، ثم ان الموت قبل الحياة لا يعبر عنه بالموتة ، فان الموتة فعلة : فيها اشعار بالتجدد والطريان ، وهو أمر مستصحب لم يتقدمه حياة ، وهذا من التلاؤم فى الدلالة مع قوله تعالى فى نفس السورة : « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » (١١) فالمراد اذن بموتتهم موتهم بعد الحياة وتوصيفها بالأولى ليست فى مقابلة الثانية اذ الأول فى اللغة — كما يقول الشهاب

---

(٨) راجع فى الآية : الكشاف ٢٦٨/٢ ، والبحر المحيط ٢٢٠/٥ . والتفسير الكبير للرازى ٢٢٢/١٧ وتفسير أبى السعود ٢٠٤/٤ ، وحاشية الشهاب ٩٦/٥ ،وروح المعانى ٤٩/١٢ .

(٩) الآية ٣٤ ، ٣٥ الدخان .

(١٠) الآية ٢٨ البقرة .

(٦) الكشاف ٥٠٥/٤ والبحر ٣٨/٨ .

(١١) راجع الانتصاف ٥٠٥/٤ .

ـــ ابتداء الشيء ثم يكون له ثان وقد لا يكون ، (١٢) كقولهم حج زيد الحجة الأولى وهو الحق ذلك أن السياقات فى هذه السورة تعقب بالنهايات فى قوله مثلا « فما بكت عليهم السماء والأرض » (١٣) « فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين » (١٤) « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى » (١٥) وهو متلائم أيضا مع قول واحد من المخلصين وهو فى الجنة لقرينه فى سواء الجحيم « أفما نحن بميتين الا موتتنا الأولى » (١٦) .

واختاروا التعبير بالموت هنا : لأنه ـــ فى نظرهم العقيم وفكرهم الدهرى ـــ نهاية المطاف الصامتة لكل نأمة وحركة .

ومن هذا القبيل قوله تعالى « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (١٧) أى ما الحياة الا حياتنا الدنيا ، دون حياة أخرى بعدها .

وفى قولهم نموت ونحيا بتقديم الموت ، يقصدون أن أحوالهم دائرة بين موت وحياة ، وقدموا الموت لأنه أقوى الحدثين أثرا فى النفس ثم للتلاؤم مع السياق ـــ كما يرى الكرمانى ـــ فى قوله « وخلق الله السموات والأرض » (١٨) قبل الآية وبعدها « قل الله يحييكم ثم يميتكم » (١٩) أما قول بعضهم بأن المعنى نموت ونحيا بحياة أبنائنا ، أو أنهم يعبرون عن معتقدهم فى التناسخ ، فغير قوى لا يعين عليه السياق . ولا واقعهم العقدى (٢٠) .

---

(١٢) راجع الشهاب ٥/١٠ وتفسير أبى السعود ٦٤/٨ .
(١٣) الآية ٢٩ الدخان .
(١٤) الآية ٣٦ الدخان .
(١٥) الآية ٥٦ الدخان .
(١٦) الآية ٥٨ ـــ الصافات .
(١٧) ٢٤ الجاثية .
(١٨) الآية ٢٢ الجاثية .
(١٩) الآية ٢٦ الجاثية وراجع أسرار التكرار ١٩٣ .
(٢٠) راجع ارشاد العقل السليم لأبى السعود ٧٣/٨ .

وقال موسى عليه السلام بعد أن أخذ قومه الرجفة : « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء » (٢١)٠

والاستفهام للدعاء أو الاستعطاف عن المبرد ، والضمير « هى » للفتنة ، أى ان الفتنة الا فتنتك ، ويجوز عود الضمير على طلب الرؤية أو عبادة العجل ، والأول أولى لأن معنى الفتنة الاختبار والابتلاء ، وهو مناسب للاهلاك ، والمعنى أنه لا أحد يقدر على امتحان العبادة حقيقة الا الله ٠ (٢٢)

وقريب من اتحاد الطرفين قصر الشيء على نظيره :

كقوله تعالى ، تسلية لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم » (٢٣) ليصبر على أذى قومه ، ويتأسى بالرسل الذين أوذوا ، فالكفر ملة واحدة وهو الوجه الذي بدأ به الزمخشرى وأيده أبوحيان كما أجاز فى الكشاف : أن يكون القائل هو الله تعالى وقوله : ما ذكر بعد « ان ربك لذو مغفرة ٠٠٠ وذو عقاب أليم » على أن يكون بدلا ، وذكره ابن هشام ، وضعفه أبو حيان بدلالة الحصر فقد أوحى اليه أمور كثيرة وأهم منه صياغة الفعل يقال وقيل (٢٤) فهو دال على أن الفاعل الكفار ، وفى الآية قصر المشبه على المشبه به لاختلاف القول زمانا ومكانا ٠

---

(٢١) الآية ١٥٥ الاعراف ٠

(٢٢) راجع فى الآية الكشاف ٢/١٢١ ، والشهاب ٤/٢٢٣ ، والاستغناء ٢٧٦ ٠

(٢٣) الآية ٤٣ فصلت ٠

(٢٤) راجع الكشاف ٣/٤٥٥ والبحر ٧/٥٠١ ، والمغنى ٢/٤٢٥ ٠

ومثله حديث يعقوب عليه السلام لأبنائه حين طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم شقيق يوسف ليمتاروا من مصر « قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظا ، وهو أرحم الراحمين » (٢٥) .

والاستفهام للتوبيخ ، فهو قصر للأمن الخاص على نظيره السابق ، أمن شكلى ، لاثقة فيه ، توبيخا على تفريطهم فى يوسف عليه السلام وتبريرا لمنع بنيامين من الذهاب معهم لأنهم غير مأمونين ، ولما ألحوا أخذ عليهم موثقا ووصاهم بما يفعلون .

وقد يقصر الفاعل على المفعول وهما شىء واحد ، وهذا كثير

قال الله تعالى « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون » (٢٦) والمقصود خداع المنافقين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نزلها منزلة مخادعة الله ، تهديدا ، وتبشيعا (٢٧) وتأييدا لرسوله الكريم ، ولذا جاء بالمضارع المفيد للديمومة ، وفى قوله « وما يخدعون الا أنفسهم » وقرى «ومايخادعون» والمتبادر من الأنفس : الذوات ، فالخداع لاصق بهم لا يعدوهم (٢٨) الى الرسول والمؤمنين ، الذين يطلعهم الله على أحوال المنافقين .

لأن العرب كما تنفى الشىء لنفى ثمرته ، وان كان موجودا ، وعليه قوله تعالى « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم » (٢٩) .

---

(٢٥) الآية ٦٤ يوسف وراجع ارشاد أبى السعود ٤/٢٩١ .
(٢٦) الآية ٩ البقرة .
(٢٧) قاله الحسن والزجاج وراجع البحر ١/٥٧ .
(٢٨) راجع الشهاب ١/١١٨ .
(٢٩) الآية ١٢ التوبة .

فكذلك ثبت الشيء لثبوت ثمرته كناية عن انحصار ضررها فيهم (٣٠) ، ويرى الشهاب أنه لما انحصرت ثمرة تلك المعاملة فيهم جاز أن يدعى أن نفس تلك المعاملة مقصورة عليهم وهذا مفهوم تبعا لا قصدا فلا حاجة الى تجوز أو كناية . (٣١) وهذا الفهم بالتتبع من الارداف وهو من أقسام الكناية فما أورده الشهاب هنا غير دقيق .

ومثله التعبير القرآنى « وما يضلون الا أنفسهم » (٣٢) « وان يهلكون الا أنفسهم » (٣٣) .

فهم يقصدون اضلال الغير فيستحقون العقاب ، ويهلكون أنفسهم كقوله « وما ظلمونا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٣٤) والتعبير بفعل الضلال فى الأول دال على الاخراج عن معرفة الحق ثم انهم — كما يرى الرازى — لما اجتهدوا فى اضلال المؤمنين دون جدوى صاروا خائبين من حيث اعتقدوا شيئا ولاح لهم غيره (٣٥) .

وقال تعالى « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك ، وحرض المؤمنين » (٣٦) . أى لا تكلف نفسا الا نفسك ، أو قتال أحد الا قتال نفسك ، مبالغة فى احتشاده صلى الله عليه وسلم لاقتال ، قتال من توجد لذلك ، وليس هناك سواه ، بذلا لأقصى الطاقة ، ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم وهو مسترفد من بيان القرآن « فو الذى نفسى بيده

---

(٣٠) الاستغناء ٢٣٧ . وراجع الكشاف ١/٤٧ ، والبحر ١/٥٨ والرازى ١/٢٣٥ .

(٣١) راجع الشهاب ١/٣١٦ .

(٣٢) آل عمران ١٦٩ .

(٣٣) الأنعام ٢٦ .

(٣٤) البقرة ٥٧ وراجع المعجم المفهرس ٧١٢ .

(٣٥) راجع الرازى ٢/٤٧٠ والاستغناء ٢٦٥ .

(٣٦) الاستغناء ٢٦٤ .

لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى هذه وهو غاية فى تخيل انفراد النفس فى طاعة الله كما قال القرافى (٣٧) وهو انفراد غير مستوحش واستماتة لا تردد معها لأن الثقة والأمر كله فيها لله ومن الله كما يقول الرافعى(٣٨)

ولا ينافى هذا أنه كلف غيره بالقتال « وحرض المؤمنين » لأنه صلى الله عليه وسلم أسوة بلغ حد الكمال فى طاعات الله وبخاصة الفدائية والجهاد .

وقصر الشىء على نفسه أو ما هو قريب منه يعطى معانى نفسية وبلاغية مثيرة كعدم التوقع ، والمفاجأة ، هزة نفسية وعقلية تلفت الى لون خاص من الأساليب فى نسق ، ومقام خاص ، متميز متوتر — كما نلحظ — من تيئيس نوح من ايمان قومه وتسلية رسول الله محمد — صلى الله عليه وسلم — وتصبيره على أذى الاشراك ، وحيرة يعقوب ولوعته على يوسف ، والانكار المتوهج الغائظ من الكفار ليوم الدين ، وارتداد الشر الكائد ، والتآمر الحاقد الى نحور أعداء المؤمنين ،وتصوير فدائية الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثلا يضرب وقد فطره الله على كمال الخلق وهو متلائم أيضا مع قوله صلى الله عليه وسلم « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ما تركته » (٣٩) .

قصر العام على الخاص :

وافراد هذا الخاص وجعله مقصورا عليه تنويه به لما يرتبط بهذا الخاص من معان تصور ، ومشاعر تؤدى ، لخطورتها فى مسار الدعوة وبناء النفس المؤمنة .

---

(٣٧) الآية ٨٤ النساء . (٣٨) اعجاز القرآن ٣٣٦ .
(٣٩) راجع الروض الأنف للسهيلى ٢/٥ .

قال تعالى : « وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين»(٤٠) والآية تتحدث عن نبى سابق جاهد مع المؤمنين أعداءهم الكافرين ، وقد حصر قولهم فى هذا الاقرار بالذنب هضما لانفسهم ، وطلب الغفران تطهيرا لقلوبهم ، والتضرع الى الله أن يثبت الأقدام وينزل النصر • اخلاصا فى الجهاد ، وتفويضا وثقة بالله ، وضربا للأسوة الفارعة ، وفيه تعريض بمن فر عن الرسول فى أحد حين شاع أنه قتل بعد التصريح فى قوله « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (٤١) •

وقال تعالى يبث الثقة فى المؤمنين الذين يمثلون الاسلام قلبا وقلبا كما أراد الله، ويبين أن كيد المشركين ضعيف مثل كيد الشيطان « لن يضروكم الا أذى وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » (٤٢) أى لن يضروكم الا ضررا يسيرا وهو المأثور عن قتادة والحسن ويرى الزجاج والفراء وأجازه الطبرى أن يكون الاستثناء منقطعا والأذى يكون باللسان فليس من جنس الضرر (٤٣) ورجحه ابن القيم لأنه نفى الضرر فى قوله « وان تؤمنوا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم (٤٤) •

---

(٤٠) الآية ١٤٧ آل عمران •

(٤١) الآية ١١١ آل عمران وراجع فى الآية الطبرى ٤/٧٨ والكشاف ١/٤٦٩ •

(٤٢) الآية ١٤٢ آل عمران •

(٤٣) راجع فى الرأيين : الطبرى ٤/٣١ ، والكشاف ١/٤٥٥ ، والبحر ٣/٣٠ تفسير أبى السعود ٢/٧١ ولالوسى ٤/٢٨ •

(٤٤) راجع بدائع الفوائد ٣/٧٢ •

والأول أولى اذ ليس للضرر حد أدنى فيدخل فيه الأذى ، وابطال الضرر مشروط بالايمان والتقوى ، بمعنى نفى أثره ، اذ مفهومه اثبات الضرر مع عدم التقوى .

ومنه قصر الشيء على فحواه أو شكله الظاهرى

فالأول كقوله تعالى على لسان عيسى يوم القيامة متبرئا ممن عبده وأمه من دون الله ، « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » (٤٥) .

والقول هنا بمعنى الأمر أو على بابه وقوله أن اعبدوا الله عطف بيان يوضح قوله ما أمرتنى به ، وهو المقصود بالقصر ، وهذا فحوى رسالة عيسى عليه السلام وأتى بالأمر بعد الا دلالة على التقيد الحرفى من عيسى بتبليغ ما كلف به تجريما لمن أشرك ، وهو تصريح بنفى المستفهم عنه فى قول لحق : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله » أى الا ما أمرتنى به لا هذا كما قال الشهاب (٤٦) .

وعبر بقوله : ما أمرتنى دون ما أمرتهم نزولا على قضية حسن الأدب ، الا يجعل ربه ونفسه معا آمرين (٤٧) ، ثم ان المقام شديد رهيب فيه سطوة الألوهية وضعف البشرية ومراعاة أيضا لما ورد فى أسلوب الاستفهام .

ويقابل ذلك قصر الشيء على الشكل وحده دون محتواه

كقول الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام فى دعوته صاحبى السجن الى التوحيد « ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم

---

(٤٥) الآية ١١٧ المائدة .
(٤٦) الشهاب ٣/٣٠٤ والكشاف ١/٦٥٧ .
(٤٨) الآية ٤٠ يوسف .

وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه » (٤٨) ومثله : لمشركي العرب ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » فى اللات والعزى ومناة :

فهى مجرد أسماء كاذبة باطلة لا مسمى لها فى الحقيقة ، وألفاظ لا معانى تحتها اذ ليس لها من الالهية الا مجرد الادعاء ، فما عبدوا الا الاسماء العارية عن الحقائق ، مبالغة فى ابطالها ، وذما لاذعا وتهكما ساخرا من عقولهم الأفنة • (٤٩)

وقد يحصر الشىء فى عاقبته مبالغة :

قال تعالى — يصف فتنة المشركين ويعجب من كذبهم وهم فى موقف المساءلة والحسلب يوم القيامة •• « ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (٥٠) •

فالكذب — لأنهم عاشوا به صار طبعا ذاتيا — لم يفارقهم حتى فى الآخرة حين تظهر حقائق الأشياء بذاتها ، والفتنة اما بمعنى ما يحب ويفتتن به مرادا به الكفر وهم كانوا معجبين بكفرهم ، مفتخرين به ويظنون شيئا ، فلم تكن عاقبته الا الخسران والتبرى منه ، فجعل عاقبة الشىء عينه • تعجيبا من حالهم ، أو أن الفتنة هى الجواب وسماه فتنة لأنه كذب ، وقد قصدوا الخاص بهذا الكذب ، وعلى هذا يكون من قصر العام على الخاص • فهم يعيشون فى دائرة من الكذب دنيا

---

(٤٧) راجع الالوسى ٧/٦٨ •
(٤٩) راجع الكشاف ٢/٣٢١ والبحر ٥/٣١٠ •
وبدائع الفوائد ١/١٩ • والاستغناء ٢٩٧ •
(٥٠) الآية ٢٣ — ٢٤ الانعام •

وفى الآخرة لا تفاقهم ، وهذا كشف لخصائص الاشراك الذى يسمى الأمور بغير أسمائها • ويجعل خلائق السوء مطيته لتحقيق أهدافه(٥١)

ومنه قول الله تعالى : وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ، فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا انا كنا ظالمين » ٤ ــ ٥ الاعراف (٥٢) •

والاسلوب يعرى النفس البشرية الظالمة المتكبرة عن ضعف مهين حين تتعرض للانتقام المحيط ، ومعنى دعواهم : دعاؤهم واستغاثتهم أى ما كان دعاؤهم حين رأوا العذاب الا الاعتراف بظلمهم ، فيما كانوا عليه ، تحسرا وندامة وهيهات حين نجاة ، (٥٣) والمثير المصور أنهم حين يدعون ويستغيثون لا تنطلق ألسنتهم بالاستغفار والابتهال لأن هذا أمر ما عرفوه ، ولا ذاقوا طعمه بل يعترفون بظلمهم ان البغتة فى العذاب ، والفجأة فى هول الانتقام تمحو التحايل وتطير الأقنعة الزائفة فلا يبقى الا ما وطن فى القلب ينطلق به اللسان وتأمل حال فرعون حين أدركه الغرق لم يستطع أن ينطق شهادة التوحيد لأنها لم تجر بخاطره ولا قلبه يوما فجعل يعنى ذهنه ويكد فكره ، ليعثر على المفتاح السحرى للنجاة : آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل » (٥٤) ياالله العجب من هذا التصوير المعجز العجيب •

---

(٥١) راجع فى الآية الكشاف ١١/٢ ، والبحر ٩٥/٤ وأبو السعود ١٢٠/٣ والشهاب ٤٠/٤ ، والألوس ١٢٣/٧ والفتوحات الالهية ١٦/٢ •

(٥٢) الآية ٤ ــ ٥ الاعراف •

(٥٣) راجع الشهاب ١٧٠/٤ والألوس ٨١/٨ •

(٥٤) الآية ٩٠ يونس •

ثالثا ـ رفان المتباينان :

من المتعالم أن القصر لا يكون الا فى الاستثناء المتصل دون المنقطع ، وحد الأول عند العلماء « أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه وأن يحكم عليه بنقيض الحكم على جنسه » كما مر فى الشواهد فان كان المستثنى ليس من جنس المستثنى منه فهو منقطع ، ولا قصر كقول الله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى » (٥٥)

وهم جهلة اليهود لا يعرفون عن التوراة الا أكاذيب أخذوها تقليدا ، أو مواعيد فارغة حسبما منتهم أحبارهم كعفو الله عنهم أو شفاعة انبيائهم لهم (٥٦) ، وليس ذلك من جنس العلم ولا مما فى التوراة .

وقال تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » (٥٧)

فالتجارة تؤكل بالحق لا بالباطل ، وتقييد الأموال بالباطل جعلها كأنها جنس قائم بذاته لأنها مستقلة بالحل ، دون ماحرم الشرع من المال الباطل . (٥٨)

وسواء حكم على هذا المنقطع بالاثبات أو النفى فهو استثناء بطريق الحمل على لكن فى الاستدراك كما قدرها سيبويه فى المنقطع ، من جهة أن لكن لا يشترط أن يكون ما بعدها بعضا لما قبلها (٥٩) ولذا قالوا ان علامة المنقطع صحة وضع لكن موضع الا .

---

(٥٥) الآية ٧٨ البقرة .

(٥٦) راجع تفسير أبى السعود ١١٩/١ .

(٥٧) الآية ٢٩ النساء .

(٥٨،٥٩) راجع فى ذلك : شرح المفصل ٧٦/٢ وشرح الكافية ٣٢٩/١ والاستغناء ٣٨٣ والشهاب ١٣٣/٢ ، ١٨٩/٢ .

ومن المنقطع ما يكون المستثنى فيه من جنس ما قبله ، وحكم عليه بغير نقيضه كقوله تعالى « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ » (٦٠) وقد جاء ما سبق كثيرا فى القرآن وهناك نوع يجعل فيه المنقطع كالمتصل على البدل من مثل قولهم « مالى عتاب الا السيف » وقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فقد جعل من المتصل مبالغة فى المدح ، اى ان كان ولابد من العيب ففيهم عيب واحد وهو فلول السيف وهو مروى عن سيبويه (٦١)

والواقع ان هذا اللون من الأساليب على خلاف مقتضى الظاهر ويدخل تحت ما يسمى بالتنويع ويشمل هذا اللون وهو كما يقول الشهاب « أن ينزل ما يقع فى موقع شىء بدلا منه منزلته بلا تشبيه ولا استعارة كما فى الاستثناء المنقطع وما يضاهيه ، سواء كان بطريق الحمل كما فى قوله : تحية بينهم ضرب وجيع .

أو بدونه كما فى أعتبوا بالصيلم » (٦٢) .

وقد نبه عليه العلماء سيبويه وعبد القاهر والسكاكى ونبه عليه الزمخشرى فى قوله تعالى « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » (٦٣) .

والاستثناء فى الآية اما منقطع بمعنى لكن ، أو من جعل المنقطع متصلا تأويلا دليلا على عدم نفع الأموال والبنين ، أو متصلا على تقدير مضاف أى سلامة من أتى الله .

---

(٦٠) الآية ٩٢ النساء . (٦١) راجع الشهاب ٢/١٨٩ .
(٦٢) راجع شرح المفصل ٢/٨٠ وشرح الكافية ١/٢٢٩ .
(٦٣) راجع الشهاب ٢/٦١ .

أو الا وبنى من أتى الله • أو أن الاستثناء من أعم الأحوال أو المفاعيل أو الاستثناء مما دل عليه المال والبنون أى لا ينقطع غنى الا غناء من أتى الله بقلب سليم • (٦٤)

وهذه الآراء العديدة للعلماء والتأويلات المختلفة تدل على وقوفهم أمام أمثال هذه التعابير الخاصة وقد كثرت التقديرات وصولا الى المعنى المتسق ، وأحرى هذه الآراء هو ما بدأ به الكشاف من جعل المنقطع متصلا تأويلا وجعل ما بعد الا حالا أى الا حال من أتى الله بقلب سليم (٦٥) وهو واضح من التركيب ولو حاولنا التقدير فى المنقطع دائما لكان الاستثناء كله متصلا وهو خروج على طبيعة الاساليب العربية •

وهذا اللون يدخله العلماء تحت ما يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم فى علم البديع وفيه خلابة واثارة وفجاءة نفسية وذهنية غير متوقعة وتأكيد لأنه كدعوى الشىء بدليله • (٦٦)

وقد استدرك بعض المتأخرين أنه من تأكيد الشىء بما يشبه نقيضه (٦٧) وهو أدق لأن شواهده أعم من تأكيد المدح •

وقد جاء هذا اللون التنزيلى الذى نزل فيه التضاد منزلة التجانس فى عديد من الآيات التى تثير التعجيب والدهشة الغالبة من محاولة الالتئام بين المتقابلات قال تعالى يصف قوم لوط وردهم على دعوته « وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون » (٦٨) •

---

(٦٤) راجع الكشاف ١١٨/٣ ومفتاح العلوم ٥٠٨ والشهاب ٢٠/٧ •
(٦٥) الكشاف ١١٨/٣ •
(٦٦) راجع الايضاح للقزوينى ٥٢٤ •
(٦٧) راجع الأطول ٢١٦/٢ •
(٦٨) الآية ٨٢ الاعراف •

« وما كان جواب قـومه الا أن قـالوا أخـرجوا آل لوط من قريتكم » (٦٩) .

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » (٧٠) .

قال بعض علماء التنزيل ان ردهم فى سورة العنكبوت كان فى بدء الدعوة ، ثم لما امتلأت قلوبهم غيظا من تكرار دعوته اجتمعـوا على اخراجه وآله من القرية (٧١) .

ومثل هذه الآيات رد الكفار على ابراهيم الخليل بعد أن أدركوا أنه حطم آلهتهم واستمر يدعوهم « فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ، فأنجاه الله من النار » (٧٢) .

والآيات تصور موقف المكذبين فقد جاءوا بما لا يكون جوابا(٧٣) ذلك أن الايمان عندهم أصبح معدن عذاب ، ونبع انتقام فهو قلب حاد للمواضعات والحقائق دال على تشويه الفطر وشذوذ الطبائع ، وما للمواصفات والحقائق دال على تشويه الفطر وشذوذ الطبائع ، ومـا أصابهم من جنون الانفعالات ، ان الآيات هنا تثير فيضا من المشـاعر المتداخلة أبسطها أن تمنح القارىء شيئا من الاستعلاء الاخـلاقى والتطهير النفسى والاستواء فى المشاعر الذى على ضوئه يكون نقـد الباطل ونصرة الحق .

وفيه شبه من السخرية كهذه السـخرية التى نحسـها فى الآية

---

(٦٩) الآية ٥٦ النمل .
(٧٠) الآية ٢٩ العنكبوت .
(٧١) راجع الشهاب ٩٩/٧ والألوس ١٥٥/٢٠ .
(٧٢) الآية ٢٤ العنكبوت .
(٧٣) راجع الكشاف ٩٢/٢ .

الكريمة التالية من كفار قريش « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين » (٧٤)

وتأمل النسق وقت تلاوة القرآن الكريم عليهم وقد أضاف فيه الآيات الى ضمير العظمة ووصفها بالبيان والوضوح فى دعوتها الصادقة واعجازها القاهر وقت التلاوة يفرون الى طلب غريب محال وهو احياء آبائهم ليشهدوا بصدق النبوة وقد سمى طلبهم حجة لأنهم لغبائهم ساقوه مساق الحجة تحديا ، ولا حجة فيه ، وحصر هذا المطلب الغبى فى هذا القول الآسن تهكما بهم وسخرية بعقولهم لأنهم يعطلون مداركهم، ثم يقترحون خوارق الآيات ، دون فهم لطبيعة الدعوة ولا لطبيعة الآيات ، التى وضحها القرآن كثيرا •

ومن الأساليب المصورة ، التى تداخل فيها القصر مع الكناية الدالة ما قاله الله فى ختام آيات فضح بها المنافقين حين بنوا مسجد الضرار الذى أسس على شفا جرف هار •

« لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم » (٧٥) أى لا يزال ريبة فى كل وقت أو فى كل حال مدة حياتهم الا وقت تقطيع قلوبهم ، وهى كناية مصورة تتغلغل القلوب لتصور دفائنها ، فالريبة قارة لاصقة لا تزول من قلوبهم الا اذا ماتوا ومزقت القلوب وقطعت ، اذ لا أمل فى ضياعها طالما بقيت القلوب مجتمعة متماسكة وكأن الريبة صارت جزءا من هذه القلوب مع انها من المعانى النفسية لكنها ثابته مسيطرة وهذا — كما يقول الشهاب — على سبيل

---

(٧٤) الآية ٢٥ الجاثية وراجع فيها الشهاب ٨/٢١ •
(٧٥) الآية ١١٠ التوبة •

التصوير والفرض (٧٦) • لكنها على كل خارقة التصوير الذى لا ينتهى مداه •

أما توكيد المدح بما يشبه الذم فقد جاء فى الاستثناء المفرغ متصلا — كما ذكر القزوينى (٧٧) فى قوله تعالى — على السنة السحرة الذين آمنوا بموسى ، وتوعدهم فرعون بالتقتيل والتصليب والمثلة « وما تنقم منا الا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ، ربنا أفرغ علينا صبرا ، وتوفنا مسلمين » (٧٨) •

ومادة نقم التى جاءت بطريق القصر فى القرآن أتت فى أربعة مواطن • (٧٩) •

وتنقم بمعنى تكره وتعيب ، أو تنتقم وتعاقب ، ورجحه أبوحيان الذى رأى أن نقم اذا تعدى بعلى ، كان معناه الغلبة ، واذا تعدى بمن ، كان بمعنى انتقم ، أى ناله بمكروه ، واستدل بتفسير عطاء رضى الله عنه فى هذه الآية « مالنا عندك ذنب تعذبنا عليه الا أن آمنا » (٨٠) والواقع أن نقم ذات دلالة عامة وهى الانكار ، اما باللسان كقوله تعالى « وما نقموا منهم الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » (٨١) وقد نزلت فى عبد الله بن أبى ، وقد أغناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية كانت تغلظت عليه ، قال عكرمة : اثنا عشر ألفا وأن ابن أبى لم يمك الا الكره والعيب ، وقيل نزلت فى غير من المنافقين وهو الجلاس بن سويد فاستغنى ثم تاب حين نزلت الآية « فان يتوبوا يك

(٧٦) الشهاب ٣٧٦/٤ •
(٧٧) الايضاح ٥٢٥ •
(٧٨) الآية ١٢٦ الاعراف •
(٧٩) المعجم المفهرس ٧/٧ •
(٨٠) راجع الكشاف ١٠٤/٢ ، والبحر ٣٦٦/٤ •
(٨١) الآية ٧٤ التوبة •

خيرا لهم » (٨٢) وذكر لفظ الجلالة هنا كما يذكر كثيرا فى نظائره من الامور التى يباشرها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ، ايذانا برضاه سبحانه ، وتأييده ، وأن العطاء ــ فى هذه الآية من الله ، أصالة ، ومن نبيه بالمباشرة • وما سبق انكار وعيب باللسان ، واما بمعنى العقوبة كآية السحرة ، وقول أبى حيان : ان نقم كانتقم مثل « قدر واقتدر » فى الدلالة : غير دقيق لاختلاف المبنى واختلاف المعنى تبعا ، وفى رد السحرة الذين آمنوا نحس ثقة بالله ، وتهكما بفرعون ، وحسما لطمعه فى عودتهم الى الكفر بوسائل تهديده الرعيب • (٨٣)

كما جاءت المادة فى معرض أصحاب الأخدود فى أسلوب شفيف ، عميق الأسى ، لهذا العذاب الوحشى المفتن بالمؤمنين « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ــ وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » والصورة العامة بالغة الرهبة والهول مزدحمة الألوان والأصوات ومثيرة للاحاسيس التى تصل حد التضاد من استسلام المؤمنين المحدقين وما يغلفه من حزن كسيف ، ثم الطغاة غلاظ الاكباد • يخدون أخدودا يشتعل نارا وقودها أهل الايمان وهم ينظرون فى تشف وقسوة فاقت افتراس الكواسر « وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » الآيات •

وكون الايمان بالله بلفظ الجلالة الأقدس وما تبعه من اسمائه الحسنى سببا لا للرضا وهو المسبب المنطقى ، بل لما هو أقسى من نقيضه ، وهو الابادة والتحريق ، يصعد الاحتقار ، والاستبشاع للطغاة ، بل يرسخ عاطفة الكره لكل طاغية •

---

(٨٢) راجع مفردات الراغب ٥٠٤ ، ومقاييس اللغة ٥/٣٣٤ ، والكشاف ٢/٢٠٣ والشهاب ٤/٣٤٦ •

(٨٣) راجع الشهاب ٤/٣٤٦ ، والألوسى ٩/٢٨ • والبحر ٥/٧٣ •

ومنه الآية « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ، وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون »(٨٤) والاستثناء من أعم لعلل ، ونقم بمعنى عاب ، وكرة ، والجملة « وأن أكثركم فاسقون » أجازوا أن تعطف على أمنا ويكون المستثنى مجموع المتعاطفين ، وعبر عن مخالفتهم بالفسق الثابت لأكثرهم توبيخا وحكما صادقا ، وبيانا للأسباب النفسية لأحقادهم وهو احساسهم بطهارة قلوب المؤمنين بالايمان ، وفساد بواطنهم هم لبعدهم عن كتابهم . أى ما تنكرون الا تخالفنا نحن فى جهة الكفران (٨٥) .

وقد يتوقف العلماء عند أساليب ، فيها هذا التباين المثير ، بين الطرفين ، فتختلف الآراء بين اتصال الاستثناء أو انقطاعه ، وفى كل محاولة لكشف اللمحات الفنية ، والأسرار البلاغية ، طى الأسلوب .

قال الله تعالى « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب الا الله » (٨٦) قالوا يجوز فى الاستثناء الانقطاع أى لكن الله يعلم ، أو على تأويل أنه ان كان الله فى السموات والأرض ففيهما من يعلم الغيب ، مبالغة فى نفيه لتعليقه على المحال والله مرفوع على البدل وهو على نية تكرار العامل ، ذلك أن المبدل منه على نية الطرح فصار العامل كأنه مفرغ له ، وهو لغة بنى تميم ورجحه الزمخشرى الذى رأى أن الآية فى الاستعمال كالبيت المشهور :

وبلدة ليس بها أنيس الا اليعافير والا العيس

---

(٨٤) الآية ٥٩ المائدة .

(٨٥) وفى الآية وجوه أخرى اعرابية وراجع : ـ الكشاف ٦٢٤/١ والشهاب ٢٥٨/٣ والالوسى : ١٧٣/٦ .

(٨٦) الآية ٦٥ النمل .

واليعافير : الظبـــاء ، والعيس : النوق ، فهى بلدة رحـــل عنها الأحباب فلم يعد بها من يؤنس الا زرافات من الحيوانات ضـــاربة ، هنا وهناك ، فاذا كانت الظباء والنوق أنيسا ففى البلدة أنيس ، فهو كالتعليق على المحال ، كناية مصورة عن خلوها ورحيل أهلها تومىء الى الحزن الشفيف من فقد الأحبة تلك القضـــية الوجودية القـــاهرة التى تلهب المشاعر قضية الموت والرحيل .

وفى الآية الكريمة وضع حدود حاجزة بين الشهادة وعالم الغيب ذلك العالم المجهول الذى لا يستكشف أسراره مخلوق ، وبيان شـــاف ان علم المخلوق للغيب محـــال كاحالة أن يكون الجليـــل العظيم المطلق محدودا بالكون تعالى عن الزمان والمكان ويرى بعضهم اتصال الاستثناء ويكون الغيب بدل اشتمال من (من) والله فاعل والمعنى : لا يعلم غيب من فى السموات والأرض الا الله ، وحسنه أبو حيان وتخصيص الغيب بالعاقل لا دليل عليه .

وثم رأى على الاتصال بتوسعه فى معنى « من » ليكون من تعلق علمه بالســـموات والأرض واطلع عليهما ، وهو يعم الله تعالى ثم أولى العلم من خلقه .

غير أن التعبير بفى الظـــرفية وجعل من عاما فيما ســـبق تكلف ، وجراءة ، ونقل القرافى عن العز بن عبد السلام أن فى تستعمل فى حق الله مجازا كقوله « وهو الذى فى الســـماء اله وفى الأرض اله » وهى فى آية الغيب مستعملة فى حقيقتها ومجازها ويكون متصلا ، والواقع أن الجمع بين الحقيقة والمجاز لا يقبله جمهرة العلماء ، على أن ما استدل به ليس متعينا : ذلك أن الظـــاهر أن الاله بمعنى معبود أى معبود فى

الكون ، غير أن بعضا من الأئمة يرى أن التعبير فى الآية حقيقة ، كما يليق بالله تعالى وصفات كماله (٨٧) .

ورأى الكشاف أظهر والمذهب التميمى هنا أبلغ .

وقال الله تعالى — عن ابليس لعنه الله « قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » (٨٨) .

وبدءا فان الاضافة فى « عبادى » فى القرآن الكريم قد تجىء للتشريف والتخصيص كقوله تعالى « قل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » (٨٩) « يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى » (٩٠) يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » (٩١) وقد تجىء الملكية والربوبية كقوله تعالى للملائكة أمام من عبدوهم من البشر يوم الدين « أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل » (٩٢) .

ودلالة المقام حاسمة فى تعيين الدلالة .

ومن هنا يؤخذ من كلام الزمخشرى وذكره ابن القيم أن الاستثناء متصل لأن الغاوين بعض العباد ، وكأنه يحمل الاضافة على الملكية ، ورأى غيره وأيده أبو حيان وابن القيم أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن

---

(٨٧) راجع فى تحليل الاستثناء هنا : الكشاف ١٥٦/٣ والبحر ٩١/٧ والشهاب ٥٥/٧ والاستغناء ٤٣٦ .

(٨٨) الآيات ٣٩ ـ ٤٢ الحجر .

(٨٩) الآية ٥٣ الاسراء .

(٩٠) الآية ٥٦ العنكبوت .

(٩١) الآية

(٩٢) الآية ١٧ الفرقان .

وعلى هذا فالاضافة للتشريف ، أما تجويز ابن القيم رحمه الله الاتصال فهو تجويز غير قوى ، فسياق الآيات يرجح الانقطاع « ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين » فهى اضافة تخصيص ، ثم أمر آخر هو أن المستثنى هنا « الا من اتبعك » الاكثر والمستثنى منه الأقل وفى المتصل أجازه الكوفيون وبعض البصريين ومنعه غيرهم اما فى هذه الآية فالذى يظهر — كما قال أبو حيان — أن ابليس لما استثنى العباد المخلصين ، كانت الصفة ملحوظة فى الآية بعدها فى قوله « ان عبادى » أى عبادى المخلصين تلاؤما فى التراكيب أو كما يقول العلماء طردا للأسلوب على وتيرة واحدة وتلحظ فى الآيات أن ابليس عكس الوضع الطبيعى فى الترتيب فقدم الغاوين اهتماما بهم لأنهم أثر لنبث غوسه من الاغواء ، وفى قول الحق تعالى انتظم الترتيب عدلا واستحقاقا فقدم من تقدم وأخر من أبطأ به عمله فأخره ، رتبة وأسلوبا .

وقال الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام « قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (٩٤) والرمز الاشارة أو ايماء وأصله التحرك ، ومنه الراموز للبحر ، والاستثناء منقطع ، اذ الرمز ليس من جنس الكلام ، وقد أجاز الزمخشرى وغيره أن يكون الرمز مؤولا بالصوت الخفى ، أو الكلام مؤولا بمطلق الدلالة المفهمة على الاتصال (٩٥) وهو خلاف الظاهر والحق أنه منقطع اذ ما لا يحتاج الى تأويل أولى دون داع سياقى أو معنوى أو عقيدى .

---

(٩٣) راجع فى الآية الكشاف ٢/٣٩١ والبحر ٥/٤٩٤ وبدائع الفوائد ٣/٦٧ .

(٩٤) الآية ٤١ آل عمران .

(٩٥) راجع الكشاف ١/٤٢٩ والبحر ٢/٤٥٢ والشهاب ٣/٢٥ والألوسى ٣/١٥١ .

آيات فى النعيم والعذاب يوم القيامة :

وفى الجانب الأول جاء قوله جل ذكره « جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب انه كان وعده مأتيا ، لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » (٩٦) .

وقال تعالى « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيلا سلاما سلاما » (٩٧) .

والسلام ليس من جنس اللغو فهو منقطع لا قصر فيه ، وأجاز الزمخشرى ومن تبعه كالبيضاوى وأبى السعود وغيرهم أنه متصل على طريق الغرض والتصوير ، والتعليق على المحال ثقة فى تأكيد المعنى ولذا وقع موقعه من الحسن والمبالغة ، فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم أى ان كان السلام لغوا ففى الجنة لغو ، تصويرا وبرهانا وترغيبا محببا شائقا .

كما أجازوا أن يكون لسلام دعاء بالسلامة من الآفات ، ولا آفة فى الجنة ، فيكون هذا بحسب الظاهر لغوا ، لكن المقصود الاكرام ، واظهار التحاب .

ورده ابن المنير لأنه يقتضى أن الجنة يسمع فيها لغو وفضول وحاش لله ، يقصد أن تحليل الكشاف يوحى بنسبة مطلق اللغو ولو صوريا لنعيم الجنة ، ثم انه أيضا يخالف الدلالة الخاصة للسلام فى

---

(٩٦) الآيتان ٦٢ ـ ٦٣ مريم .

(٩٧) راجع الكشاف والانتصاف ٢/٥١٥ والبحر ٨/٢٠٦ والشهاب ٦/١٧٠ .

هذا المقام ، ذلك أنه تحية تكريم جاء بها القرآن الكريم كثيرا . كقوله تعالى « سلام عليكم بما صبرتم » (٩٨) « سلام عليكم ادخلوا الجنة »(٩٩) « سلام قولا من رب رحيم » (١٠٠) فالسلام اذن فى آيتى مريم والواقعة مقصود به التحية التى شرعها الاسلام للمؤمنين دنيا دعاء به وجعله وصفا لواقع مدرك لأهل النعيم وأطلقه على الجنة « لهم دار السلام عند ربهم » (١٠١) .

ومما يتصل **بالخلود فى الجنة** قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلا من ربك » (١٠٢)

ولما كانت الموتة الأولى قد سبقت نهاية لما مضى من الدنيا ، فهو منقطع ، وقد وضع « الا الموتة الأولى موضع لا يذوقون فيها الموت أبدا » اذ ما مضى لا يذاق فيما يستقبل .

والانقطاع على طريقة الحجازيين أما طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس فالزمخشرى كثير الاتباع لها ويجعل الاستثناء متصلا على سبيل الفرض وسرها تأكيدا لنفى على وجه لا يبقى فيه مطمع فى الاثبات . (١٠٣)

وننبه هنا الى ان أسلوب النفى المغيا بالمستحيل ، أو المعلق على المحال ظاهرة أسلوبية جاءت كثيرا ، فى سياقات خاصة ذات خطر واشعاع حسى كتصوير هذا الانتقام الكافر من المؤمنين بسبب بقائهم

---

(٩٨) الآية ٢٤ الرعد .
(٩٩) الآية ٣٢ النحل .
(١٠٠) الآية ٥٨ يس .
(١٠١) الآية ١٢٧ الأنعام .
(١٠٢) الآية ٥٦ الدخان .
(١٠٣) راجع الكشاف والانتصاف ٥٠٧/٣ والبحر ٤٠/٨ والشهاب ١٤/٨ وتفسير أبى السعود ٦٦/٨ .

وايمانهم أو تصور لقطات من النعيم الأخروى فى أفق من الجمال والكمال لم يسم اليه خيال ، أو وصف ألوان من عذابات الكافرين فى عالم آخر له قوانينه التى تعزب عن محاولة لفهم من عقل البشر فى الدنيا وكذلك فى تقرير انفراد الله تعالى ببعض الصفات كصفة علم الغيب التى قد يدعى بعض محتالى البشر الكذبة معرفتهم بشىء من هذا المجهول . كما سبق فى تحليل الآيات .

كما لم تختص هذه الظاهرة بالاستثناء فقد جاءت مثلا فى حتى الغائبة كقوله تعالى : « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين » (١٠٤) .

وهذه الأساليب المركزة المديدة والقوية الايحاء ذكر العلماء من أسرارها ما يتصل بالوجدان والفكر من جعل المنقطع متصلا فرضا وتصويرا وتقديرا وتنويعا والتعليق على المحال ، وتأكيد الشىء بما يشبه نقيضه وفيه خلابة واستيلاء على العقل أو اثارة طاقات المرء على الأقل .

ثم هناك أيضا اخراج ما يعقل — فى أكثر الأساليب — فى صورة المحسوس تأثيرا فى الخيال البشرى شغلا لمنافذ الحس البصرى ألوانا وظلالا ومشاهد متنوعة أو السمعى أو الذوق المتعدد أو رسم مشاهد كاملة متحركة دائبة ، أو ساكنة فهى أساليب خاصة لها ايحاء معين فى سياقات معينة وأما ما يتعلق بعذاب أهل النار — أعاذنا الله منه — فقد جاء من متباين الطرفين قوله تعالى « ليس لهم طعام الا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع » (١٠٥)

---

(١٠٤) راجع فى الآية ٤٠ الاعراف الكشاف ٢/٧٨ والبحر ٤/٢٩٧ والارشاد ٣/٢٢٦ والتصوير الفنى ٣٨ .

(١٠٥) الآيتان ٦ ، ٧ الغاشية .

* ـــ ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » (١٠٦) .

ـــ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا » (١٠٧)

والمعذبون طوائف ، ولكل لون خاص مناسب من العذاب .

ثم ان الطعام له دلالة لغوية عامة هى مطلق تذوق الشىء وكل مايطعم حتى الماء كقول الله تعالى : ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى » (١٠٨) ويقال تطعمت منه أى ذقته قال العلماء فى آية طالوت اختير هذا اللفظ (يطعم) لأنه أبلغ . لأن نفى الطعم يستلزم نفى الشرب ، ونفى الشرب لا يستلزم نفى الطعم اذ يحصل من مجرد ذوقه دون شربه وبلعه (١٠٩) وهناك دلالة عرفيه وهى تخصيص الطعام بما يؤكل ، وبين الدلالتين كان اختلاف الآراء . (١٠٦)

فقد أجاز الزمخشرى أن يكون المعنى : أنهم لا طعام لهم أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الناس ، كما يقال ليس لفلان ظل الا الشمس ، أى لا ظل له فهو من التعليق بالمحال ، أريد به النفى على أبلغ وجه ، وقد حمل ابن القيم ارادة النفى المؤكد على الكناية بالارداف . ويرى بعض العلماء أنه كناية عن الطعام المكروه ، اذ ليس من طعام الانسان ولا فيه فائدته وهى السمن والغناء من الجوع ، بل هو شر الطعام وأخبثه وأبشعه ، سواء فسر الضريع بالشبرق اليابس ، وهى شجرة ذات شوك ، اذا يبست سميت ضريعا ،

الآيتان ٣٦ ، ٣٧ الحاقة .

(١٠٧) الآية ٢٥ النبأ .

(١٠٨) الآية ٢٤٩ البقرة .

(١٠٩) راجع مقاييس اللغة ٣/٤١٠ ، والنهاية فى غريب ا ١٢٦/٣ والبحر المحيط ٢/٢٦٤ .

تعافه الابل وتتحاماه وهو سم قاتل أم مسر بشجر من نار أو حجارة أو غيرها فالاستثناء على رأى الكشاف من المتصل تأويلا ، وعلى الرأى بعده • منقطع ، كما نظر أبو حيان الى الدلالة اللغوية فرجح الاتصال لأن الطعام ، ما يطعمه الانسان وهو قدر مشترك بين المستلذ والمكروه • أما الآية الأخيرة : فالبرد ما فيه روح وراحة • أو مطلق البرد ، والحميم الماء الحار ، والغساق : ما يسيل من صديدهم ، وهما مستثنيان من (شرابا) على الاتصال وجاز أن يكون الغساق هو الزمهرير ، فيكون مستثنى من (بردا) ففيه لف ونشر غير مرتب ، قال البقاعى هنا فالاستثناء على هذا موزع : الحميم من الشراب ،والغساق من البرد ، فالحميم شرابهم فى دولة السعير والغساق فى دولة الزمهرير وأجاز الشهاب وابن القيم الانقطاع على أن فيه نفى الشىء واثبات ضده (١١٠) •

ونعتقد أن ما ذكر القرآن الكريم من ألوان الاطعمة والأشربة للمعذبين كالزقوم والمهل ، والحميم والغسلين والضريع والغساق انما هى مدلولات حقيقية امعانا فى التعذيب ، جزاء وفاقا فى مقابلة ما نعم به المؤمنون •

ففيه القصد الى وصف ضروب من العذاب كالأطعمة والأشربة تتناولها الأفواه وتمتلىء بها البطون ليكون العذاب محيطا شاملا،خارجا وداخلا تقاسمته الجوارح ، والأعضاء ، ففيه التصريح النافذ لا الكناية المستترة ، واثبات الطعام لا نفيه ، وفى ذكر الطعام والأكل وهو فى العرف ما يلذ ويفيد ويمتع بل هو هدف أكبر للكافرين فى الدنيا الأكل تمتعا « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل » •

---

(١١٠) راجع : الطبرى ١٠٣/٣٠ ، والكشاف ٢٠٩/٤ ، ٢٧٤/٤ والبحر ٢٤٦/٨ ، ٤٦٣/٨ وبدايع الفوائد ٧٠/٣ ونظم الدرر ٣٧٣/٢٠ ، ٢٠٦/٢١ والبيضاوى والشهاب ٣٠٧/٨ •

ثم بقاء الاسم والعنوان وتغيير المسمى والمدلوك الى ما هو أبعد من الضد • فما كان منبع متعه صار مصدر عذاب • خارق مهـــول ، تهويلا وترهيبا ، وتصويرا يصدع الأفئدة وفيه هذا التهكم القـــادر المستعلى •

الفعل زاد وأسلوب الاستثناء

حكى سيبويه وغيره : قولهم : مازاد الا ما نقص ، وما نفع الا ما ضر ، والمعنى : مازاد النهر الا النقصان ، وما نفع زيد الا الضر ، قام النقصان مقام الزيادة والضر مقام النفع ، كما يقال الجوع زاد من لا زاد له ، والنكتة فيه كما قال ابن يعيش « ان الاستثناء من الجنس تخصيص وفى هذا الباب استدراك » (١١١) •

فهو ملحق بالمنقطع من تأكيد الشيء بما يشبه ضده ، كنـــاية دالة على نفى الزيادة والنفع •

غير أن الفعل « زاد » فى القرآن الكريم ذو شـــأن متنـــوع فى أساليب القصر » (١١٢) •

فقد جاء على الاتصـــال فى مدح المؤمنين ووصـــفهم بمـــا هو خير كقوله تعالى : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما » (١١٣) فأصل الايمان والتسليم موجود ، وهى الآية الوحيدة التى جاء الفعل فى أسلوب القصر فى جانب المؤمنين ، وباقى الآيات فى هذا المعنى جاءت

---

(١١١) راجع شرح المفصل ٢/٨١ • والكتاب لسيبويه ٢/٣٢٦ •
(١١٢) المعجم المفهرس ٣٣٤ •
(١١٣) الآية ٢٢ الأحزاب •

بدون قصر نحو : « والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم » (١١٤) « الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (١١٥) .

ولعل انفراد آية الأحزاب بالقصر — والله أعلم — للتعبير عن موقف الابتلاء المزلزل للمؤمنين فى غزوة الأحزاب ، حين انبعث الكفر بقبائله وطوائفه ، وأحاطوا بالمدينة كما وصف الله « اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » (١١٦)

ومع كل هذا كان التصديق المطلق من المؤمنين ، والتسليم الكامل فالقصر يزكي ثبات العقيدة ، ورسوخ التوحيد والهداية فى هذه القلة الصابرة الفريدة .

كما جاء الفعل « زاد » وصيغه كثيرا فى جانب الكافرين من كل الأمم على طريق القصر ، واقعا على ألوان من الضلال والتبار والخسار والفرار ، والمقت ، والنفور ، والتثبيب ، والتخسير (١١٧) .

ومن المثير أن تستأثر قصة نوح فى سورة نوح عليه السلام بعديد من هذه الأساليب تلاؤما مذهلا مع قصة الدعوة المتطاولة من نوح فقد مكث يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما وفى كل أحداث القصة زيادة على المعهود ايجابا وسلبا ، زيادة فى الدعوة زمانا وحدثا .

وزيادة فى فرارهم وفجارهم . وزيادة فى النعم التي زادتهم خسارا ، وفى دعاء نوح عليهم ، كان بالزيادة الضلال ، ثم التبار ،

---

(١١٤) الآية ١٦ محمد عليه الصلاة والسلام .
(١١٥) الآية ١٧٣ آل عمران .
(١١٦) الآية ١٠ الأحزاب .
(١١٧) المعجم المفهرس ٣٣٤ .

والاستئصال حتى الانتقام الالهى زاد على المعهود « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » (١١٨) وحتى اغراقهم لم يكن كاغراق فرعون وملئه بل كان بطوفان طم وعم الأرض بأمواج كالجبال • فالسورة مبنيه على زيادة الأحداث الفاظا ودلالات •

والأسلوب الأول فى السورة : قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا » (١١٩) وهنا التعجيب فما كان سببا للهدى والاقبال انقلب لديهم سببا لا للاعراض فحسب بل للفرار تصويرا حركيا لادبارهم المستمر ، ومن حديث نوح فى سورته وهو تقرير مفصل أو اعتراف كامل بقصته على سبيل الايجاز نحس الأسى والحزن والشكاة الجريحة ، والتفويض الواثق ومنه « واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا » وهنا أيضا التناقض الحاد فى موقفهم فالشىء أصبح نبعا للنقيض : فالمال والولد وهما نعمة تبصر بالمنعم تلك التى لم تزدهم الا وجاهة ، ومنفعة زائدة فى الدنيا كانت سبب خسار ابتدأ بنهايتهم واستمر فى آخرتهم وزيادة الخسار الأخروى توحى بأن الخسار كالصفة اللازمة لهم ، بل سمة يعرفون بها تحقيقا وتصويرا مؤكدا للخسار (١٢٠) •

والمقصود بقوله : اتبعوا من لم يزده •• الآية هم الملأ الأشراف من رؤسائهم وكبرائهم وقد قادوهم فى طريق الضلال حتى أخسروهم وأهلكوهم (١٢١) •

---

(١١٨) الآية ٢٥ نوح عليه السلام •

(١١٩) الآية ٦ نوح •

(١٢٠) راجع فى أساليب سورة نوح : الكشاف ٤/٢٦٢ وما بعدها والبحر ٨/٣٣٨ وما بعدها •

(١٢١) المرجع

ثم كان دعاء نوح عليهم « ولا تزد الظالمين الا ضلالا » (١٢٢) « ولا تزد الظالمين الا تبارا » (١٢٣) .

وقد وسمهم بالظلم مرتين لأنهم تجاوزوا الحد فى الكفر وزادوا فى الطغيـــان وهو سبب لهـــذا الدعاء عليهم الذى انتهى بطلب الهلاك الزائد تناسبا كما قلت مع الزيادة فى أحداث القصة .

وصف الكافرين بزيادة المقت أو النفور أو الخسار قريب المأخذ لأن أصل الحدث موجود بوجود أس البلاء وهو الكفر بالله تعالى .

كقوله تعالى « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا . ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا » (١٢٤) وكقوله تعالى : « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم الا نفورا » (١٢٥) .

والمراد بالناس الكفار والنفور من صـــفة الدواب (١٢٦) وهو المعهود فى ذم الكفار فى القرآن . لكن المشـــكل وصف المؤمنين بزيادة الخبال أو وصف صالح عليه السلام بزيادة التخسير فى بعض المواقف قال تعالى — وقد قعد المنافقون مع الخالفين عن غزوة تبوك فى جيش العسرة ، واختلقوا اعذارا ففضـــح الله نفاقهم ، وعرى بواطنهم ، ثم بين أنهم لوخرجوا لكانوا فتنة وبلاء « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعـــدوا من الخالفين ، لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » (١٢٧) .

---

(١٢٢) الآية ٢٤ نوح .
(١٢٣) الآية ٢٨ نوح .
(١٢٤) الآية ٣٩ فاطر .
(١٢٥) الآية ٤١ الاسراء .
(١٢٦) راجع فى الآيتين ٥ ، ٦ ، البحر ٦/٤٠٠ ، ٣١٧/٧ والاستغناء ٣٢١ .
(١٢٧) الآية ٤٧ التوبة .

ولما كان أصل الخبال غير موجود فى معسكر المؤمنين فقد أورد بعض العلماء رأيا بالانقطاع أى ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالا (١٢٨) كما رأى الزمخشرى وغيره انه من المتصل وليس المنقطع لأن المستثنى منه مقدر بأعم العام وهو شىء ، والخبال بعضه ومعنى الخبال الفساد والشر وعلى هذا فمعنى زادوكم أورثوكم عندهم (١٢٩)، وأحسب ــ والله أعلم ــ أنه عبر بالفعل زاد ، لبيان خطر المنافقين الجسيم على الطائفة المؤمنة ، كما يجوز أن يراد بالمخاطبين « بعضهم» بدليل « وفيكم سماعون لهم » أى فيكم قوم ضعفة نمامون أو يسمعون للمنافقين كما أولها أبو السعود (١٣٠) وهؤلاء الضعاف قد يسيئون فيسببون مع المنافقين البلبلة والفساد وتفريق الكلمة . كما جاء فى مقاولة صالح عليه السلام لقومه :

ويا قوم من ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير » (١٣١) .

أما ان عصيت بالمساهلة فى تبليغ الرسالة ، ومجاراتكم فيما تأتون وتذرون لا تفيدوننى غير تخسيرى وابطال عملى ، وقد أول بعضهم تزيد بمعنى تفيد اذ لم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه ــ كما قال أبو السعود ــ

ولم يوضح أحدهم سر استعمال الفعل زاد دون سواه ، ويبدو ــ والله أعلم ــ أنه لزيادة التهويل ، واستبعاد عصيان الله تعالى ، وأن مجرد التفكير فى ذلك يوقعه فى الخسار العظيم ، بله المعصية المرة ،

---

(١٢٨) راجع البحر ٥/٤٩ وتفسير أبى السعود ٤/٧١ .
(١٢٩) راجع الكشاف ٢/١٩٤ والمراجع .
(١٣٠) تفسيره ٤/٧١ .
(١٣١) الآية ٦٣ هود عليه السلام .

ولعل مما يصعد هذا الشعور بالاستبعاد والتهويل أنه عبر بلفظ الجلالة بعد ذكر « ربى » فى الآية قبلها ـ وذكره تقدس وجل ـ أدل على مواقف الأخذ والانتقام . ولذا تفهم دلالة الصياغة « تخسير » دون خسار مثلا ، أى اتجعلونى أكثر خسارا . فكان اتباعهم يضاعف الخسار مرتين بالفعل : تزيد » والمصدر « تخسير » وهو مناسب للمعروف فى القرآن من تضعيف الجزاء خيرا حقيقة أو شرا تقديرا وفرضا للرسل والأنبياء وخسائهم .

وثم رأى آخر وهو أن التخسير معناه نسبتهم الى الخسران فتكون صيغة نسب نحو كفر وفسق : أى نسبه للكفر والفسق والمعنى: لا تزيدوننى بهذا الرأى الفائل الآسن الا أن أوكد حكمى عليكم بالخسران ، والأول أقوى وأقرب (١٣٢) .

---

(١٣٢) راجع فى الآية : الكشاف ٢/٣٧٩ ، البحر ٥/٢٣٩ ، والارشاد ٤/٢٢٢ .

القصر بين الحقيقي والاضافي

وهو تقسيم راجع الى اعتقاد المتكلم ، وقصده وواقعه النفسي ، والى الواقع الخارجي ، لأن قصر شيء على شيء اما بحسب الواقع بحيث لا يتعداه الى غيره ، وهذا الغير المنفى اذا كان عاما كان القصر حقيقيا واذا كان خاصا معينا كان قصرا اضافيا ، والواقع — كما نبه غير واحد من الفضلاء — أن القصر كله اضافي لأنه بالاضافة الى ما يقابل المثبت ، سواء كان هذا المقابل عاما أو خاصا . ولكنه اصطلاح ولا مشاحة فيه (١) . وذكر المخاطب في القصر الاضافي انما هو من أسباب التنويع في الصياغة لأن الأساس والأهم هو المتكلم الذي يدير الكلام في قلبه وفكره حسبما يظن في المتلقي أو المخاطب وحاله الخاصة التي قد تكون حقيقية أو تنزيلية بمعنى أن يفترض له المتكلم حالا خاصة اثارة له أو تناسبا مع الموقف العام قال عبد الحكيم ان « المتكلم لا يورد الكلام الا على حسب اعتقاده » (٢) .

القصر الحقيقي :

كقول الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام « فاعلم أنه لا اله الا الله » (٣) وخطابه تعالى لموسى عليه السلام « انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني » (٤) .

بقصر صفة الألوهية على الله تعالى ، بمعنى نفي كل فرد فرد من الآلهة ثم حصر ذلك المعنى فيه تبارك وتعالى (٥) .

---

(١) راجع شروح التلخيص ١٦٨/٢ والأطول ٢١٣/١ .
(٢) راجع حاشية عبد الحكيم ٣١١ .
(٣) الآية ١٦ محمد عليه الصلاة والسلام .
(٤) الآية ١٤ طه . (٥) راجع البحر ٤٦٣/١ .

ونلحظ فى نظائر هذا الأسلوب أنه اذا ذكر لفظ الجلالة الأقدس مقصورا عليه اختفى وانتفى ما يقابله ، كما نلحظ أن لفظ « اله » فى أصل استعماله موصوف كقوله تعالى ، االه مع الله » (٦) وقال « ولا تدع مع الله الها آخر » ، وقال « على لسان موسى عليه السلام للسامرى « وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا » (٨) .

وقد يراد به الوصف تأويلا فى بعض الأساليب كشهادة التوحيد

وفى الآية « أنا الله لا اله الا أنا » ومثلها عديد : « هو الله الذى لا اله الا هو » نجد فى الأسلوب قصرين : أنا الله — هو الله : بتعريف الطرفين واتحادهما ذاتا ومدلولا ، بقصر لفظ الجلالة على المقدم أنا — هو — دون غيره قصرا حقيقيا تحقيقيا ، ويؤول الضمير (أنا — هو) بالمشتق بجعله خبر الكون .

والقصر الثانى : لا اله الا أنا — الا هو ، بقصر الألوهية على أنا وهو — دون غيره قصرا حقيقيا ، والجمال والجلال هنا أن القصرين كونا دائرة واحدة تبدأ بالضمير وتنتهى به والمقصور والمقصور عليه متحدان فهو سبحانه « الأول والآخر » والأسلوب يشع جلالا وحسما وتوحيدا .

ولا بأس هنا من وقفة قصيرة عند آية قرآنية شريفة قوله تعالى « ان هذا لهو القصص الحق ، وما من اله الا الله . وان الله لهو العزيز الحكيم » (٩) .

وقد جعل فى الكشف الآية ردا على النصارى فى دعواهم التثليث فالنفى خاص وقد ردد عبارته « البيضاوى وأبو السعود والنيسابورى

---

(٦) الآية ٦٠ النمل (٧) الآية ٨٨ القصص .
(٨) الآية ٩٧ طه وانظر الاحصاء فى المعجم المفهرس ٣٨ .
(٩) الآية ٦٢ آل عمران .

والألوسى وأوله الشهاب بأنه قصر اضافى ، وقد يوحى السياق والمناسبة بذلك ذلك أن نصارى نجران جاءوا يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن عيسى عليه السلام ، فرد عليهم ثم دعاهم الى المباهلة فتراجعوا وقد ذكر القرآن ذلك ثم عقب بالآية ، لكننا من التتبع السابق نرى أنه اذا جاء لفظ الجلالة مقصورا عليه اختفى مقابلة تماما وكان قصرا حقيقيا يقوى هذا الملحظ ما ذكره الطبرى من أن الآية حكم فاصل وأن المعنى . ليس للخلق معبود الا معبودك وهو الله العزيز الحكيم وما قاله أبو حيان من أن « هذا » صدر الآية اشارة الى القرآن على رأى الجمهور ثم قال وفيه رد على الثنوية والنصارى وكل من يدعى غير الله الها • وهذه لمحة ذكية موفقة واذن فالمقابل المنفى ليس خاصا بعيسى وأمه عليهما السلام بل هو عام والله أعلم ولهذا فان شهادة التوحيد مهما اختلف المقصور عليه لفظا أعنى لفظ الجلالة (١٠) أو الضمير أنا أو أنت أو هو خاصا بالله تعالى من القصر الحقيقى ، ذلك أن لا لتأكيد نفى الجنس ولفظ الجلالة أو ضميره ، ليس له مقابل أو مكافىء وكذلك اذا جاء لفظ الجلالة بعد ما النافية كقوله : « وما من اله الا الله الواحد القهار » (١١) فهو حقيقى أيضا وقد سوى بين العبارتين الزمخشرى لأن كل واحدة منهما اشتملت على نفى واثبات ومن المؤكدة للاستغراق ملفوظ بها فى الثانية وقد تضمنت الجملة معناها فى الأولى وهى شهادة التوحيد ، ورد الزركشى بأن شهادة التوحيد أبلغ ، ولذا اختيرت ، لأن « لا » أقعد بالنفى العام ، لأن المقصود من لا نفى الذوات ، لأنها انفى الجنس والماهية ، ايذانا بأن الغرض الاسم لا الخبر ، وخبر ما هو المقصود بالنفى ، ولا يمكن حذفه ، ثم ان دلالة الاسم الذى ركبت

---

(١٠) راجع فى الآية : الطبرى ٣/ ٢١٠ ، والكشاف ٢/ ٤٣٥ ، والبحر ٤٨٢/٢ والارشاد ٤٧/٢ والشهاب على البيضاوى ٣٢/٣ والألوسى ١٩١/٣

(١١) راجع فتح تقرير رأى الزمخشرى والرد : رسالة الزركشى فى « معنى لا اله الا الله » ص ٩٧ ــ ٩٨ •

معه لا ، على الاستغراق أمكن من دلالة الحرف « ما » على أن التركيب من لا واسمها يحدث زيادة لا توجد فى غيره (١٢) .

ومعنى هذا أن دلالة لا على التوكيد أقوى من ما ، لنفيها الجنس وعلى شمول النفى أيضا وكونه مطلقا ، وينبغى أن تعدل عبارة الزركشى فيبدل بأبلغ أقوى ، لان كل جملة فى سياقها بليغة بل هى وحدها البليغة .

وقال تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ، ولا يابس الا فى كتاب مبين » (١٣) .

وقد توالت — فى الآية — أساليب القصر ، لتحقق أن الغيب مختص بالله تعالى ، لا يعلمه سواه من مخلوقاته ، فهو قصر حقيقى ، بدأ بقوله « وعنده مفاتح الغيب » وهى قضية كلية معقولة ظهرت فى معرض بيانى ، فالغيب مخازن لها مفاتح ، استأثر الله بها ، والمعنى المجرد أن الله متحكم فى علم الغيب ، وأن المقدورات الغيبية مختصة به تعالى ، وقدم الظرف (الخبر) فأفاد القصر بطريق التقديم ، والمنفى عام فى الأسلوب والخارج جميعا ، وأكد بالقصر بعده « لا يعلمها الا هو » قصر صفة على موصوف ، والقصران يمثلان حلقة دائرية تبدأ بالموصوف وتنتهى به رمزا الى احاطته تعالى ، وهذه ظاهرة — كما سبق — تستأهل التأمل .

ثم قدم القرآن نماذج محسوسة فى لوحة طافت بعالم البر وهو مشاهد ، وعالم البحر وما فيه من عوالم وأحياء ، متطرقة الى أدق ما يخطر بالبال من كل ورقة تساقط من منبتها ، بهذا العموم وهو استغراق مذهل ، يحار فيه العقل والخيال فى عالم مطرد التغير والاحالة

---

(١٢) المرجع ٩٨ .

(١٣) الأنعام ٥٩ .

مستمر الحركة ، ولذا كانت الأفعال حالية ، مع هذا التلوين الغريب في قوله حية ، بأنواعها ومذاقاتها ، وألوانها ، مع تصورها — في ظلمات الأرض بعيدا عن الحس . ثم طوى هذه اللوحه الواسعة المنبسطة على ساح الوجود ليعود الى القضية موجزا في أسلوب آخر « ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » وهو القصر الرابع والأخير بدل كل أو اشتمال من الأسلوب الأول وفيه احاطة وشمول يناسب التذييل المقرن « كتاب مبين » وهو علم الله المحيط أو اللوح المحفوظ (١٤) وانظر الى هذا الطباق المصور المتعدد ، واتساع الصورة ، مع الايجاز المذهل ، والاستيلاء على طاقات النفس تأثيرا وعلوا .

وحين يكون المنفى عاما شاملا يسمى القصر تحقيقيا ، وهناك وهناك مقابله وهو غير التحقيقى ، أو الحقيقى على سبيل المبالغة ، ويسمى مجازيا ، أو ادعائيا في غير القرآن الكريم ، وذلك حين يكون في الواقع ما يقابل المثبت ، ولكن ضرب عنه صفحا ، واعرض عنه لقلة جدواه ، وعدم خطره في بناء المعانى ، كقول الله تعالى — على لسان موسى — عليه السلام . بعد أن نجى الله بنى اسرائيل من فرعون ، وقد دعاهم — عليه السلام . الى دخول الأرض المقدسة مدينة المقدس ، وكان فيها قوم جبارون قالوا « لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون .. قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين » (١٥) فقوله لا أملك الا نفسى وأخى فيه لمسة أسى ، ونبرة حزن ضارعة ، وشكاة لاجئة الى الله ، فهو من قصر الصفة وهى الملك بمعنى التحكم على موصوف هو نفسه وأخوه وعطف أخى ، اما لأن هارون نبى مطيع لله ، فهو من عطف المفردات ، أو من عطف الجمل أى وأخى لا يملك الا نفسه (١٦) والمعنى متقارب

(١٤) راجع ارشاد أبى السعود ٣/١٤٢ (١٥) الآية ٢٥ المائدة .
(١٦) الارشاد ٣/٢٥ وغرائب النيسابورى ٦/٧٦ .

وجوز ارازى أن يكون المراد بالأخ من يواخيه فى الدين (١٧) ، وهـذا بعيد لأن أخى جاءت فى القـرآن على لسـان موسى مرادا به هارون عليهما السـلام .

والقصر حقيقي ولكنه غير تحقيقى . ذلك أن الآيات وضـحت ، أن ثم رجلين من بني اسرائيل كانا مع موسى وهارون « قال رجـلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون » (١٨) لكن موسى أهمه أمر الجماعة لمعصية فلم يعن بذكر هذين الرجلين ، بعدما صنع الله لبنى اسرائيل من النجاة والخير . والقصر شكوى آسية ضـارعة (١٩) ولذا أجاب الله دعاءه « فافرق » فكتب عليهم التيه والتشريد فى سيناء أربعين عاما .

وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى تأنب المنـافقين عليه ، وتقصير بعض المؤمنين فى طاعته لاذاعتهم بعض أسرار المؤمنين وسراياهم عن قصد حسن ، « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسـك وحرض المؤمنين » (٢٠) أى لا تكلف الا فعل نفسك فجملـة القصر مقررة لما قبلها ، فان اختصاص تكليفه صلى الله عليه وسلم بفعل نفسه من موجبات مباشرته القتال وحده ، وفيه كناية عن أن تثبيط المنافقين لا يضره ، ولا يؤاخذ به ، وقرىء تكلف مجزوما على النهى بالتاء والنون على البناء للفاعل ، والنفس مقصور عليه قصرا حقيقيا غير تحقيقى ، لأن المؤمنين كلفوا أيضا بالقتال ، ولكن لما كان المقام هنا خاصا بمعالج كيد المنافقين وغفله قلة المسـلمين جاء الأسلوب قويا مبنيا على الالتفات ضاربا الصـفح عن المؤمنين فى التكليف تعريضـا لاذعا لأفرار من المسلمين ، وبث الثقة العميقة فى قلب النبى بأن الله كفيل بنصر الدين . (٢١)

---

(١٧) راجع التفسير الكبير ٣/٣٨٩ .
(١٨) الآية ٢٣ المائدة
(١٩) راجع الكشاف ١/٤٨٣ .
(٢٠) الآية ٨٤ النساء .
(٢١) راجع تفسير أبى السعود ٢/٢٠٩ والشهاب ٣/١٦٢ والألوسى ٥/٩٧

ومنه قوله تعالى ــ داعيا المؤمنين الى القرآن وأنه هداية ، وحجة عليهم « فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ، أن تقولوا انما انزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وان كنا عن دراستهم لغافلين » (٢٢) وأن تقولوا ، أى لئلا تقولوا يوم القيامة ففيه قصر انزال الكتاب ــ وال فيه للعهد ــ على طائفتين : اليهود والنصارى بالتوراة والانجيل ، ولم يذكر سواهما كصحف ابراهيم ، والزبور وغيرهما لشهرة التوراة والانجيل بين الكتب السماوية بالاشتمال على الوصايا العشر المذكورة قبيل هذه الآية ، ثم ان غيرهما لا أحكام فيهما ، وفى قولهم « وأن كنا عن دراستهم لغافلين » وصف صادق لموقفهم من كتب السابقين لأنهم أميون وليست هذه الكتب بالعربية . (٢٣)

فهو قصر غير تحقيقى ترك فيه ما عدا المقصور عليه لعدم خطره ، والشواهد السابقة من قصر الصفة على الموصوف وهو كثير فى الأساليب ، لأن تفرد الموصوف بصفة لا يشاركه فيها ممكن عقلا وواقعا وكثير على سبيل التخييل والمبالغة .

أما قصر الموصوف على الصفة فقد نصبت مدرسة السكاكى أدلة عقلية صارمة على استحالته قالوا انه لا يكاد يوجد من البليغ المتحرى للصدق لعدم وجوده خارجا ، ولتعذر الاحاطة بصفات الشىء ثم احتمال رفع النقيضين اذ اثبات القيام فى قولك ما زيد الا قائم يستلزم الا يتصف بصفة القعود ولا بنقيضها ، وهى عدم القعود وهكذا باقى الصفات (٢٤)

وقد استدرك بعضهم بأن المراد اختصاص الموصوف بالصفة

---

(٢٢) الآية ١٥٥ ــ ١٥٦ الأنعام .

(٢٣) راجع أبا السعود ٣/٢٠١ والشهاب ٤/١٤٠ والألوسى ٨/٦١

(٢٤) راجع شروح التلخيص ٢/١٧٢ والأطول ١/٢١٤ ، وعبد الحكيم ٢٢٩ والامبابى ٣/٤٣ .

بالاضافة الى ما يصح أن يتصف به ذلك الموصوف ، مما يدور فى اطار تلك الصفة ، ولو بحسب زعم باطل ، ففي قولك : ما هذا الثوب الا أبيض انما يعنى نفى ما عدا الابيض من الالوان ، ويقدر المستثنى منه ما هذا الثوب ملونا الا أبيض ، دون قصد الى ما يمكن ان يتصف به الثوب من صفات كالطول وعكسه ، ونوع النسيج ، الى غير ذلك مما هو خارج عن دائرة القصر ، (٢٥) وهذا ترجمة لقول عبد القاهر رحمه الله : المنفى فى القصر ما يكون بسبيل المثبت من الصفات القريبة منه ، ففى : ما زيد الا قائم : المنفى : أن يكون جالسا أو مضطجعا أو متكئا أو ما شاكل ذلك لا أن يكون أسود أو أبيض ... (٢٦)

وقد ترك كثير من مدرسة السكاكى هذا النبع الصافى ، والتحليل الذوقى المتكىء على الوجدان والفكر معا الى اتجاهات عقلية كثيرة الاحتمالات لأنهم ابناء بيئتهم وعصرهم ثم قد يرجعون الى لمحات عبد القاهر فى الفينة بعد الفينة تأثرا بالمدرسة الادبية الفارعة عند ابن الأثير وعلماء الاعجاز والبديع القرآنى والتحليل الأدبى .

واستدرك الامبابى بتحديد دائرة من الصفات المتقاربة تأثرا بعبد القاهر سبيلا لوجود قصر الموصوف على الصفة يمكن أن يقفنا على عديد من الشواهد القرآنية فى هذا النوع : قال تعالى : عن قيام الساعة « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب ». (٢٧) وقال « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » (٢٨) فهو وصف لقيام الساعة وأنه يكون خارقا فى بغتته وسرعته ، على أسرع ما يمكن أن يتخيله بشر

---

(٢٥) ثم ان عبد الحكيم نازع فى هذا المثال وجعله من قصر الصفة اى قصر تلوين الثوب على بياض وراجع عبد الحكيم ٢٢٩ وتقرير الامبابى ٤٣/٣ .

(٢٦) الدلائل ٢٣٤ . (٢٧) الآية ٧٧ النحل .

(٢٨) الآية ٥٠ القمر وراجع أبا السعود ٨٦/٨ والالوسى ٩٤/٢٧ .

ـــ من ضربهم المثل فى سرعة الشىء وانقضائه بأنه لمح البصر ، وقد ترقى الأسلوب مصعدا المعنى فقال : « أو هو أقرب » ليعم ما يدخل تحت الامكانات العقلية والعلمية ، والصفة المثبته : السرعة الخارقة والمنفى : غير ذلك مما يدور فى اطارة من درجات السرعة والتوسط والبطء ، والمقام لا يلتفت الى هذا المنفى لأنه غير مراد تماما .

أما قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا على سبيل المبالغة فلا حد له ، تقول ما شوقى الا شاعر تدعى أنه بلغ فى الشعر المدى ، حتى كأنه لا صفة له سوى الشعر ، وان كان كاتبا ، وينبغى أن تعلم أن قولك ما زيد الا شاعر لمن ينكر صفة الشاعرية لا لمن يثبت صفة مقابلة كالكتابة والخطابة والا كان قصرا اضافيا ، والقصر الحقيقى فى القرآن يرد كثيرا للوصف الصادق وتأكيد هذا الوصف فى مقام قوى ذى ايحاء وظلال متولدة مديدة .

قال تعالى : يصف انتقامه القاهر من قوم عاد بالريح المهلكة « وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه الا جعلته كالرميم » (٢٩).

والآيتان من سورة الذاريات وهى مكية ، قصيرة الآيات ، شديدة الجرس ، عنيفة الوقع والايقاع ، مشعة المعانى ، وآيات الانتقام فيها ذات هول ورهبة وتلحظ هنا : أن الفعل يذر جاء كثيرا فى معرض الغضب والنقمة ، لأنه بحركاته المتوالية وحروفه الذلقة الخفيفة يصور السرعة الخارقة فى الأخذ ومنه : فى الوليد : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » (٣٠) وفى دعاء نوح عليه السلام : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » (٣١) .

---

(٢٩) الآية ٤١ ، ٤٢ الذاريات .
(٣٠) الآية ١١ المدثر . (٣١) الآية ٢٦ نوح .

ومع أن الطرفين فى الأسلوب فعلان واصفان للريح يؤول الفعل الأول مع الريح بمعنى قصر الريح على تدمير الاشياء فهـــو وصف لعنفها ، وتدميرها الشامل بأنها ما تترك شيئا قابلا للدمار الا جعلتـــه رميما ، وقوله « من شىء » يفيد عمومها بنحو من نفوسهم واموالهم ومساعهم ـ كما فعل أبو السعود ومعه حق » (٣٢) تناســبا مع آية الأحقاف «تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم»(٣٣) لتبقى هذه المساكن عبرة للأجيال .

وقال تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيـــا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء » (٣٤) والمراد بالوحى: الصوت الخفى ، ليكون الاستثناء متصلا (٣٥) وقد قصر تكليـــم الله للبشر واتصاله بهم على هذه الطرق قصرا تحقيقا ، نفيا لكل ما يمكن أن يزعم من الاتصال بالملأ الأعلى ، وسبك الأسلوب فى صورة حقيقة ناصعة يزهق كل باطل يروجه دعى آفك أو ماكر ماجن أو عدو للأديان وقد ابتلى بهم زماننا أكثر من أى زمان .

وقال تعالى فى آكلى الربا « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (٣٦) فهو اون من جزائهم حين يقومون من قبورهم يوم الدين ، فيقصر قيامهم على هذا المشهد الفريد والقيام الغريب ، وهو قيام المصروع المتخبط أو المجنون (٣٧) .

والمصروع من به داء الصرع وكان العرب ينسبونه الى مس من الشيطان فهو مفزع مضطرب مذهوب به كل مذهب ، لا تتحكم ارادته

---

(٣٢) تفسير أبى السعود ٨٦/٨ .
(٣٣) الآية ٢٥ الأحقاف (٣٤) الآية ٥١ الشورى .
(٣٥) راجع الشهاب ٤٢٩/٧ .
(٣٦) الآية ٢٧٥ البقرة .
(٣٧) راجع البحر ٣٣٤/٢ والشهاب ٢٤٧/٢ .

أو عقله فى حركات أعضائه المتخالفة ويضاف الى هذه الصورة المتداخلة الحركات هذا البطن المتضخم بسبب الربا فى الدنيـــا الذى تشـــمله الحركات أيضا تبشيعا وتنفيرا مقززا ، والتشبيه وصف لمصدر محذوف أى الا قياما كقيام الذى يتخبطه الشيطان جزاء وفاقا بينه الحـــديث الصحيح .

طـــول الطـــرفين :

والموصوف أو الصفة ـــ فى القرآن الكريم ـــ قد يكون ذا أجزاء متوالية مستوعبة ، تشمل مفردات متعاطفة ، أو جملتين ، أو جملا ـــ وفرة فى الدلالة ، وصدقا فى الأداء ، ووفاء بالأغراض كقوله تعـــالى : فى غزوة العسرة يصف أحوال المؤمنين ، ويرصد تحركاتهم ، ويشـــيد ببذلهم فى سبيل الله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصـــب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينـــالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهـــم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (٣٨) . وقد كان صـــيغا قائظا ، وثم قصران ، شمل الأول خمس حالات متعاقبة تبدأ ، بالظمأ فالنصب فالجوع والمسغبة ثم احتلالهم مواطن تغيظ عدوهم وهذا معنى «يطأون» أو يوقعون بهم ، والأول أولى حتى لا يتكرر مع : ينالون من عدوهم ، وهى المرحلة الخاتمة وقد جاءت لا النافية مع كل حال ؛ افرادا لها ، وإشادة بها . ولذا وحد الضمير فى « به » أى بكل واحد مما تقـــدم ، وقد قصر ذلك على كتابته عملا صالحا ، كناية عن الرضا وجزيل المثوبة ، وقصر فى الآية الثانية : الانفاق وقطع الفيافى والوديان ســـعيا الى أعدائهم على كتابته بذاته ، وأفاد القصران الاستحقاق اللازم بمقتضى

---

(٣٨) التوبة ١٢٠ ـ ١٢١ .

وعده الكريم تعالى — وللعلماء فى تحليل الصياغة فى القصرين نظرات ثاقبة :

فالترتيب فى القصر الأولى : حسب كثرة الوقوع وقلته ، وشدة الأثر فى النفس ، فالظمأ أشد وأكثر مما يليه وأعتقد ان التسلسل أعم من ذلك : فهو تسلسل زمانى متعاقب ومكانى وترتيب فى الأحداث حسب وقوعها فالظمأ أول ما يصيبهم — فى سفرهم الشاق — ثم احساس بالتعب ولذلك ولطبيعة الأسفار فى الهاجرة ، وشعور بالجوع الحاد بعد عناء ولكنه يهون لأنه فى سبيل الله ان قوة الايمان تنسى المتاعب وها هم أولاء يقتطفون اوائل الثمار فيطأون موطئا مغيظا للكفار وهو تصوير للشدة والعزة على الكفار ثم النهاية الواعدة بالنيل والظفر .

وفى الآية الثانية يصور حدثين أحدهما انفاق المال تغلبا على عقبات النفس وتصفية لها من الأكدار . والثانى : قطع الفيافى والوديان ركضا الى أعدائهم ايمانا واحتسابا ، وذكر العمل فى الآية الأولى « عمل صالح » لأنها مشتملة على ما هو من عملهم وهو الوطء والنيل من العدو وعلى ما لا دخل لهم فيه من متطلبات الجسد كالاحساس بالظمأ والنصب والمخمصة وقد أجراه الله بفضله مجرى عملهم لما كان بسبب من جهادهم فى سبيله :

والآية الثانية مشتملة على الانفاق ، والمشاق وقطع المسافات ، فكتب ذلك لهم بعينه وقال ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ، وختم الأولى بقوله « ان الله لا يضيع أجر المحسنين » فألحق بعملهم ما ليس منه ، ثم جازاهم عليه كله أحسن الجزاء ، ورقاهم فجعلهم محسنين ، واضعا المظهر موضع المضمر اشادة به واشعارا بسببه الجزاء وقدمهم لكثرة ما عانوا فى سبيله اعلاء لكلمته (٣٩) .

---

(٣٩) راجع فى الآيتين : الكشاف ٢/٢٠ ، والبحر ٥/١٢٣ ،

ومنه قول الله تعالى « وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه » (٤٠) وفيه قصر لهذه الحالات الثلاث التى تشمل كل أمر النبى صلى الله عليه وسلم ــ وسلوكه ثم اعمال البشر على وجه العموم على كونها مشهودة مراقبة من الله تعالى ، تربية للضمير ، وغرسا للمراقبة فى أعماق الانسان ، وهو من خطاب الواحد المراد به العموم (٤١) .

وقال الله تعالى من قصة آدم عليه السلام « فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين » (٤٢) .

فالشيطان بكذبه الناعم ، وخداعه الأملس ، يحاول أن يزرع الشك ، ويحل المحرام ، بتبرير واه ليكونوا سواء فى غضب الله ، ومابعد الا : مضاف محذوف واقع مفعولا له : أى كراهة أو خشية أن تصيرا من الملائكة أو يكتب اكما الخلود ــ وهى رغبة بشرية فطرية ــ فهو استثناء من المفعول لأجله قصر موصوف على صفة ، وهو قصر يعبر عن ختل الشيطان وسوسته وكيده .

وقد يكون المقصور عليه فى معرض صورة بيانية كالتشبيه ، تمثل حالا خاصة لها جمال التصوير والتأثير متعانقا مع فورة التوكيد كقوله تعالى « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه ، لايستجيبون

=

وأبى السعود ٤/١١١ والشهاب ٤/٣٧٦ ، والاسكافى ٢٠٤ والكرمانى ١٠١ والألوسي ١١/٤٧ .

(٤٠) يونس ٦١ .

(٤١) الجملة بعد الاحال والأحداث قبلها تفيد الدوام وراجع البحر ٥/١٧٣ ، والألوسى ١١/١٤٤ .

(٤٢) الأعراف ٢٠ وراجع الشهاب ٤/١٥٨ وغرائب النيسابورى ٨/٩٠ .

لهم بشيء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه » وما دعاء الكافرين الا في ضلال » (٤٣) فبعد أن ذكر آيات القدرة والكبرياء في سورة الرعد ذكر ما تدل عليه هذه الآيات وهو أن الله تعالى — وحده — دعوة الحق والصدق والتوحيد ، ثم صور بطريق الطباق : أن الاصنام والشركاء باطلة لا تنفع ولا تجيب دعاء ، وقد جمعها جمع عاقل لانها في أوهامهم عاقلة ، وقد نفى عنه الاستجابة الا في حال واحدة ذكرها فاذا هي حال ميئوس منها . تأكيدا لنفي الاستجابة ، اذ المعلق على المحال محال ، والطرفان في غاية التباين والتجاذب ، وقد جاء المقصور عليه صورة تشبيه غريبة غرابة تفكيرهم ، فالمشبه به هيئة انسان غرثان يكاد يهلكه الظمأ لكنه لغبائه المستحكم يقف أمام الماء الجاري باسطا كفيه في بلاهة وسذاجة ظانا أن بسط الكفين سيوصل الماء الى فمه وينقع غلته والماء في طريقه لا يلوى على شيء ، انه تشبيه طريف يرسم صورة هازئة هائلة أبدا للعين والخيال تفجر ظلالا متولدة للفداحة والغباء وضياع القصد والنفع ، والاستثناء مفزع من عموم الأحوال أو عموم المصادر ، أي لا يستجيبون لهم بشيء الا استجابة كاستجابة الماء لمن يبسط كفيه ، قصر موصوف على صفة وقد يومىء هذا الطول في المشبه به الى أن مسعى الكافرين وحركة حياتهم المرتبطة بالوثنية ، وطول دعائهم لاصنامهم مده أعمارهم هباء في هباء لا يحقق رغبة ، ولا يلبى مطلب الفطرة ، فهم بالعبث وله يعيشون .

حذف الموصوف

والموصوف في القصر لا يحذف الا اذا كان عاما ودلت عليه صفته الخاصة كقول الله تعالى عن الملائكة « وما منا الا له مقام معلوم » (٤٤)

---

(٤٣) الرعد ١٤ وراجع الشهاب ٥/ ٢٣٠ والالوسي ١٣/ ١٢٥ والتصوير الفني ٤١ .

(٤٤) الآية ١٦٤ الصافات ، وراجع البيضاوي وتعليق الشهاب ٧/ ٢٩٠

وهو اعتراف من الملائكة بحد معروف فى المعرفة والعبادة ينتهون اليه دون تجاوز بل طاعة ونزول على أمر الله فى تدبير العالم •

وهو إقرار بالعبودية ورد على من عبدوهم ذلك أنهم خلق من الخلق له طاقات معينة ممنوحة من الله لأداء رسالة خاصة وما وراء ذلك لا تناله قدرهم بل هو العجز الكامل أما الكمال المطلق فى الذات والصفات فهو لله الخالق المعبود •

وقال تعالى «وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا»(٤٥)

والضمير عائد على النار : ومعنى الورود الدخول اذا كان الخطاب للمؤمنين وتكون عليهم بردا وسلاما • كنار ابراهيم •

وجاز أن يكون الخطاب عاما للناس والمراد بالورود الجواز على الصراط أو الجثو حولها بدليل : ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » •

والموصوف محذوف تقديره : وان منكم أحد •• وقد كثر حذفه لعمومه وللقصد مباشرة الى الصفة التى تخصص الموصوف وتحدده استثمارا للفائدة •

القصر الاضافى

هو تخصيص شىء بشىء دون غيره ، أو مكانه ، فالمخفى المقابل للمقصور عليه ، خاص معين وقد جعلوا اعتقاد المخاطب أساسا لتقسيم الاضافى ، فاذا كان المخاطب يعتقد الشركة بين المقصور عليه ، وما يقابله أى شركة صفتين فى موصوف واحد ، أو موصوفين فى صفة واحدة كان

---

(٤٥) مريم ٧١ وراجع الشهاب ٦/١٧٢ •

القصر لافراد المقصور بالمقصور عليه ونفى ما يقابله ، ويسمى قصر افراد .

واذا كان المخاطب يعتقد عكس ما يثبته المتكلم ويراه ، من صفة أو موصوف ، يسمى القصر قصر قلب ، لقلبه حكم المخاطب ، وتبديله. واذا كان مترددا فى اثبات الصفتين أو الموصوفين أو احداهما أو جزم بأحدهما وتردد فى الآخر يسمى قصر تعيين لتعيينه ما هو غير معين عند المخاطب (٤٦) .

على هذا سار التلخيص وشراحه وحواشيه وما ألف من كتب بلاغيه حديثة .

موقفنا من قصر التعيين :

والواقع أننا لم نقنع بجعل التعيين من أنواع الاضافى ذلك الذى اقتضته القسمة العقلية لهذه الأسباب :

١ ــ لم ينص عليه الأمامان عبد القاهر والسكاكى ، اللهم الا ألفاظا توضيحيه جاءت فى تحليل عبد القاهر كقوله « اذا رأيت شخصا من بعيد فقلت : ما هو الا زيد ، لم تقله الا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد ، وأنه انسان آخر ويجد فى الانكار أن يكون زيدا » ولخص ذلك قائلا « وبالجملة : النفى لا يجىء لمعلوم الا لمعنى صار به فى حكم المشكوك فيه ... ونحو وما أنت الا نذير » (٤٧)

والشك والتوهم فى عبارة الامام خاص ببدء الاحساس حين يكون شكا ثم يتصاعد حتى يكون انكارا ، على أن ما استشهد به من

---

(٤٦) الايضاح ٢١٤ وتقرير الامبابى ٣/٥٣ .
(٤٧) الدلائل ٣٣٦

الآية الكريمة واضح فى قصر الافراد التنزيلى أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نذير لاهاد لانهم أموات تحقق موتهم كأصحاب القبور، وفيه تعريض ودود بالنبى العظيم .

وكذلك قال السكاكى « زيد قائم لا قاعد لمن يتوهم زيدا على أحد الوصفين من غير ترجيح ويسمى هذا قصر افراد بمعنى أنه يزيل شركة الثانى » (٤٨) .

وقد أولوا عباره السكاكى بأن ازالة الشركة المتيقنـــة افراد ، والشركة الاحتمالية تعيين ، ويرى آخر أن المتردد المتوهم مطلقـا فى التعيين سواء كان فى الاشتراك أو العكس ، وهذا كله من باب الاحتمالات المنطقية وهى بعيدة عن دنيا الاساليب بمراحل كما أنه وهـم ان كان استنتاجا من كلام عبد القاهر والسكاكى .

٢ ــ أننا لم نعثر على شاهد أدبى معتبر لقصر التعيين كما لم يذكر واحد من المفسرين المهتمين بالبلاغة القرآنية شاهدا له . وقـد وقعت على نص وحيد للشهاب الخفاجى موهم فى حواشيه عند تفسـير الآية الكريمة « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » (٤٩) .

قال رحمه الله « تعريف الطرفين (هو الذى) أفاد القصر بمعنى دلالة القدرة على التحكم فى الليل والنهار على العبادة ، وحصر العبادة أو قصرها على هو » . قال : انه قصر تعيين » (١) .

والقدرة الكاملة والنعمة الشاملة لا تدل على العبادة ، بل عـلى استحقاق العبادة كما قال أبو السعود ، ولعل التعيين الذى عناه الشهاب

---

(٤٨) المفتاح ٢٢٨ .

(٤٩) يونس ٦٧ (٥٠) حاشية الشهاب ٥/٤٧ .

اشارة الى رأى الرازى من أن لتسكنوا لا يدل على أنه لا حكمة فيه الا ذلك ، بل ذلك يقتضى حصول تلك الحكمة ، اذ قوله « ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » يدل على أنه أراد بتخليق الليل والنهار أنواعا كثيرة من الدلائل » (٥١) كما نبه ابو السعود الى سبب تخصيص الآيات بالذين يسمعون مع أنها منصوبة لمصلحة الجميع لا أنهم المنتفعون بها » (٥٢) .

فقد أشار الأمامان الى لونين من ألوان التعيين بمعناه اللغوى أى تعيين بعض الدلائل فى الليل والنهار ، وتعيين المنتفعين بهذه الآيات ، وليس المراد قصر التعيين بل ان قصر الموصول بصلته على الضمير (هو الذى ...) قصر حقيقى تحقيقى الحاقا له بنظائره من هذه الأساليب المتكاثرة فى الذكر الحكيم وليس هنا تردد حتى على فرض أن الخطاب علم أو خاص بالكافرين لأنهم معترفون بالخالق أو وحدة الربوبية « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » (٥٣) .

٣ ـ التردد عملية نفسية عقلية تزول بأدنى توكيد ولا تقتضى أسلوب القصر الذى هو تأكيد فوق توكيد أو قل لا تتحمله ، وقد حام الدسوقى والعصام والامبابى حول هذا المعنى حين ذكروا عن النفى والاستثناء وأنه فيما يجهله المخاطب وينكره : أن « استعماله فى قصر التعيين على خلاف الأطول اذ المتردد لا انكار عنده » (٥٤) ولم تستثمر هذه الاشارة الواعية .

---

(٥١) تفسير الرازى ٥/١٣ .
(٥٢) تفسيره ٤/١٦٢ (٥٣) العنكبوت ٦١
(٥٤) الأطول ١/٢٢٦ وحاشية الدسوقى ٢/٢١٤ وتجويد الامبابى ٣/٨٠ .

فكـرة المخاطب :

شهد النصف الأول من هذا القرن جدلا عنيفا ، ومعارك نقدية بين حماة التراث وتلامـذة المستشرقين الذين رددوا آراءهم المفتراه على الادب العربى والبلاغة العربية بحجة البحث العلمى وحرية الرأي وحبا مزعوما للتجديد والتطور ، ومن الناحية النفسية فانبهارهم بحضـارة الغرب المادية جعلت منهم أبواقا لغزوه الثقافى ، ومن هنا انبعثت دعوات غريبة جريئة فمن قائل ان بلاغة العرب صورة مبتسرة من بلاغة اليونان ومنهم من دعا الى تطعيم البلاغة العربية بالنقد الغربى ، كما دعا بعضهم الى نبذها لتموت مع الماضى وبعث علم جديد أعم يأخذ من النقد والأدب وعلم اللغة والاجتماع كالأسلوب والأسلوبية والبنيوية وقد واكب ذلك الدعوة الى التفكير بالصورة ومحاولة تحطيم الشعر العمودى ونصرة الشعر الحر سواء فهمت رموزه المطلسمة أم ظلت تهويمات وأحلام يقظة وتنفيس العقل الباطن أو اللاوعى وحينذاك لا يحتاج ناقدا بل محللا نفسيا ، وكثير من هذه الدعوات مشبوهة وتدين لغير العربية والاسلام. ثم ان كثيرا من جيل الرواد ومن بعدهم وقف لهؤلاء بالمرصاد وهم كثير جدا كالعقاد والرافعى وسيد قطب ومحمود شاكر وانور الجنـدى وغـيرهم .

ثم كان البعث الاسلامى الحديث والنهضة اللغوية التى تلتحـم بالتراث وتبنى عليه وتنفر من كل غريب الوجه والبيان ذلك الذى يقوم على تراث وثنى أو غير اسلامى ولا تتاح لنا مناسبة الا ونبهنا فيها على زيف الدعاوى الوافدة ، ذلك أن عددا من الكتب المناهضة للبعث العربى تطبع كما أن بعضا ممن وفر على نفسه عناء البحث والالمام بجزء من التراث مازال يروج لهذا الزيف وكأنه لم يخرج من مسيرته فى دنيـا العلم والثقافة الا بألسنة من النقد والثلب والتجريح وفكرة المخـاطب

التى ادعى ان البلاغة العربية بلاغة مخاطب مما يهمنا هنا وقد رد الدكتور محمد أبو موسى بأسلوبه المتأمل وحججه الدامغة (٥٥) .

ولا بأس هنا أن نفرع وأن نضيف وجوها من الرأى استقيناها من التراث النقدى والبلاغى وعلوم القرآن . حصانة لابنائنا من زمن يقال فيه كل شىء . وأصل الفكرة ـ فى القصر الاضافى ـ أنه مرتبط فى مدرسة السكاكى بالمخاطب ، كما أن التوكيد مرتبط ـ فى بعض جوانبه ـ بالمخاطب أيضا .

ومع أن اتجاه السكاكى يقابله الاتجاه الأدبى وقد نبه مثل عبد القاهر الى أهمية المتكلم فى الصياغة بوجه عام وفى التأكيد بوجه خاص نلحظ هنا :

١ ـ فكرة المخاطب فى التراث البلاغى وغيره ـ فكرة افتراضية تعليمية ، ووسيلة من وسائل التوضيح والبيان ولذا تفترض كثير من الكتب مخاطبا ، ضمانا لاهتمام المتلقى ، والتأثير فيه .

٢ ـ فكرة المخاطب فى الأدب جاءت على نهج أدبى اختطه القدماء ، فقد كان الشاعر مثلا يقطع الفيافى وحيدا فيفترض صاحبا أو صاحبين ، ومنبع هذا الافتراض أن أقل الرفقه ـ كما يقولون ـ (٥٦) ثلاثة يخاطب أحدهم صاحبيه ، وقريب من ذلك أن يجرد الشاعر من نفسه شخصا يخاطبه أو يلتفت اليه ، وقد يخاطب ناقته أو عينه أو قلبه،أو أحد مظاهر الطبيعة،وذلك فى حالات الانفعال المتوقد،أو الانتشار الوجدان وعلى ذلك سار النهج الأدبى منذ امرىء القيس وحتى يوم الناس هذا امتلأت به الدواوين وغصت به كتب البيان .

وعلى ذلك جاء قوله تعالى « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد » (٥٧)

---

(٥٥) انظر دلالات التراكيب .

(٥٦) راجع البحر ١٢٦/٨ (٥٧) ق ٢٤

مع أن الخطاب لمالك خازن النار أو للملكين أو لواحد على تنزيل تثنية الفاعل منزلة تثنية الفعل وتكريره كقول بعضهم :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر ... وإن تدعاني أحم عرضا ممنعا

ومع أن التفسير الأول غير متعين ولا هو أقوى الآراء يدل على ما استقر في قلوب الائمة من نهج عربي هو مخاطبة الصاحبين واقعا أو افتراضا كقول الحجاج الثقفي يا حرس اضربا عنقه (٥٨).

٣ ــ ما ذكره أصحاب الحواشي كعبد الحكيم وهو أشدهم إغراقا في العمق «أن المتكلم لا يورد الكلام إلا على حسب اعتقاده» (٥٩) لكن لابد من مخاطب ، وهو أمر بدهي ــ إذ لولاه ما احتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم كما يقول السهيلي (٦٠).

٤ ــ في التراث الإسلامي مئات من المؤلفات في إعجاز القرآن ، وبلاغته وبديع القرآن وعلوم القرآن ، والتفاسير التي تترسم خطا الكشاف في اتجاهه البياني بالاضافة الى كتب النقد الأدبي وشرح النصوص أعني القصائد والدواوين ، والبلاغة ذات الاتجاه الأدبي التحليلي وكتب شرح الحديث ذات الاتجاه البلاغي الى غير ذلك حشد ضخم رائع لا نجد لفكرة المخاطب المزعومة تأثيرا في التأليف أو التقسيم والتحليل ، على أننا لو نظرنا بدقة الى فروع البلاغة عند السكاكي ذاته وقد حمله بعض المعاصرين أوزارا لا تتحملها الجبال من دمار البلاغة ونضوب الذوق ولا عيب الا أنه ليس غريبا مقبلا رحمه الله أقول لو دققنا النظر لوجدنا أن فكرة المخاطب بمنأى عن علم البيان بفروعه ، وعلم البديع بألوانه ولا يدخل من أبواب علم المعاني الثمانية

---

(٥٨) راجع أبا السعود ١٣١/٨ والبرهان للزركشي ٢٣٩/٢ .
(٥٩) حاشيته ٣١١ (٦٠) راجع نتائج الفكر ٢١٨ .

الا فى نتف من القصر الاضافى وجانب من الإسناد الخبرى والخبر تأكيدا •

نعم يتماسى الناقمون كل ذلك بل قل يتجاهله قليل ويجهله كثير ولا يتقنون الا ارسال الاحكام الخاطئة فى كثير منها دون علم ولابصيرة ولا احتياط يتجمل به العلماء •

ومن الطريف أن نجد فى القصر الاضافى ذاته افرادا أو قلبا — فى الأسلوب — القرآنى ما هو بعيد عن المخاطب •

تأمل من خطابات البشر لله تعالى العليم بما تخفى الصدور : قول عيسى عليه السلام لربه جل وعلا بمحضر ممن أشرك به : براءة منهم وادانة « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ان اعبدوا الله » (٦١) أى هذا أمرتنى به من التوحيد لا هذا الاشراك فهو قصر قلب للصفات بعيد عن المخاطب سبحانه •

وقالت امرأة العزيز — حين فجأها زوجها وكان خالى الذهن تماما « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب اليم » (٦٢) وقد عرضت بيوسف ثم أجملت السوء حياء ، ثم اقترحت ليوسف عقابا يبقيه حيا ، فمازالت اليه حاجة ولذا قدمت السجن ، وقولها عذاب أليم تهويل نساء ، وقناع فيه كيد ودهاء ، وقول النسوة لما رأين يوسف : « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (٦٣) قصر قلب ولا مخاطب هناك ان القلب هنا يتكلم بمشاعره فى غيبة عقل ذهول •

هذا قل من كثر وان أردت المزيد مما جاء فيه القصر الاضافى بعيدا

---

(٦١) المائدة ١١٧

(٦٢) يوسف ٢٥ (٦٣) يوسف ٣١ •

عن المخاطب فاليك بعضا من الآيات ونحيلك على المراجع لتعرف أننا لو أحسنا قراءة التراث لوجدنا فيه زادا ومعينا .

١ ــ قال تعالى « فكيف اذا اصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا » (٦٤) .

٢ ــ وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم » (٦٥) .

٣ ــ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا » (٦٦) .

٤ ــ وتأمل قول الكافرين بعد أن وجدوا أعمالهم غير الكفر مسطرة فى صحفهم : « يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها » (٦٧) . فهو تجسيد لحسرتهم وندمهم ومشاعرهم الداكنة ، والاحصاء كناية عن الاحاطة التامة ، وليس هنا خطاب ولا مخاطب ، بل ان معظم أقوال المعذبين ــ وقد جاء بعضها فى أسلوب القصر ــ جوار وصرخات وحسرات ــ ولم يبق لهم من حرية ــ فى بعض المواطن ــ الا حرية التعبير عن آلامهم الزاعقة ونفوسهم المحطمة ولات حين صراخ . وهذا غيض من فيض .

---

(٦٤) الآية ٦٢ النساء وراجع فيها : الكشاف ٤١٧/١ والارشاد ١٩٦/٢ والنيسابورى ٧١/٥ والشهاب ١٥٠/٣ .

(٦٥) الآية ١١١ البقرة وراجع ارشاد ابى السعود ١١٩/١ والشهاب ٢٢٤/٢ .

(٦٦) الآية ١٥ الحجر وراجع الشهاب ٢٨٦/٥ .

(٦٧) الآية ٤٩ الكهف وراجع الشهاب ١٠٨/٦ .

ولا يعنى ذلك أن نحذف ما يتعلق بالمخاطب أو المتلقى أو المستمع فشطر كبير جدا من الفنون والعلوم ، والصحافة وسائر أجهزة الأعلام موجهة للمخاطب لا ينكر ذلك الا من به مس وانما نعنى — حتى فى ضوء هذه الحقيقة •

ان البلاغة العربية أدبا وفنا وعلما كانت أوسع دائرة وأشمل اتجاها ، منذ كانت وقبل أن توجد التيارات الفنية الحديثة من الفن للفن أو الرومانسية أو الرمزية ويبدو أن النقد للنقد والثلب للثلب أصبح هدفا بعد أن كان وسيلة كدرة •

قصر القلب

وقصر القلب يكون فى الصفات المتقابلة (١) أو الصفة ونقيضها ، أو الموصوفات المتقابلة ــ لا بذواتها ــ فان الذوات لا تتقابل ، بل بما تحمل من صفات كالمؤمنين والكافرين والمنافقين والملائكة والشياطين والجزاءات المتقابلة ..

وقد جاء هذا النوع كثيرا فى أساليب كثيرة يمثل كثير منها قضايا قرآنية خاصة أسهم فيها القصر بدور واضح . ومن ذلك :

القرآن الكريم بلاغة ورسالة :

والقرآن الكريم وما جاء به من وحدانية الله وصفات كماله والايمان به تعالى ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وسائر قضاياه التى تمثل رسالة الاسلام الخاتم جاء فى أسلوب معجز تحدى العرب ــ وهم أولو البيان ــ ببلاغته ان يأتوا ولو بمثل سورة من سورة ــ كما هو معلوم من آيات المعاجزة ــ ولكنهم أبلسوا وعجزوا وعضوا أناملهم غيظا . وقد بقى الرسول يتحداهم مدة عشرين سنة مزريا عليهم أديانهم ، مسفها آراءهم وأحلامهم،حتى ناصبوه الحرب،فأريقت المهج وقطعت الارحام كما يقول الخطابى (٢) ولم يتفقوا ازاء القرآن على كلمة سواء لان قهر النظم القرآنى كان غلابا فهم يقولون « ان هذا الا قول البشر » (٤) ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » (٥) «ان هذا الا أساطير الأولين » (٦) « ان هذا الا

---

(١) راجع الايضاح ٢١٤ .

(٢) بيان اعجاز القرآن : الخطابى ٢١ ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن .

(٣) المائدة ١١٠ .

(٤) المدثر ٥٤ ــ ٢٥ .

(٤) المدثر ٥٤ ــ ٢٥

(٥) الفرقان ٤

(٦) المؤمنون ٨٣

اختلاق »(٧) ان هو الا رجل به جنة » (٨) « ان تتبعون الا رجلا مسحورا » (٩) « بل قالوا اضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر » (١٠) الى غير ذلك كثير بأساليب متنوعة ، ونلحظ فى هذا الصدد :

١ — أن القرآن الكريم نسب هذه الأقوال الى جمهرتهم « الذين كفروا غالبا بهذا الوصف الدال أو ضميرهم — دليلا على اشتراكهم فى هذا الوزر ، وعلى بالغ اهتمامهم وحيرتهم وقد مهد لهم ذلك أحكمهم وهو الوليد بن المغيرة فى قصة ذكرتها سورة المدثر تلك التى ترسم صورة فذة ساخرة لتفكيره ، ومراحل هذا التفكير ، واستغراقه فيه وحيرته ، وما أخذه من زمن وشمله من عناء واجهاد عقل تلونت به سحنته من عبوس وبسر « ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا الا سحر يؤثر » (١١) ثم صار على كل لسان ومثل ذلك زيغ النضر بن الحارث وكان كثير الأسفار يحكى قصص الأعاجم ويقول عن القرآن « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فقد جعله الله قولا لهم ، لأنهم رضوا به ، وكان يعبر عن حقدهم وجريهم وراء من ينسب للقرآن العظيم أى سوء « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين » (١٢) .

وقد جاء موقف المشركين من القرآن فى أساليب متفاوتة لينا وعنفا وتفاوتا بين عدم التأكيد أو التوكيد قليلا أو كثيرا حسب المقامات وعلى قمتها القصر الذى يترجم عن الانفعال الثائر المتوتر حين تعلى الأحاسيس بالغيظ والكمد والضيق فيطلقونها عنيفة فى سرعة لاهثة ،

---

(٧) ص ٧
(٨) المؤمنون ٢٥
(٩) الاسراء ٤٧ .
(١٠) الأنبياء ٥
(١١) المدثر ١٤ — ٢٣ وراجع بيان الخطابى ٢٨
(١٢) الأنفال ٣١ .

كأنهم يتخففون من عبء ثقيل ظانين أن كلماتهم تلك قد تخنق أثر القرآن للغلاب ، أو تطفىء نوره الدائم ، بل كانوا يتواصون أن يفروا عند سماعهم الغاء له أو يحدثوا لغوا وأصواتا تغطى على صوته محاولة صغيرة طفولية عابثة « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » (١٣) .

وهم فى أساليب القصر يقصرون (هذا) وما له من دلالة معبرة يقصدون القرآن وما جاء به ، على الواقع بعد الا من صفة : وقد تقاربت دلالتها ، والغالب صوغهم هذه الصفات على هيئة المصادر فهو ذات السحر وعين الافك والاختلاق ونفس الأساطير تحقيقا للخبر دون تشبيه . ولنفى صفته القاهرة ، وهى أنه حق وصدق ، اثارة لغبار من الأوهام ، كما أنهم وصفوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصفات مشابهة لما وصفوا به القرآن من أنه عليه الصلاة والسلام ـ وحاشاه ـ ساحر أو مفتر ، أو به جنة أو شعر أو انما يعلمه بشر لينفوا علاقته بمصدره القدسي وهو أنه من عند الله وهو ما يروج له أعداء الاسلام الآن فسادا وغلوا وحقدا .

قال الدكتور دراز رحمه الله معلقا على آية الأنبياء « فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالى حروف الاضراب ، مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب فى رأيهم ، وتريك من ضلالها صورة شاهد الزور اذا شعر بحرج موقفه : كيف ينقاب ذات اليمين وذات الشمال ، وكيف تتفرق به السبل فى تصحيح ما يحاوله من محال » (١٤) نعم فالاختلاف أقوالهم كما فى الكشاف والاستغناء للقرآن رحمه الله « حسب تلونهم

(١٣) فصلت ٢٦ وراجع الكشاف ٣/٤٥٢ والتحرير الفنى ١٤ .
(١٤) راجع النبأ العظيم ٦٨ من خلال الفصل الطيب فى بيان مصدر القرآن ٢٠ ـ ١٠٠ .

وتغير أحوالهم في أنفسهم فكانوا لا يثبتون على حال واحدة لأنهم ليسوا على يقين فيما يقولون ولا فيما يعتقدون » (١٥) وهو تحليل متكالم عند أهل التراث .

ويؤكد هذا الملحظ ذكر لفظ قالوا دون اعتقدوا ايذانا بأنه يأفواههم دون أن يكون له مصداق وحقيقة (١٦) .

٢ ــ ما نفاه المشركون عن القرآن ورسوله هو ما حققه القرآن وأكثر منه في أساليب تفاوتت كمّا وعنفا حسب المواقف والأسباب : وفي أساليب القصر جاء نحو قوله تعالى « ان هذا لهو القصص الحق »(١٧) « ان هو الاذكر للعالمين (١٨) « ان هو الا ذكرى للعالمين » (١٩)

« ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » (٢٠) « حقيق على ألا أقول على الله الا الحق » (٢١) كما جاءت بعض الأساليب لتقرير حقيقة ماثلة تمحو كل ريب ومشاغبة لأنها قائمة على غير أساس « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وتلحظ في الجملة الأخيرة حذف المبتدأ والاكتفاء بالخبر الذي هو ذات المبتدأ وهو مصدر قصدا إلى أن الهداية ذاتية للقرآن تنبع من كل حرف فيه .

وقال تعالى : هذا هدى » (٢٢) « ان هذا القرآن يهدي للتي هي

---

(١٥) الكشاف ٢٦٩/٢ والاستغناء للقرافي ٣٠٩ .

(١٦) راجع ارشاد أبي السعود ١٩٥/٥

جاء قصر القرآن على كونه أساطير كما جاء في آية النحل قصر القول بالبحث على الأساطير والمقصود القول المنزل به في القرآن مكان الوصف جاء لجميع القرآن كما جاء لبعض فلا تعارض .

(١٧) [illegible] (١٨) يوسف ١٠٤ .

(١٩) [illegible] (٢٠) الفرقان ٣٣ .

(٢١) الأعراف ١٠٥ (٢٢) الجاثية ١١ .

أقوم » (٢٣) « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » (٢٤) وقد استفاض وصف القرآن ــ فى القرآن ــ بأنه حق وانه هدى وان كان وصفه بالحق فى أكثر من مائة آية وهى ضعف ما وصف به من الهدى (٢٥) ذلك ــ والله أعلم ــ لأن ما رماه به المشركون من نفثات صدورهم يدخل تحت الباطل وهو نقيض الحق أكثر من الضلال الذي عكس الهدى .

كما تشير أية قرآنية الى ما به كان القرآن معجزا فى قوله تعالى « فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » (٢٦) أى لا بعلم غيره ، وهو اثبات ــ كما يذكر أبو السعود ــ لما فيه من اعجاز بسبب المزايا والكيفيات ، ونفى العلم يستلزم نفى القدرة أى لا يقدر أحد أن يأتى بمثله (٢٧) .

٣ ــ لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل فقد تشابهت مواقف الكفار من رسلهم كما قال الله « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم ضالون » (٢٨) من نحو قولهم عن نوح عليه السلام « ان هو الا رجل به جنة » (٢٩) وعن شعيب وهود عليهما السلام « انما أنت من المسحرين » (٣٠) وعن موسى عليه السلام « ان هذا الا سحر

---

(٢٣) الاسراء ٩ (٢٤) الصف ٩

(٢٥) المعجم المفهرس ٢١٢ / ٧٣٥

(٢٦) هود ١٤ .

(٢٧) الارشاد ٤/١٩٣ والآلوسى ١٢/٢٢ .

(٢٨) الذاريات ٥٢ ــ ٥٣ .

(٢٩) المؤمنون ٢٥ (٣٠) الشعراء ١٥٣ ، ١٨٥ .

مبين » (٣١) وعن آيات عيسى عليه السلام « ان هذا الا سحر مبين » (٣٢) وفي الاساليب كما في سابقتها اثبات صفة ونفي ما يقابلها فهو قصر قلبه .

لكننا نلحظ أن وسم القرآن الكريم بالسحر قد كثر عددا في القرآن على ألسنة المشركين العرب عن الأمم السابقة ، وهذا راجع الى طبيعة الاعجاز البياني في القرآن ذلك الذي استهوى الأفئدة وغلب على القلوب وروعهم بفائق بيانه ، الذي لا يشبه كلام الأنس أو الجن ويحطم ما تحته كما قال الوليد بن المغيرة ، وسواء كانت مقولاتهم تلك صادقة في التعبير عن تأثير القرآن العميق الذي لا ينازعه طبع سوى ، وليس ثم أكثر من السحر والشعر عندهم تأثيرا وتلك التفاتة اعتبرها بعض المعاصرين يمكن استثمارها هنا (٣٣) أم كان تبريرا مقهورا لجليل التأثير القرآني الذي استقطب نفوسا بينها من التفاوت ما بين طبع أبي بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص وبلال وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم ويتضم الى ذلك تبعا له التعليل المظلم عند الوليد لما فكر وقال ان هذا الا سحر يؤثر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه (٣٣) .

٤ ـ وثم آية في السحر على لسان موسى عليه السلام ، للسحرة حينما ألقوا حبالهم وعصيهم على مشهد من الناس يوم الزينة وقت الضحى وكانت أشبه بمباراة شائقة لعب فيها التعصب القومي دورا مشجعا ، وكانوا يعتقدونها مباراة بين سحر السحرة وبن آيات موسى

---

(٣١) النمل ١٣ . (٣٢) المائدة ١١٠ .

(٣٣) راجع اعجاز القرآن للرافعي ٣١ والتصوير الفني ١١ ـ ١٥ . وان كان المعاصرون يعنون السحر تشبيها كما في الحديث ان من البيان لسحرا ؛ بينما يعني الكفار حقيقة السحر دون تصوير .

التى سموها سحرا فهم يجمعون ذلك كله على أنه سحر أعنى اعتقاد الشركة .

ولذا قال موسى للسحرة : « ما جئتم به السحر ان الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين (٣٤) وطريق القصر : تعريف الطرفين وهما متحدان والمقصور عليه هو المقدم ، فهو قصر صفة السحر على ما جاءوا به لا الذى سماه فرعون وملأه من آيات الله سحرا ، وعلى قراءة عبد الله بالتنكير فى « سحر » يفاد القصر من التعريض ، لوقوعه فى مقابلة قول فرعون وملئه ان هذا لسحر مبين (٣٥) فالمعنى على القصر فى التعريف والتنكير (٣٦) ، وعلى هذا يكون القصر غير اضطلاحى . وهو قصر افراد .

ولا بأس من عقد موازنة بين آيتين تشابهتا حكما وألفاظا واختلفتا فى المعرض فجاءت احداهما غفلا من التأكيد والثانية توالت فيها أساليب القصر بالنفى الخاص والاستثناء :

قال الله تعالى : من سورة الأحقاف « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » وفى سورة سبأ « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٣٨) .

وآية الأحقاف ــ ضمن آيات ــ تناقش فى هدوء فكرة الخلق والوحدانية ، وابطال عبادة الأصنام وفى النسق اشارة الى معاداة

---

(٣٤) يونس ٨١ (٣٥) يونس ٧٣ .

(٣٦) راجع الشهاب ٥/٥٢ والألوسى ١١/١٦٧

(٣٧) آية ٧ (٣٨) آية ٤٣ .

آلهتهم لهم يوم القيامة « وإذا حشر الناس كان لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » (٣٩) أما آيات سبأ فالأسلوب أعنف ومشهد يوم القيامة أطول وفيه مواجهة حاسمة مبكته من المشركين ومن عبدوهم من دون الله مع الخطاب الغاضب « أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » (٤٠) تبرؤا من الملائكة وتعنيفا للمشركين ويسير النسق بعد أن بين بطلان آلهتهم ويتحدث عن موقفهم من نبي القرآن صلى الله عليهم وسلم في الدنيا دون فاصل أسلوبي يعجب من سيطرة الضلال عليهم مصورا انفعالاتهم الصبيانية في ثلاث جمل متوالية ثائرة بالقصر الذي ترقت أساليبه تأكيدا وغضبا ودلالة من النفي بما والا مرتين ثم بان والا وتأمل احتشادهم الأسلوبي أو ثورتهم الأسلوبية من تكرار اسم الاشارة وتنكير «رجل» وتوقيرهم المتكلف لشرك الآباء ووصف الافك بالافتراء مبالغة والسحر بالابانة (٤١) .

---

(٣٩) آية ٦ ... (٤٠) آية ٤١

(٤١) راجع البرهان ٢٥/٢٦٦ و ٢٨/٦٥ .

بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام

وهى شبهة من شبه المكذبين الواهية ، تمسكوا بها الحاف فى العناد والجدال ، وقد بنوا جدلهم التمسكى على ان الرسول المبعوث لايكون بشرا اذ لا يمكنه الاتصال بالملأ الأعلى فى زعمهم وانما يكون ملكا ، انتهاء الى نفى الرسالة ، والبقاء على الكفر وتزيينه كما قال القرآن:

« فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا » (١) .

وقد كان يمكن أن نورد بعض الشواهد ونحللها مرورا الى قضية أخرى ، اولا ما رأينا من كلام مؤهم لائمة البلاغة فآثرنا التريث وتناول الموضوع بعمق وشمول ـ يكون مع الله ـ وقد جاء عند الامام عبد القاهر ثلاثة أساليب : آيتان من سورة ابراهيم عليه السلام (٢) الأولى فى جدال الكفار توصلا الى نفى الرسالة « ان أنتم الا بشر مثلنا » والثانى على ألسنة الرسل مجاراة واستدراجا والزاما بالحجة « إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » وزاد الامام السكاكى هنا آية يس تؤيد الآية الأولى « ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء » وهو قصر تنزيلى ـ كما سيأتى ـ لأنهم جعلوا الرسل « كأنهم باتيانهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم أن يكونوا بشرا مثلهم وادعوا أمرا لا يجوز أن يكون لمن هو بشر » ويعنى عبد القاهر بهذا الأمر الملكية كما ذكر فى حديث آخر فى الفصل والوصل وتبعه السكاكى والقزوينى وشراح التلخيص (٣) وانفراد الامام بذكر آية «بانما» وهى « قل انما أنا بشر مثلكم » فى معرض الموازنة بين النفى

---

(١) التغابن ٦ (٢) ابراهيم ١٠ ، ١١

(٣) راجع الدلائل ١٥٥ ، ٢١٨ ، والمفتاح ٢٩٤ والايضاح ٢١٩ والشروح ٢/٢١٤ .

والاستثناء ولعله قال ... ابتداء كلام قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يبلغه اياهم ويقوله معهم وليس هو جوابا لكلام سابق .. كالآية الأولى » أى التى جاء رد الرسل مراعى فيه حذو ما سبقه من كلام المشركين » وقد ترددت أيضا هذه الأحكام فى كتب المؤلفين حديثا (٤) ونوجز ما لحظناه من كلامهم :

١ — الآيات التى وردت على ألسنة الكفار لاثبات البشرية دون الملكية المفترضة .

٢ — أن الأسلوب بانما ابتداء كلام وليس ردا لكلام سابق .

وهو كلام شديد الايهام : فقد يظن أولا أن كل أسلوب فيه اثبات البشرية انما هو نفى الملكية ، كما أن الأسلوب بانما لا يكون ردا لما سبقه ، هذا مع أن التعبير « انما أنا بشر مثلكم » جاء فى آيات عدة فى مقامات مختلفة ، ولهذا كله وغيره نقدم ما يلى :

٩ — جاء فى قضية البشرية ثلاثة عشر أسلوبا تنوعت طرقها وأكثرها على ألسنة الكافرين وأقلها مما أمر نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم أن يقوله ردا عليهم ، وجاء أسلوب واحد فيه قصر ظاهرى على ألسنة الرسل مجاراة واستدراجا فى الحجة وإلزاما لأقوامهم .. على التفصيل التالى :

١ — جاءت ثلاثة أساليب على لسان نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم :

(أ) فى سورة الكهف : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد

---

(٤) راجع على سبيل المثال : علوم البلاغة للمراغى ص ١٣٩ ، ومن بلاغة النظم العربى د. عبد العزيز عرفه ٢/٣٠ ، ٥٥ .

البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ، قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد » (٥) .

فقد قصر نفسه الشريفة على البشرية الموحى اليها بالوحدانية مقيدة بهذا الوصف وهى بشرية محدودة العلم ، واضحة العجز والمنفى هنا هو ادعاء الاحاطة بكلمات الله التى تنفذ مياه البحار — على فرض أن تكون مدادا — قبل نفادها فهو تعليق على الفرض المحال ، فعلم الله محيط لا ينفد (٦) .

(ب) قال تعالى فى سورة الاسراء : ضمن آيات تتضمن اقتراحات خارقة من كفار قريش شرطا للايمان ومنها « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » (٧) .

وهذه الاقتراحات دالة على افلاسهم ، وتعنتهم ، وابلاسهم اذ يتعللون بما لا يمكن فى العادة وجوده ، وقد قالها عبد الله بن أمية ، وتلقفوها منه لجاجا ومكابرة أو جمع منهم وكان الرد على طريق الاستفهام المثير للتعجب : أى ما كنت الا بشرا مؤيدا بالرسالة فليس أمر الاقتراحات الى أو الآيات انما هو الى الله تعالى (٨) .

(جـ) قال تعالى فى سورة فصلت : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما

---

(٥) الكهف ١٠٩ — ١١٠ .

(٦) راجع تفسير أبى السعود ٥/٢٥١ وذكر الألوسى رحمه الله : ضنا أن أنا مقصور عليه والبشرية مقصور ولعله خطأ فى النسخ أو سهو فى النقل فليراجع ١٦/٥٣ .

(٧) الاسراء ٩٣ .

(٨) راجع الكشاف ٢/٤٦٦ وأبى السعود ٥/١٩٥ وأصله فى الطبرى ١٥/١١٠ .

تدعونا اليه ، وفى آذاننـا وقر ومن بيننا وبينك حجـاب ، فاعمل اننا عاملون ، قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انمـا الهكم الـه واحـد فاستقيموا اليه واستغفروه » (٩) فهو تلقين للجواب وهو أننى بشر ولست من جنس مغـاير لكم حتى يكون بينى وبينـكم حجاب وتباين مبرر اتباين الأعمال والاديان كما ينبىء عنه « فاعمل اننا عاملون ، بل أنما أنا بشر مأمور بما أمرتم به ونفى الجنس المغـاير نقله أبو السعود كما نقل رأيا مقارنا وهو نفى الملكية وهو رأى الزمخشرى (١٠) .

وأومأ ابن المنير الى أن المنفى قدرته صلى الله عليه وسـلم على اظهار المعجزات (١١) .

والوانى ما أرشاه الامام الرازى وهو نفى قهـرهم وجبرهم على الايمان كأنه يقول : أنا بشر مثلكم ولا امتياز بينى وبينكم الا بالوحى، أما الهـداية الى التوحيـد أو الخـذلان بالكفر والحرمان فلا يتعلق برسالتى وواضح من كلامه أنه يعنى باختصار « أننى بشر لا هاد » .

ويدل عليه أنهم صمموا على الكفر فأثبتوا لأنفسهم ثلاثة حجب: على العين والسمع والقلب ووقع الاقتصـار — كما يقول الرازى — على هذه الأعضـاء الثلاثة لأن القلب محل المعرفة وسـلطان البدن والسمع والبصر هما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف . فلما بينوا أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن فى هذا الباب . (١٢) .

ولعلى أطلت هنا تحليلا ونقلا لأوضـح أن اثبات البشرية على طريق القصر لا يعنى أن المنفى هو الملكية ضربة لازب ، فقد يكون غير

---

(٩) فصلت ٥ — ٦ .

(١٠، ١١) راجع الكشاف والانتصاف ٣/٤٤٣ وأبا السعود ٣/٨ .

(١٢) راجع التفسير الكبير ٢٧/٢٩٧ — ٩٨ .

ذلك حسب المقامات ، وان كثرت الأساليب التي جاء النفي فيها المكية نسبيا ، كما ثبت أن الأساليب التي تتصدرها انما لاثبات البشرية : انما هي رد لما سبقها بل ان هذا السابق من السياق هو ما يعين المنفي المقابل للمثبت .

٢ ــ أما باقي الأساليب فقد جاءت على النحو التالي مرتبة الدلالة والقوة من صياغة الأسلوب ، والانفعال المضطرم حسب المقامات وكلها أساليب جاءت على السنة كفار الأمم تعرى بواطنهم ، وتبرز حنقهم وقد صاحبت الأساليب حسب السياق انفعالات أو معان أخر كالتآمر أو الغيظ أو السخرية والتعالي :

وقد جاء منها ما طريقه التقديم : كقوله تعالى على ألسنة ثمود « أبشرا منا واحدا نتبعه انا اذا لفي ضلال وسعر »(١٣) ولأن الأسلوب شديد التركيز والتداخل والتصوير فقد قام الظرف (منا) مقام « مثل » في باقي الأساليب لأن فيها شيئا من البسط . والاستفهام ، انكاري تعجبي :

كما جاء منها بالاستفهام بمعنى النفي والاستثناء : كقول الله تعالى كاشفا أسرار الكفار من قريش « وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم » (١٤) والقصر بدل من النجوى ، وهذا الاسرار والبلاغ في الاخفاء تحاور وتشاور وتآمر لهدم الاسلام وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعادة المتشاورين كما يقول في الكشاف ان يتجاهدوا في طي سرهم (١٥) .

---

(١٣) القمر ٢٤ (١٤) الأنبياء ٣ .
(١٥) ٢/٥٦٢ وأبو السعود ٦/٥٥

والاستفهام للتقرير والتعجب واذا كنا نلمح السخرية المستعلية يدعمها اسم الاشارة فان مجيء الاستفهام هنا بدل النفى يومىء الى حيرتهم وعدم حسمهم فى اتخاذ قرار كما يقال ولذا أضرب عنه بعد : بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر » (١٦) .

والباطل كما يقول الزمخشرى ــ لجاج والمبطل رجاع غير ثابت.

ــ جاء بما النافية مع الاستثناء وهو نفى قوى قاطع فى هذه الآيات :

١ ــ « ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم (١٧) .

٢ ــ « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا (١٨) والآيتان لقوم نوح عليه السلام .

٣ ــ « ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » (١٩) فى هود عليه السلام .

٤ ــ «ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين»(٢٠) فى صالح عليه السلام .

٥ ــ « وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين » (٢١) فى شعيب عليه السلام .

٦ ــ « ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء ان أنتم الا تكذبون » (٢٢) فى رسل عيسى عليه السلام أما الأسلوب الوحيد

---

(١٦) الأنبياء ٥
(١٧) المؤمنون ٢٤ .
(١٨) هود ٢٧
(١٩) المؤمنون ٣٣ .
(٢٠) الشعراء ١٥٤
(٢١) الشعراء ١٨٦ .
(٢٢) يس ١٥ .

الباقى فقد جاءت ان النافية فيه من سورة ابراهيم عليه السلام على لسان موسى عيه السلام يذكر قومه بنى اسرائيل وقد ارهقوه من أمره عسرا ، وينذرهم مصارع المكذبين قبلهم ، وقد استغرقت مقاولته عليه السلام آيات عديدة تصاعد فيها نبرة الانفعال والتهديد ومع ان المرحوم سيد قطب رأى فى موسى عليه السلام من خلال الأحداث الكثيرة فى قصته التى هى أطول القصص القرآنى رأى فيه نموذجا للزعيم المندفع العصبى المزاج كثير الانفعال والحنق والتوتر (٢٣) حسب الداعى الى ذلك نرى أن سمة الانفعال الثائر فى أسلوب موسى عليه الصلاة والسلام انما كان مناسبا لما يصنع اليهود من أحداث تذهب حلم الحليم كطلبهم منه بعيد نجاتهم من فرعون أن يجعل لهم صنما يعبدونه حينما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ، وحينما تقاعسوا عن دخول الأرض المقدسة وعوقبوا بالتيه ، بل حينما صنعوا عجلا من ذهب له خوار يعبدونه على مرأى من هارون ، وحينما آذوه ورموه بالنقائص فبرأه الله مما قالوا وغير ذلك ان هذه المواقف العجيبة تتطلب هذا الأسلوب القوى العنيف الأحاسيس ثم انه اجابة لدعاء ربه بشرح الصدر « واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

وقد يوهم وصف موسى عليه السلام بأنه عصبى كما وصف الرافعى أسلوب النبى صلى الله عليه وسلم بأنه أسلوب عصبى (٢٤) قد يوهم ذلك أنه شبيه بما يذكره علماء التحليل النفسى من تقسيم الطبائع الى أربعة أنواع منها العصبى وانفعاله يغلب عقله وأخطاؤه تغطى محاسنه ومن الأفضل أن نرقى بالأسلوب القرآنى والأسلوب النبوى والرسل فوق هذه التقسيمات المفترضة التى تتبدل وتتغير

---

(٢٣) راجع التصوير الفنى ٢٠٠ ـ ٢٠٣ .
(٢٤) اعجاز القرآن

حسب أذواق المؤلفين أو مدارسهم أو ثقافتهم • ونعود الى لنسق فيقول الله تعالى على لسان كليمه صلى الله عليه وسلم :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب » (٢٥) فهو ينذر بكثر حشد من الرسل الكرام جبههم أقوامهم بالجدال والرفض العنيف ، فى بدء محتدم يعقب دعوة الرسل «فردوا أيديهم فى أفواههم» والجملة مشعة تتسع لوفير من التأويلات التى أثبتها العلماء أى عضوها غيظا ، أو وضعوها استهزاء مغالبة للضحك فعل الماجن الساخر أو وضعوا أيديهم على أفواه الأنبياء اسكاتا واطباقا للأفواه أو الجأوا الرسل الى وضع أيديهم فى أفواههم تعجبا من عتوهم وغلظتهم ، أو تعبير كنائى مصور للحنق والغيظ والضجر واقناط الرسل بدليل تأكيد الكفر والشك بعده ورجحه ابن المنير وهو ترجيح غير قوى لأنه من التعبيرات المركزة التى تتناول عديدا من المعانى والظلال كقوله تعالى « والله يرزق من يشاء بغير حساب » (٢٦) •

ويصيح الرسل وقد بغتوا بجراءة الكفر على الخالق « أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى » انها صيحة مزلزلة منكرة : أيكون الشك فى الله الجليل الظاهر الذى له فى كل خلق آية وحدانيته : فالهمزة للانكار الشديد •

فاطر السموات والأرض مبالغة ــ كما يقول أبو السعود : فى تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك » فيرد عليهم الكافرون : مع اختلافهم

---

(٢٥) ابراهيم ٩

(٢٦) الكشاف ٣٦٨/٢ وأبو السعود ٣٧/٥ •

زمانا ومكانا وطباعا لاتفاقهم على القلب المظلم والكلمة الخبيثة المظلمة « أن أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » ونلحظ البدء بجملة القصر بالمقاطع المغلقة ، وبأن النافية التى هى أكثر توكيدا من ما النافية دلالة على غليان الغضب والهياج والجملة بعدها كثرت حروف لينها « تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » تجسيدا لارتفاع الأصوات والصياح والسوقية وحرارة ما يتأجج فى صدورهم ، والقصر هنا قصر قلب تنزيلى ، ذلك أن المكذبين نزلوا الرسل المصرين على دعوى الرسالة منزلة من ينكر البشرية لأنها منافية فى اعتقادهم للرسالة اذ الرسول لا يكون بشرا بل ملاكا فى زعمهم ، وقد ذكر الزمخشرى فى تحليل بعض الآيات المتعلقة باثبات البشرية « ما نراك الا بشرا مثلنا » فى شأن نوح عليه السلام ذكر وجها للقصر بجعل الوصف «مثلنا» محط الانكار أى المماثلة فى المزية والفضيلة على التنزل والفرض تعريضا بأن المماثلة فى مطلق البشرية والا فهم أحق بالمزية لظنهم أنها بالجاه والمال ، فوجه الشبه الارتقاء بسبب الجاه والمال ، وقد يدعمه فى الظاهر أن الملأ الأغنياء وأنهم يستخدمون الفعل نرى دلالة الثقة والاستعلاء .

وقالوا فى الضعفاء تحقيرا « الذين هم أراذلنا » ولم يقولوا أراذلنا وأجاز فى الانتصاف ارادة الأمرين جميعا أى بشر لا ملك و « مثلنا » لا تفوقنا جاها ومالا والحق أن لا مانع من رأى ابن المنير وأن ذلك خاص بنوح عليه السلام لا يناسب باقى السياقات (٢٧) على أن بعض العلماء وضح أن المنفى فى الآيتين الملكية أيضا (٢٨) فى الآيتين .

---

(٢٧) راجع فى آية هود : الكشاف ٢/٣٦٥ والانتصاف . والرازى ١٧/٢١٢ وأبا السعود ٤/٢٠٠ والألوسى ١٢/٣٧ .

(٢٨) راجع تفسير الرازى ١٧/٢١٢ ، ١٩/٩٥ وأبو السعود ٥/٣٧

وقد رد الرسل على المكذبين — فى هدوء نسبى — ان نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون .. الآيات (٢٩) وقد جاء لفظ الجلالة فى رد الرسل خمس مرات لجأ اليه سبحانه وشكرا على نعمة الرسالة . ثم انهم رددوا كلامهم وطريقة صياغتهم « ان نحن الا بشر مثلكم » مع أن الموقف النفسى متباين . مجاراة لهم واستدراجا وتسليما ببعض المقدمات ارخاء للعنان توصلا الى افحامهم (٣٠) ، والرسل فى الواقع يستخدمون كل فنون القول ومذاهبه وعظا ، وترغيبا وتحببا وجدلا اقناعا أو تأثيرا حسب المواقف ، وأسلوب القصر هذا يمكن أن تسميه بالقصر الصورى الذى لا يفيد الا مجرد التأكيد ولا يستدعى انكارا ولا مانع أن يأتى القصر فى الأسلوب لمجرد التأكيد كما يرى الدسوقى وأجاز بعض العلماء وتبعهم الدسوقى أيضا أن يكون المعنى فى رد الرسل : ما نحن من الملائكة بل بشر مثلكم وكأن الكفار نزلوا منزلة من يدعى الملكية للرسل دون البشرية فهو قصر قلب تنزيلى كسابقه (٣١) وهذا اغراق فى المتحمل والتأويل المغلق ، والأول هو المهيع الواضح عند العلماء .

وهذا القصر الصورى مبنى على ترديد عبارات سلفة للمخاطب فيها قصر ويكون فى الحجاج والمغالبة ، وقد رأيت له نظيرا فى قوله تعالى « واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٣٢) .

---

(٢٩) ابراهيم ١١ (٣٠) واجع الدلائل ٢٢٨ .

(٣١) راجع الكشاف ٢/٣٦٨ وأبا السعود ٥/٣٧ وشروح التلخيص ٢/٢١٩ .

(٣٢) الأنفال ٣٢

فقد ذكر فى الكشاف أن هذا ، أسلوب من الجحـــود بليغ ، وأن التخصيص وقع على سبيل المجاراة لقول المؤمنين انه هو الحق ، لا على قصد الحصر ، والا لكان المنكر انحصـــار الحقية فيه وليس مرادا بل مراده أن حقيقته محال وهذه الصياغة توحى بالتهكم من قولهم « هذا هو الحق » على سبيل الحصر ، فتعريف الحق جنسى ويرى الشهاب أنه عهدى خارجى أى الحق المعهود المنزل من عند الله هذا لا أساطير الأولين كما يدل عليه قوله للنضر بن الحارث فأفاد تخصـــيص المســـند اليه بالمسند وأكده بالفصل (٣٣) .

ويرجح رأى الزمخشرى أن هذا كـــلام النضر ذلك أنه لمـــا قال : ان هذا الا أساطير الأولين قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ويلك أنه كلام الله تعالى ، فقـــال ذلك والمعنى : ان كان حقا منزلا فأمطر علينـــا الحجارة والمراد التهكم واظهار اليقين أنه ليس كذلك وحاشـــاه ، وهنا أيضا يرى الزمخشرى أن النضر وضع « حجارة » من السماء موضـــع السجيل وهى الحجارة المسومة يريد أن التعبير كناية عن موصوف خاص ولم أقتنع به اذ لا يعرف عن السجيل الا ما أخبر به القرآن ، وموقفهم منه معروف ، والظاهر انه يريد العموم والتحقيق أى من كل نواحيه والله أعلم .

ويتصل باثبات الملكية ونفى البشرية تشبيها قول النســـوة حين رأين يوسف عليه السلام « ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (٣٤) والحقيقة لا تسلب الا باعتبار صفة زائدة مقدرة فى النفس أى ما كما له كمال بشر بل كمال ملائكة ونفى البشرية فى موقف الاعجاب والتعظيم

---

(٣٣) راجـع الكشـــاف ١٥٥/٢ والشـــهاب ٢٧١/٤ . وأبا السعود ١٩/٤

(٣٤) يوسف ٣١ .

والتعجب من حسن الخلق يدل على الملكية واظهارها تعيين وتبيين اذ من المحال كما يقول عبد القاهر أن يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل في جنس آخر (٣٥) وأسلوب القصر هنا مصدر بأن النافية لتأكيد هذه المبالغة الانثوية المبهورة فهو من قصر القلب ومن المتشابه قول الله تعالى في سورة الاسراء « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (٣٦) مع آية الكهف « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا » (٣٧) .

وقد حصر المانع — في الآية الأولى — من الايمان في فكرة البشرية مع أن له موانع شتى عندهم نفسية واجتماعية وتراثية أعني التكبر والحقد والخوف على عوائدهم ومكاسبهم والتعصب لعادة الآباء ، اما لأنه أهمها أو أنه المانع بحسب الحال عند سماع الجواب المحمدى قبله « هل كنت الا بشرا رسولا » وقد تخطر على بالهم شبهة يتمسكون بها دون سواها مع كثرة شبههم وعلى كل فهو سبب عادى ، أو مانع عادى ضعيف مع ظهور المعجزات (٣٨) .

أما آية الكهف : ففيها « ويستغفروا ربهم » لاتصاله كما قال الكرمانى بقوله « سنة الأواين » وهم قوم نوح وهود وصالح وشعيب أمروا بالاستغفار على ألسنة انبيائهم . فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم (٣٩) .

---

(٣٥) راجع الدلائل ١٥٤ والاستغناء ٢٩١ .

(٣٦) الاسراء ٩٤ (٣٧) الكهف ٥٥ .

(٣٨) راجع أبا السعود ١٩٥/٥ ، والاستغناء ٣٠٥ ومشكل القرآن لابن عبد السلام ١٧٥ .

(٣٩) راجع أسرار التكرار ١٣٠

والمراد بسنة الأولين : نزول العذاب والاستئصال أو انتظار عذاب الآخرة .

وأوله الواحدى بتقدير العذاب عليهم فى بدر وأحد وقد انفرد به وليس هو الملائم . والجملة بعد الا حال فهو من الحصر فى الحال، وقد قدر العلماء مضافا أو متعلقا محذوفا يقتضيه المعنى وهو : ارادة أو انتظار أو طلب والأخير عن الزجاج ، بينما أجاز الرازى ، وأبو حيان عدم التقدير : أى عند نزول العذاب (٤٠) .

ومعنى الآية فى رأى : التأسف عليهم والتنبيه على فساد حالهم لأنهم لا يمتنعون لعرض العذاب ولا اعتقدوه بل يعتقدون أنهم مصيبون ولا يأتيهم العذاب أصلا كما تقول ما نام زيد فى هذه البرية الا ليأكله الأسد فهو مانع — كما نقل القرافى عن العز بن عبد السلام باعتبار ما يئول اليه أمرهم وآية الاسراء مانع باعتبار ما فى صدورهم » .

وذكر العز فى كتابه مشكل القرآن أن المانع فى آية الكهف عادى وهو فى سبحان حقيقى ولا تنافى بين قولنا : ما منعهم حقيقة الا كذا وما منعهم عادة الا كذا فزالت المنافاة » (٤١) .

والرأى الثانى — وقد أخذناه من جملة تأويلهم : وهو أن طلبهم سنة الأولين وهو قوله : ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء » كقول السابقين « ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين » فالمراد كفار عصر النبوة المحمدية بيانا لعنادهم الذى يدفعهم الى الهلاك فيجيئهم العذاب (٤٢) .

---

(٤٠) راجع الطبرى ١٥/١٧٣ والبحر ٦/٨١ ، ١٣٩/٦ والرازى ٢١/٦٠ ، ٢١/١٤١ والألوسى ١٥/١٧١ .

(٤١) راجع الاستغناء ٣٠٦ وفوائد فى مشكل القرآن للعز ١٧٥ .

(٤٢) راجعه البحر ٦/١٣٩

وواضح من الآية نفى الموانع من الايمان على جهة الحقيقة فليس هناك ما يحول بينهم وبين الهدى لكنهم لم يفعلوا فهو قصر للمانع على انتظار العذاب استئصالا أو أنواعا منه تهديدا ووعيدا وفى صيغة المنع جاء قوله تعالى :

« وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون » (٤٣) .

والمراد بالمنع الترك والمراد ما منعنا الا اتباعهم مذهب الأولين فى تكذيبهم فاذا كذبوا بالآيات عاجلهم الاستئصال لكن اقتضت الحكمة رحمة بأمة الدعوة أن يؤخر جزاءهم ليوم الدين (٤٤) فأمنهم عذاب الاستئصال وجاء من أصلابهم من يعبد الله وحده .

الكفر صفات وجزاء :

والمنافقون والمشركون — وهم ملة واحدة — وصفوا بصفات كثيرة لازمة فى القرآن الكريم هى ذات صفاتهم فى واقع الحياة من المكر والخداع ومحاولة الاضلال والكيد لاهلاك المؤمنين ، والظلم ونحوها ، وأساليب القرآن فى مناسبات وصور مختلفة تؤكد أن أثر هذه الصفات لا تصيب المؤمنين بل ترتد الى الكافرين والمنافقين كقوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون » (٤٥) ونحوه : وان يهلكون الا أنفسهم » (٤٦) « وما يمكرون الا بأنفسهم » (٤٧) « وما يضلون الا أنفسهم » (٤٠) مما اتخذ فيه الفاعل والمفعول . قال الرازى

---

(٤٣) الاسراء ٥٩ .

(٤٤) راجعه الكشاف ٢/٤٥٤ والبحر ٦/٥٣ والرازى ٢٣٤/ الى أبى السعود ٥/٢٣١ .

(٤٥) البقرة ٩ (٤٦) الأنعام ٢٦ .

(٤٧) الأنعام ١٢٣ (٤٨) آل عمران ٦٩ .

فى الآية الأخيرة « لما اجتهدوا فى اضلال المؤمنين ثم لم يلتفت اليهم المؤمنون ، فقد صاروا خائبين خاسرين من حيث اعتقدوا شيئا ولاح لهم غيره » (٤٩) والمنفى المقابل للمقصور عليه فى هذه الأساليب هو المؤمنون خاصة فهو قصر قلب من قصر الصفة ، ذلك أن الموصوف هنا متقابل بماله من صفات متعاكسة • عدا مادة ، الظلم فى أساليبها التى جاءت بطريق العطف غالبا بلكن كقوله تعالى : « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وقد تكرر هذا التعبير تقريرا لأحداث سابقة حاق فيها المكر السىء بأهله ، ورد كيد الظالم الى نحره — كقوله تعالى عن انفاق الكافرين فى وجوه الخير وقد فقدوا أساسها وهى الايمان بالله الواحد « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون » (٥٠) فقد حقق بهدا التمثيل المصور المنتزع من عالم الزرع والعواصف ضياع ما قدموا فهو هباء منثور كما جاء فى آية أخرى وقال تعالى ضمن آيات عديدة متوالية تعدد على بنى اسرائيل نعم الله عليهم وصنائع الله لهم ثم ما واجهوا به آلاء المنعم بالكفران فاستحقوا ما نزل بهم « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٥١) وقد تكرر هذا التعبير فى الأعراف والتوبة وجاءت فيه « كان » بعد لكن دون آية آل عمران قال الكرمانى فى سر ذلك جاءت كان لأن المقام اخبار عن قوم كذبوا ، وماتوا قبل البعثة المحمدية ، وآل عمران مثل لمن يظلم»(٥٢) يريد أن صياغة المثل للبقاء والاستمرار وهو يتحقق بالمضارع دون الماضى •

---

(٤٩) الرازى ٢/٤٧٠ •

(٥٠) آل عمران ١١٧

(٥١) البقرة ٥٧ والتعبير فى الأعراف ١٦٠ والتوبة ٧٠ •

(٥٢) أسرار التكرار ٢٨ ◘

وقد رأى بعض العلماء أن لكن نص فى قصر القلب ، وتقديم أنفسهم لا للحصر والا ما تطابق الكلام كما أنه ليس للفاصلة فحسب كما يرى الشهاب (٥٣) بل للمسارعة الى بيان أنهم هم أول من يصاب بظلمهم فهو مناسب للتطلع النفسى ازاء من يقع عليه الظلم .

والواقع أن أساليب الظلم لاتفيد القصر هنا الا على رأى من يجوز أن تكون الواو زائدة لازمة وهو رأى شديد الوهن اذ وسمها بالزيادة اغراق فى التكلف وبخاصة اذا ذكر الرأى الأقوى الذى أكده الامام السهيلى من أن لكن مع الواو لا تكون عاطفة اذ لا يجتمع حرفا عطف » (٥٤) .

يعنى أن الواو هى العاطفة عطف جمل . مما سنحقق ان شاء الله طرق القصر —

متقابلات :

ومنها : قصر التكليف من الله تعالى للنفس على وسعها وطاقتها، وقد جاء التعبير خمس مرات : ثلاث بنون العظمة « لا نكلف نفسا الا وسعها » (٥٥) ومرة بلفظ الجلالة «لايكلف الله نفسا الا وسعها» (٥٦) ومرة بالبناء للمجهول احالة على التعبيرات السابقة لتعين الفاعل سبحانه ، وكثرة ذكر الفاعل الترغيب فيما كلف ، لأن فيه الخير كله لعلمه ما يصلح خلقه وقريب من هذا الأسلوب « لا يكلف الله نفسا الا ما أتاها » (٥٧) والوسع ما يسع الانسان ولا يضيق عليه (٥٨) والمراد

---

(٥٣) حاشية الشهاب ٣/٥٧ (٥٤) نتائج الفكر ٢٥٧ .
(٥٥) الآيات الأنعام ١٥٢ ، والأعراف ٤٢ والمؤمنون ٦٢ .
(٥٦) ٢٨٦ البقرة (٥٧) ٧ الطلاق .
(٥٨) راجع الكشاف ١/٤٠٨ وابا السعود ١/٢٧٦

نفى ما فوق الطاقة والوسع فهو قصر قلب يفوح منه شذى الرحمة فى نسماتها وخطرات المنة والاحسان ، ويأتى التعبير فى سياقات دالة على التيسير فى التكليف كقوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٥٩) كما نلمح هذا التعريض الأخاذ بسرعة الامتثال والمبادرة الى اتيان التشريعات والوقوف عند حدودها ونفى ما يقع على سبيل السهو والغفلة والخطرات التى لا تدفع بل للنفس فيه مجال ومتسع وهو نص فى اليسر دون العسر (٦٠) .

ومنها : قصر الفعل على القلة مصدرا أو زمانا تعقيبا على حدث محدود فى زمن يسير وقد كثر فى الذم كقوله تعالى فى المنافقين « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا » (٦١) « يسألون عن أبنائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا » (٦٢) « يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا » (٦٣) وهو نفى للكثرة المقابلة بل هو كناية عن عدم الغناء والفائدة وبخاصة اذا عقب على سلوك بشرى للكافرين أو المنافقين ، كما يكنى عن مدة الدنيا بالقلة بجانب الآماد التى لا تنتهى فى الآخرة « لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلا » (٦٤) وقد استأثرت سورة الأحزاب بالجانب الأكبر من هذا الأسلوب لأنها أظهرت باطن المنافقين فى موقف بلاء تتعرى فيه النفوس .

كما جاء هذا العبير فى أحداث القيامة وحسبان المبعوثين أنهم

ودقائق التفسير لابن تيمية ١/٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

(٥٩) البقرة ١٨٥ (٦٠) راجع الرازى ٧/١٣٨ .

(٦١) الأحزاب ١٨ (٦٢) الأحزاب ٢٠

(٦٣) النساء ١٤٢ (٦٤) الأحزاب ١٦ .

لبثوا فى قبورهم وقتا يسيرا « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمـــده ، وتظنون ان لبثم الا قليلا » (٦٥) .

وقوله : « ان لبثتم الا قليلا لو أنكم تعلمـون » (٦٦) ومثلـه تخفت المجرمين يوم الدين : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما » (٦٧) .

والآيات تصف أولا حقيقة علمية مثيرة وهى انعدام الاحسـاس بالزمن فى الموت وأثناء النوم ، والموت قياس عليه ، كما حـدث لأهـل الكهف : قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم (٦٨) . والذى استبعد احياء القرية بعد موتها « أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عـام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مـائة عام » (٦٩) وواضح أن أسلوب القصر مناسب للزمن المـديد الذى لا يعلم مداه الا الله وهو فترة الموت والبرزخ الى يوم الدين وفى كل الأساليب وضع للبشرية فى مقام معلوم قهرا وعجزا وجهـلا بأسرار الغيوب « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (٧٠)

* المشركون والظن الباطل :

والظن ــ كما ــ يرى الراغب أعم ألفاظ الشك واليقين ، وهـو اسم لما حصل عن امارة فمتى قويت أدت الى اليقين ، ويأتى بعـــده أن المشددة سواء كان اليقين حقيقة كقوله تعـالى : « انى ظننت أنى

---

(٦٥) الاسراء ٥٢ (٦٦) المؤمنون ١١٤
(٦٧) طه ١٠٣ ، ١٠٤ (٦٨) ١٩
(٦٩) البقرة ٢٥٩
(٧٠) الاسراء ٨٥ وراجع القرافى فى الاستغناء فى هذه الأساليب ٦٢٣ ــ ٦٢٥

ملاق حسابيه » (٧١) أو تنزيلا كقوله « وظنوا أنهم اليها لا يرجعون » (٧٢) لاعتقادهم ذلك يقينا ، ومتى ضعفت الامارة لم يتجاوز حد الوهم ، ويكون ظنا مذموما متوعدا عليه بالعقاب ، وهو الظن الفاسد وقد يطلق على الجهل والشك وباطل الاعتقاد (٧٣) وقد جاءت أساليب قرآنية عديدة تقصر اتباع المشركين على الظن أو الخرص فيما يتعلق بالبعث والشركاء والاصنام أو زعمهم أن شركهم كان بارادة الله أو أنهم لن يؤمنوا الا أن يشاء الله كما جاء أسلوب خاص باليهود وتحريفهم وتأويلهم للكتاب حسب هواهم .. (٧٤) كما لاحظنا فى أساليب الظن أن منها ما جاء بعد نفى العلم أو السلطان أو الحقت بما يدعم القصر ويؤكده بما يشبه التوكيد كما جاء فى ثلاثة أساليب توالى أسلوبين للقصر . اتباع الظن والخرص ونزجى شاهدا لكل حال .

فى مقام نفى فيه المشركون البعث ونسبوا الاهلاك الى الدهر ، وقصر الحياة على الدنيا دون الأخرى جاء قوله تعالى « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » (٧٥) وقد سبق تحليل الآية ويهمنا هنا أن جملة القصر مؤكده لمفهوم الجملة التى سبقتها وزيادة كما جاء النفى بان وهى آكد من « ما » التى جاءت فى أساليبهم ردا قويا حاسما .

وجاء من أساليب نفى الشركاء والأصنام ونحلها أسماء وعبادتها:

« ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس » (٧٦) والظن هنا

---

(٧١) الحاقة ٢٠ (٧٢) القصص ٣٩ .
(٧٣) راجع المعجم المفهرس ٤٣٨ .
(٧٤) راجع الراغب ٣١٧ والبرهان للزركشى ١٥٦/٤ .
(٧٥) الجاثية ٢٤ (٧٦) النجم ٢٣ .

توهم الباطل حقا دفع اليه شهوة نفس أمارة غطت على العقل والتدبر وقد توالى أسلوبا قطر بان والآ تزييفا وتسفيها لأحلامهم وتركيزا على مصدر الداء وهو نفس مفتونة حالكة السواد .

فى أساليب الجدل التى حاول فيها الكفار اصطناع العقل أو قل انتهاج السفسطة والمثرثرة وان اشراكهم وآباءهم وتحريمهم ما حرموا كان بمشيئة الله ولم يكن هذا اعتذارا عن قبيح بل كذب صريح ، وتناقض فى القول ، فكيف يعترفون به ربا ثم يشركون فى الوهيته « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » (٧٧) وقد أخبر أنهم سيقولون وقد فعلوا كما ذكرت آية النحل « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء .. » (٧٨)

وفى آتينا واجههم بالخطاب على طريق الالتفات واهانة وتجريماوقد بدأ بوعيدهم بأمثالهم الذى ذاقوا بأس الجبار ، والضمير « نا » له سطوة وجلال، ثم استفهام التحدى والتعجيز والتكذيب والسخرية هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » ولا علم هناك بل ظن باطل وكذب أبلق ثم ترقى الأسلوب تأكيدا فى تحقيق تدنيهم اذ الخرص الكذب والتخمين من « خرص النخل اذا خمن رطبه » (٧٩) .

والآية الأخرى الذى جاء فيها الخرص بعد الظن من نفس السورة جاءت بعد محاورات مع المشركين وأنهم أعداء النبى كما أن لكل نبى

---

(٧٧) الأنعام ١٤٨ (٧٨) آية ٣٥ .

(٧٩) راجع أبا السعود ١٩٦/٣ والشهاب ١١٨/٤ .

عدوا شياطين الانس والجن قال الله تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » (٨٠)

وقد نقل عن بعضهم أن الآية خاصة بأمر الذبائح وقولهم نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله ، يريدون الميته وقيل ان المطاع فيه عام ولكن المراد الكفار أو أهل مكة وأرضها وهما رأيان واهيان لعدم الدليل على التخصيص وثم رأيان جديران بالنظر .

الأول أن المراد بمن فى الأرض : الناس ، وبأكثرهم الكفار .

والثانى أعم : فالمراد بالناس البشر والاكثر : الجهال وأتباع الهوى ، فهم يضلون لأنهم ضالون ، والظن والخرص هو آراؤهم الفاسدة وأوهامهم الجاهلة . (٨١)

والواضح عندى أول الرأيين وذلك لدلالة الآيات السابقة المشابهة التى جاءت نصا فى الشرك وأهله ، ثم طريقة بناء الجملة القصرية والدلالة الخاصة للاضلال واتباع الظن والخرص فى القرآن فهو خاص بالكفار وأخيرا فان الطاعة فى الاسلام مقيدة بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين المخلصين .

« انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، « وأطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ولأن الكفر مازال أكثر أهل الأرض وهم غارقون فى ظنون وأوهام ، جاءت الأفعال مضارعة والخطاب للعموم ، والآية تحذر من اتباع الكفر وأهله فى آرائهم وفلسفاتهم المادية

---

(٨٠) الأنعام ١١٦

(٨١) راجع الآية فى الكشاف ٢/٤٦ والبحر ٤/٢١٠ وأبى السعود ٤/١٤٤ والشهاب على البيضاوى ٤/١١٨ .

وما يدور فى اطارها من سلوك وأخلاق وعادات فهو موقع فى الردى وتمييع الشخصية الاسلامية وهو ما حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم وما يحدث فى بعض البيئات الاسلامية .

وقد جاء الظن مجردا عن الخرص ، والخرص كذلك فى آيتين متشابهتين :

فجاء فى الزخرف : بعد جعلهم الملائكة اناثا وعبادتهم « وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون» (٨٢) وفى الجاثية : « نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » (٨٣) قال الكرمانى مخففا أسلوب الاسكافى « سبق آية الزخرف جعلهم الملائكة بنات الله وهذا اغراق فى الكذب فناسب الخرص ، بينما فى الجاثية خلطوا الصدق بالكذب فناسب الظن بمعنى الشك » (٨٤) .

---

(٨٢) ٣٠ (٨٣) الآية ٣٤ .

(٨٤) راجع درة الاسكافى ٤٣٣ وأسرار الكرمانى ١٩١ والنقل بتصرف

قصر الافراد

نماذج قرآنية

ـ النبى صلى الله عليه وسلم بين الانذار والتبليغ والتذكير

ذكر الامام عبد القاهر قوله تعالى « وما أنت بمسمع من فى القبور ان أنت الا نذير » (١) . فى مقام نزل فيه حال النبى صلى الله عليه وسلم حال من ظن أنه يملك تحويل قلوبهم ، ومن لا يعلم أيضا أنه ليس فى وسعه أكثر من أن ينذر » ثم قال .. « ومثله فى أن ما تقدم من الكلام اقتضى أن يكون اللفظ كالذى تراه من كونه بان والا قوله تعالى « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٢) .

ونفهم من ذلك :

١ ـ أن الأسلوب فى الآية الأولى قصر افراد تنزيلى .

٢ ـ أن التعبير بالنفى والاستثناء بعامة وان والا بخاصة لا بد أن يأتى فى سياق يقتضيه وهو ما يسميه بالنظم أو التلاؤم ، وهو توجيه انى أن أدوات النفى مطلقا لكل دلالة خاصة يقتضيها النسق ولا يغنى عنها سواها .

٣ ـ بين رحمه الله أن المنفى فى الآية الأولى هو هدايتهم أو تحويل قلوبهم ولم يوضح المنفى فى الآية التالية والمهم أنها لفتة موفقه قد يغفل عنها من ينتزع الاسلوب من سياقه أو يطلق

---

(١) فاطر ٢٢

(٢) الأعراف ١٨٨ وراجع الدلائل ٣٦٩ .

الحكم دون استقصاء ومن ذلك ما ذكره الامام السكاكى ـ مع دقته وعمقه ـ وهو يلخص وجهة عبد القاهر ، فقد ترك احتراس عبد القاهر « وهو استخدام ان والا فى المقام المناسب » .. وقال على عجل « وقوله عز وجل : قل لا أملك .. الآية » مصبوب فى هذا القالب »(٣) هل يعنى أنه اخراج على غير مقتضى الظاهر وهو عنوان الفكرة أعنى القصر التنزيلى ولا تنزيل فى الآية أو يعنى ان المنفى بان فى الآية كالمنفى فى سابقتها « ان أنت الا نذير » وهو غيره قطعا ، واذا كان يعنى ما عناه عبد القاهر فايجازه الشديد لا يدل عليه . ثم ان ترك الاستقصاء ـ قدر الطاقة ـ وترك النظير فى سياق الآيات حمل بعضا ممن ألفوا للبلاغة على القياس الخاطىء حين جعلوا المنفى فى بعض آيات الانذار أعنى التى قصر فيها حال النبى الكريم على الانذار دون الهداية كما فى قوله تعالى من سورة الرعد : « انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (٤) مع وضوح السياق ودلالته على أن المنفى اجابة اقتراحات الكافرين بانزال الآيات (٥) .

والواقع أن أساليب الانذار والتبليغ والتذكير متباينة فى الصياغة والدلالة والسياق والمقام ذلك أن معنى الانذار : الاخبار بالتخويف والتحذير ، والبلاغة بمعنى التبليغ والأداء والتذكير بمعنى اعادة الذكر فى القلب والخاطر ، واذا كانت أساليب التبليغ من قصر الافراد وهى أحد عشر أسلوبا فان اكثر أساليب الانذار التى بلغت بضعة عشر أسلوبا من قصر القلب وهى ما وجه فيه الخطاب على لسان النبى الكريم الى المشركين وقل جدا ما جاء فيه قصر الافراد وهو ما كان

---

(٣) المفتاح ٢٩٥ .

(٤) الرعد ٧ وانظر : من بلاغة النظم العربى ٢/٥٦ على سبيل المثال

(٥) أبو السعود ٥/٧

الخطاب من الله لعبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم غالبا كما جاءت الاساليب بطرق مختلفة من النفى والاستثناء وانما ، وتعريف الطرفين ، وما يحتاجه الى وقفة حقا هى تعيين تلك الصفة المنفية المقابلة للمقصور عليه وهى فى أكثر الأساليب صفة تنزيلية لم يتصف بها المخاطب عليه السلام حقيقة ، وهذا المنفى تنوع تنوعا بالغا حسب السياقات واذا قسمت الاساليب بحسب المقابل للمقصور عليه ذلك الذى نفى بقوة وحسم وكان سببا فى هذه الصياغات .

المنفى فى أساليب الانذار

١ ــ تبرئة ساحة المصطفى صلى الله عليه وسلم مما رموه به من الجنون عنادا وكبرا وكذبا . قال تعالى : « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » (٦) .

وقوله تعالى « ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير مبين » (٧) .

وجملة القصر مؤكدة للجملة قبلها تلك التى تأكد جحدها بالباء الداخلة على نكرة افادة تأكيد العموم كما أن المنفى فى القصر قصدا هو ذاته المنفى فى الجملة السابقة ، فهو نفى للجنون مرتين وصعدت ان معنى التأكيد القوى والجملتان نتيجة واضحة يتوصلون هم اليها لو تركوا هذا التجمع والتجمهر الذى يذكى الانفعالات فتطيش وتغلب على ذكاء العقل فهى دعوة للفكر الواعى فى جو هادىء منفردين أو مثنى مثنى ، وهى موعظة واحدة أو فريدة لأنها توصل الى الحق العازب عنهم وما قاله الفكر الحديث حول العقل الجمعى وما يثيره ويؤثر فيه يدندن حول هذه الآية المعجزة .

---

(٦) سبأ ٤٦ .
(٧) الأعراف ١٨٤ .

٢ ــ جاء قصره صلى الله عليه وسلم على الانذار فى سياقات ، يقترح الكافرون آيات خارقة ، للسنن الكونية ، خارجة عن طوقه صلى الله عليه وسلم ومهمته :

قال تعالى « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آيات من ربه انما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » (٨)

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (٩) .

وقال تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك انما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » (١٠)

ومع أن السياقات رد على جدالهم والحاحهم سواء كانوا كفار العرب أم مشركى أهل الكتاب فى آية العنكبوت جاء القصر بانما لوضوح هذا الأمر لو كانوا يعقلون (١١) ونلحظ أن فى أية أهل الكتاب جاء قصران يؤكد أحدهما الآخر يوشك أن يكون المثبت فى احدهما هو المنفى فى الآخر تضمنا ولزوما وذلك لمستوى أهل الكتاب الثقافى والعقلى والمعنى أن الآيات عند الله مرهونة بمشيئة لا عندي وانما أنا نذير واضح الانذار لا أتدخل فى مشيئة الله تعالى بانزال الكتاب : أما الآية الثالثة فمع أنها فى مشركى مكة فقد يجوز أن يكون المنفى فى القصر هنا أنه لا يملك الآيات كناية عن وجوب اعراضه عنهم وانصرافه الى دعوته(١٢)

---

(٨) الرعد ٧
(٩) العنكبوت ٥٠ .
(١٠) هود ١٢
(١١) راجع أبا السعود ٥/٧ ، ٤١/٧
(١٢) راجع الكشاف

فهو قصر قلب لغير المخاطب والأولى أنه قصر أفراد تنزيلى أى أنت نذير لا تملك هدايتهم بدليل صدر الآية « فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك » •• ونهايتها : « والله على كل شىء وكيل » وهى بذلك تدخل فى القسم الرابع •

ويلحق ــ ثالثا ــ بالقسم الثانى ما جاء تعقيبا عن سؤالهم له عليه السلام عن غيب لا يعلمه الا الله كالساعة ، فهو مختص بالانذار دون علم الساعة •

كقوله تعالى فى سياق بدأ بقوله عز وجل : « ويسألونك عن الساعة قل انما علمها عند ربى » •• ومنه « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (١٣) فقد نفت الآية علمه بالساعة فى الأسلوب أولا بمعنى علمها عند ربى المحيط علمه لا عندى ، ثم ترقى المعنى الى نفى علمه بالغيوب على وجه العموم : فمهمته النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين دون علم الغيوب ، ومثلها آيات الملك : « ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » (١٤) وهم يعنون بالوعد وقت الحشر • والرد أن العلم بوقت الساعة وغيرها عند الله لا عندى ، وانما أنا لكم نذير مبين أى لا أعلم وقت الموعود ، أو أنذركم وقوع الموعود لا وقته ، ويجوز أن يكون الانذار عاما لا يقدر له متعلق ، أى أحذركم الكفر بالله ودينه فلا وظيفة لى الا الانذار ويلزم منه البشارة لمن أطاع دون سؤاله تعالى عما لم يأذن لى فيه تبارك وتعالى وعموم الانذار ملمح طيب للبقاعى وان كان الأولى

---

(١٣) الأعراف ١٨٢ ــ ١٨٤ •
(١٤) الملك ٢٦ •

هو الأول لدلالة السياق سابقا ولاحقا « فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا » وكذلك مناسبة الآيات . (١٥)

ومثلها آيت النازعات : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم ، أنت من ذكراها الى ربك منتهاها ، انما أنت منذر من يخشاها »(١٦)

وقوله « فيم » استفهام انكارى لسؤال المشركين عنها ، وقوله « أنت من ذكراها » أى أنت مبعوث فى نسم الساعة علامة من علاماتها لا يعلم وقتها أو منذر بأهوالها ووقوعها دون وقتها وعلى كل فأسلوب القصر تقرير لقوله : « أنت من ذكراها » وفيه لمحة من الاحتراس اى ان كنت لا تعلم وقتها فانت منذر بوقوعها . وتلحظ ان الانذار خاص بمن يخشاها عام فى الآيات السابقة المتلائمة مع مهمة الرسالة والانذار فالوا القصر على من يخشى لأنه المنتفع بالانذار وأما غيره فالانذار معه كلا انذار كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل ، فالاضافة هنا اشارة الى أنه عريق فى انذار الخاشى أما غيره فلم يحصل له صورة الانذار ولا معناه (١٧) .

وينبغى الحذر فى هذه الأساليب التى يتعدى فيها الانذار الى موصوف مفعول به فقد يختلف المقصور عليه كما فى قوله تعالى « انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة » (١٨) ، « انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » (١٩) أى تنذر المؤمنين لا الكافرين وهو من قصر الصفة على الموصوف عكس الأساليب السابقة .

---

(١٥) راجع أبا السعود ٩/١٠ ونظم الدرر للبقاعى ٢٠/٢٦٤ .
(١٦) الآيات ٤٣ ـ ٤٥ .
(١٧) راجع الدلائل ٢٢٠ وأبا السعود ٩/١٠٦ ونظم الدرر ٢١/٢٤٦
(١٨) فاطر ١٨ (١٩) يس ١١ .

تعريضا بالكافرين الذى فقدوا مظاهر الادراك . (٢٠)

ثم قد جاء أسلوبان فى آيات من سورة ص بين غيبين غيب آت يصور مشهدا من مشاهد المعذبين يوم القيـــامة من توافد الأفواج المقتحمة على النار ، وانهماكهم فى خصام وسباب ، ولعنات يائســـة ، وبين غيب قد مضى هو نبـأ الملأ الأعلى ، واختصـام من لون آخـر من سجود الملائكة لآدم عليه السلام ، وتكبر ابليس ومناظرته وطرده.

والآية الأولى : « قل انما أنا منذر وما من اله الا الله الواحـــد القهـــار . » (٢١)

والثانية : « ما كان لى من علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون ان يوحى الى الا أنما أنا نذير مبين » (٢٢) . أى أنا نذير بين الانذار ، ولا علم لى بغيب الله الا بما علمنى الله عن طريق الوحى وهو اعتراض ويتضح فى الآية الأولى ، وفيه تعليل للايحاء أى ما يوحى الى الا لأنما أنا نذير فالانذار سبب فى الوحى .

ورأى أبى السعود فى ان المنفى فى الأسلوبين هو علـم الغيب بدلالة السياق هو الأرجح من رأى الرازى وتبعه الشهاب والألوسى من أن الدعوة الى الله قوبلت بالاستهزاء وبقولهم عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم انه ساحر وكذاب فالمنفى فى الاسلوب : قل انما أنا منذر: السحر والكذب ، ورأى أبى السعود أقوى لاتصال الاسلوب بسياق الغيب والصياغة الخاصة لقصر الألوهية بدخول من على النكرة بعـد النفى على الله الواحد القهار الذى أحاطت قدرته بالزمان والمكـــان والذى يكشف عن شىء من الغيب المكنون لعبده ورسوله عليه السلام ،

---

(٢٠) راجع أبا السعود : ١٤٩/٧ ، ١٦١ .
(٢١) ص ٦٥ (٢٢) ص ٧٠ .

على أن الرازى ذكر فى الآية الثانية « ان يوحى الى الا أنما أنا نذير مبين » قوله « يعنى ما عرفت هذه المخاصمة الا بالوحى وانما أوحى الله الى هذه القصة لأنذركم بها » (٢٣) .

ومنه قوله تعالى : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » (٢٤) .

وقد جاء فى الآية أسلوبان بالنفى والاستثناء وهى آية قوية شديدة الحسم كثيرة النفى تضع الرسالة والرسل فى مكانهم الصحيح لا يستشرفون ولا يعلمون — وهم بشر بوسائل البشر شيئا من عالم الغيب والملكوت الا بوحى الله تعالى وتعليمه . ولذا كرر «لا» فى قوله ولا بكم لتأكيد النفى : لأن الفعل (يفعل) مع أنه مثبت داخل فى حيز النفى « ما أدرى » وتلحظ التعبير (يفعل) وهو أعم صيغ الفعل دلالة العموم فهو نفى لدراية أى شىء عن أى فعل يحدث له أو لهم ، والخطاب كما روى العلماء — يجوز أن يكون خاصا بالمؤمنين الذين ضجروا من أذى المشركين واستعجلوا معرفة المستقبل رغبة فطرية ، أو خاصا بالكافرين الذين اقترحوا آيات منها معرفة الغيوب ، أو هو شامل يرد على الكافرين ويربى المسلمين وقد رجحه أبو السعود ، وأكاد أميل الى أن الكلام مع الكافرين كالآيتين قبلها وبعدها ويكون الفصل بلا فى قوله : « بى ولا بكم » للاستقلال حتى لا يتصل ضميرهم بضميره الشريف عليه السلام (٢٥) .

---

(٢٣) راجع الآية فى الكشاف : ٣/٢٨١ ، والبحر ٧/٤٠٩ ، والرازى ٢٦/٢٢٤ — ٢٦ ، والشهاب ٧/٣١٩ وأبى السعود ٧/٢٣٤ .

(٢٤) الأحقاف ٩ .

(٢٥) راجعه الآية فى الطبرى ٢٦ ص ٦ والكشاف ٣/٥١٨ ، وأبى السعود ٨/٧٩ — ٨٠ .

ولنا وقفة مع التعبير القرآنى « ان أتبع الا ما يوحى الى » فى الآية السابقة ومثلها آية الأنعام « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ان أتبع الا ما يوحى الى » كما ورد فى الآية ١٥ يونس وجاء بائما فى الأعراف فقد يبدو من ظاهر التراكيب أنه قصر الاتباع على الوحى دون اجابة المقترحات وهو الظاهر من كلام الطبرى والكشاف (٢٦) لكن بعض الأئمة ومنهم أبو حيان وابو السعود (٢٧) رأى أن هذا التعبير بيان لرسالة النبى صلى الله عليه وسلم التى لا تعلق لها بشىء من اجابة المقترحات الكافرة بل هى عبارة عن تلقى الوحى والعمل بمقتضاه .

وقد أضاف أبو السعود وفصل والتزم هذا فى معالجاته لتركيب فى كل سياقاته وذلك أن يتوجه القصر الى نفس الفعل باعتبار النفى فيما يتضمن مطلق الفعل والاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص ، ذلك أن كل فعل خاص كنصر مثلا ينحل الى معنى مطلق هو مدلول لفظ الفعل ، والى معنى خاص ، يقارنه ، فنصر معناه : فعل النصر ، وأعطى: فعل الاعطاء فالنصر والاعطاء قيد يتوجه له الاثبات كأنه قيل : ما أفعل الا اتباع الوحى من غير أن يكون لى مدخل فى الوحى أو الموحى أو بوجه آخر من الوجوه ، وليس من القصر على المفعول وهو ما يوحى(٢٨)

والواضح أن أبا السعود أفاد من الفصل الذى كتبه عبد القاهر عن الفرق بين المجاز العقلى والمجاز اللغوى وكون الفعل فى ضرب زيد مقيدا مرتين باثبات الضرب وأنه لزيد وتفريقه بين الافعال ذات المعانى العامة كفعل وخلق وأنشأ وصنع وعمل وبين ذات المعانى

---

(٢٦) راجع الطبرى ٥/١٢٦ والكشاف ٣/٥١٧ .
(٢٧) راجع الى البحر ٥/١٣٢ وأبى السعود ٨/٧٩ .
(٢٨) أبو السعود ٣/١٣٧ ، ٣/٣٠٩ ، ٨/٧٩ .

الخاصة كضرب وفهم (٢٩) والمهم أنها نظـــرة نافذة فى الافادة ممن سبقه ودعوة الى العكوف على كتب العلم ففيها الخير كله ، والظاهر أن القصر لا يكون اضافيا ـ كما فى الرأى الاول اذ المنفى اجـــابة المقترحات بل يكون حقيقيا فهو التزام واتباع للوحى دون ســـواه على الاطلاق .

ونظرة أبى السعود رحمه الله فيها تنزيه ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بجعل افعاله كلها اتباعا مطلقـــا للوحى الالهى فليس هناك موازنة أو تقابل فيما يتبع فيثبت الوحى وينفى المقترحات بل هو فعل الاتباع الكامل للوحى دون سواه .

وهذا التأويل قريب من النفس معجب فيه ذكاء وشفافيه وبخاصة فى أسلوب انما « انما أتبع ما يوحى الى » ولكنه محتاج الى مزيد عمق فى النفى والاستثناء ذلك أن المقصور عليه فى ظاهر التركيب (ان اتبع الا ما يوحى الى) هو ما يوحى أى الوحى وتأويله يجعـــل المقصـــور عليه قبل الا : لان حل الفعل «اتبع» الى أفعل الاتباع واقع قبـــل الا فهل هو تأويل فى المعنى أو أنه يمكن تأويل يتبع بمعنى : ألتزم أو أسلك أو اترسم من قول الراغب تبعه واتبعه قفا أثره وذلك بالارتســـام والائتمار ومنه : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبـــع اهواء الذين لا يعلمون » (٣٠)

والرأيان أمامك الأول أسلم تخريجا والآخر أعمق تأويلا . ولكل وجهة والله أعلم .

---

(٢٩) راجع أسرار البلاغة ٣٣٢ ـ ٣٣٥ .

(٣٠) راجع مفردات الراغب ٧٢ .

صفة البلاغ

أما البلاغ بمعنى التبليغ والأداء فليس فى دلالتها معنى التخويف والتحذير الذى فى الانذار كما أن أساليبهما ليست بهذا القدر من الوعيد والوقع الخاص الذى تبرق به أساليب الانذار ، وقد انحصرت الصفة المنفيه المقابلة للبلاغ فى صفتين : الهداية والمحاسبة والمؤاخذة والعقاب وقد جاءت هذه الأساليب فى رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم كثيرا وفى غيره من الانبياء أو رسلهم قليلا ، خطابا موجها الى الانبياء أو اخبارا عنهم تحديدا لدورهم ومهمتهم وهى رسالة التبليغ وحده والأساليب كلها من قصر الافراد التنزيلى ، فما اعتقد نبى قط وبخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يملك القدرة على ايجاد الهداية ونور الايمان فى قلوب الكفار أو أنه يملك حسابهم وعقابهم على توليهم ونلحظ هنا ــ كما قلت ــ أن أكثر الاساليب فى المصطفى عليه الصلاة والسلام نبى الرحمة فقد أهمه أمر الدعوة ، وعنى نفسه الشريفة بايمان الناس ، وكادت نفسه ان تذهب حسرات رحمة بالبشر : وكما وصفه القرآن فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٣١) فقد نزل منزلة من يظن أنه يجمع بين صفتى البلاغ والهداية أو صفة البلاغ والحساب •

وفى هذه العبارات نحس التعريض الرفيق والرأفة الربانية بعبد الله ورسوله كما ندرك الدلالة المقابلة للأسلوب وهى التعريض الموحى بالوعيد والانتقام الالهى وبخاصة فى الآيات التى تنفى صفة الحساب والعقاب عن الرسول بعد اثباتها لله تعالى كما نحسب أن ما ورد بشأن الانبياء أو برسل عيسى انما هو من المثلات التى يقصد بها نبى الاسلام تسرية عنه ، واعانة على هموم الدعوة •

---

(٣١) الكهف ٦ •

على أن الهداية دلالات فمنها : الدلالة على الطريق القويم بلطف وهى صفة لازمة للنبى صلى الله عليه وسلم « ولدعاة الخير من بنى آدم » كقوله تعالى : « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا » (٣٢) ، وفى نبى الاسلام : « انما أنت منذر ولكل قوم هاد » (٣٣) ، ومنها : التوفيق بمعنى ايجاد الهداية وخلق الايمان فى القلب وهى هداية خاصة بالله تعالى ثابتة له وكل هداية نفاها الله عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن البشر فى القرآن فهى هذه الهداية الخاصة (٣٤) كقوله تعالى ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » (٣٥) « انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء » (٣٦)

فمن النوع الأول الذى نفيت فيه صفة الهداية وما هو من سبيلها قول الله تعالى « واما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٣٧) . « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين » (٣٨) ، « وان تكذبوا فقد كذبت أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين » (٣٩) ومثلها آية يس فى رسل عيسى عليه السلام (٤٠) وآية النور (٤١) .

كما جاء فى المعنى الثانى الذى نفيت فيه صفة الحساب والعقاب وكلها فى رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم جاء قول الله تعالى — فى ست آيات يسبق أسلوب القصر ما يدل على اعراضهم كقوله سبحانه

---

(٣٢) السجدة ٢٤
(٣٣) الرعد ٧ .
(٣٤) راجع الراغب ٥٣٩
(٣٥) البقرة ٢٧٢ .
(٣٦) القصص ٥٦
(٣٧) الرعد ٤٠
(٣٨) النحل ٣٥
(٣٩) العنكبوت ١٨
(٤٠) ١٧
(٤١) ٥٤ .

« فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » (٤٢) فان تولوا فانما عليك البلاغ المبين » (٤٣) ، « فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين » (٤٤) ، « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ان عليك الا البلاغ » (٤٥) .

ونلحظ معى فى هذه الأساليب : أنها جاءت فى معرض الشرط الا اية واحدة وهى الأخيرة جاءت تأكيدا لجواب الشرط اعنى تأكيدا للصفة المنفية وهى حفظه وحسابه عليه السلام لهم فذلك خاص بالله تعالى . وأسلوب الشرط دال على هذا التلازم الشديد ، والارتباط بين الشرط وجوابه أى أن زاد اعراضهم ، فاندفع وثابر على الابلاغ والدعوة أى كلما زاد نفورهم ، فازداد اقبالا عليهم ، فحركاتهم السالبة تقابل أو تلاحق بحركات ايجابية ، هى القوة الخيرة الفاعلة فى المنهج الاسلامى فهو الخير للخير تجريدا واخلاصا ، كما نلحظ أن جواب الشرط الحقيقى من دلالة السياق والقرائن الحالية ـ محذوف واقيم أسلوب القصر مقامه فهو من وضع السبب موضع المسبب ، أى فان تولوا فلن يضروك وسر هذا الحذف والله أعلم للعلم به بقوله تعالى « والله يعصمك من الناس » ثم القصد مباشرة الى فكرة البلاغ وهى الأهم فى هذا الصدد .

كما ان أسلوب النفى والاستثناء كثر فيما كانت فيه صفة للمهابة هى الصفة المنفية وهذا موقف اسلامى حاسم فى تحديد مهمة الرسالة وترك ما يتعلق بالقلوب لله تعالى « مقلب القلوب » حتى الرسول الكريم

---

(٤٢) المائدة ٩٢ (٤٣) النحل ٨٢ .

(٤٤) التغابن ١٢ (٤٥) الشورى ٤٨ .

نفسه كان يدعو دائما : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك : ثم يقول: ان القلوب بين اصبعين من اصابع الرحمن •

وهذا الحد الحاسم ذاتى فى التصور الاسلامى ، اما ما غلب فيه انما فهو فيما نفى فيه الحساب والعقاب لوضوح انه بيد الله تعالى كما أنه ليس من صفات الداعية الذي يلين القلوب ويسوسها كالاسى الحكيم اللهم الا أسلوبا واحدا جاء بالنفى القوى بان والاستثناء فى آية الشورى وهى آية خاصة : بدأت بقوله فان أعرضوا : والاعراض أقوى فى النفار من التولى الذى جاء فى باقى الأساليب لأن آية الشورى جاءت بعد آيات تصور مشهدهم يوم القيامة على مرأى من العذاب يتمنون الرد الى الدنيا « فهل الى مرد من سبيل » ثم وهم يعرضون على النار « خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى » ثم الأية الحاسمة بعد المشهد « استجيبوا لربكم من قبل ان يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير » بهذا الالتفات الغاضب • ثم يصعد الغضب : « فان اعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا » أى فحسابهم على وهذا تهديد بالغ بالانتقام الخاص ولذا فصياغة الأسلوب على النفى والاستثناء متلائم تماما مع هذا الجو التهديدى الأخاذ وأثر الجو أو النسق واضح جدا فى آية التغابن « وأطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٤٦) •

وفى كثير من آيات هذه السورة ما ينبض بالرحمة الرفيقة ، ومايثير الشجن والرقة التى تتماوج بها القلوب ولذا تجد فى نسج الأسلوب

---

(٤٦) راجع ما قاله العلماء فى تفسير أبى السعود على سبيل المثال : ٣/٧٦ ، ٥/٢٧ ، ١١٢ ، ١٣٣ و ٦/١٨٩ ، ٧/٣٤ ، ٨/٣٦ ، ٢٥٨ .

هذا للتكريم والتشريف لنبى الرحمة صلى الله عليه وسلم من ضمير الحق فى « رسولنا » وقوى ذلك التعريض المفاد من انما بمن أعرض عن الرسول الرحيم (٤٧) ونحظ معى كثرة وصف البلاغ والانذار ايضا : بانه مبين من البيان والوضوح ولا يبعد عندى ايضا أن يكون البيان والبلاغ فيه ما يومىء الى البلاغة فى البيان بمعنى التأثير فى القول والوعظ كما دلت آية النساء : وقد جاءت أيضا فى الاعراض وان كان من النبى الكريم عن المتلفقين وهو اعراض عن قولهم لا عن دعوتهم التى أمر بالاستمرار عليها والمابسها ثوبا من البلاغة الواعظة المؤثرة : « أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » (٤٨) .

وقد اطرد دخول الحرف « على » فى أساليب البلاغ : تشديدا فى وجوب القيام بما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم وكذلك للرسل من قبله .

وقد ورد هذا التشديد صراحة فى الآية الشريفة التى تنتهى أيضا بتقرير البلاغ : « فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين » والقرآن فى خطابه لهم يتحدث بأسلوب الغائب عن الرسول الكريم تكريما له وبيانا لحماية الله له وفيه لون من تهديدهم كما جاء بالحرف : على : ثلاث مرات وبلفظ التحميل اشعارا بثقل الرسالة والمسئولية وكونها مئونة خطرة وأمانة شديدة على السواء أى عليه ما أمر به من التبليغ وهى مهمة شاقة عسيرة كما دلت نصوص القرآن (٤٩) وعليكم ما أمرتم به من الطاعة وهى رسالة لها خلق الانسان .

---

(٤٧) راجع نظم الدرر ٢٠/١٢٤ وما بعدها .

(٤٨) النساء ٦٣ (٤٩) أبا السعود ٦/١٨٩ .

وقد يستوقفك كثرة أساليب الانذار ، وآيات البلاغ في الأمة المحمدية .

وكذلك غيرها من الأساليب التي يخص بها كفار العرب واصفة ناعية سوء اخلاقهم ، مظهرة خفي عيوبهم ، وطوى رذائلهم تنشرها متعددة عنيفة كما تكرر الأمر بالانذار والتبليغ ، وهذه ظاهرة يسير تفسيرها — بتوفيق الله — ذلك أن مشركي العرب كانوا أشد الناس نفارا ، بحكم طبيعتهم وتكوينهم ، وهذا يحتاج قدرا من المثابرة ، ولونا من المصابرة والتأني ، نهجا قاصدا للدعاة ، ولبيان أن نجاح الدعوة مع هؤلاء — وحالهم تلك — أدل على فلاحها في غيرهم من الأمم والشعوب والبيئات المتباينة وطول عمر الدنيا .

ثم إن كثيرا من هؤلاء المشركين الذين حملتهم الآيات تحميلا الهيا — بالتعبير الحديث — لا يكاد يقترب من حماه التحليل النفسي : كثير منهم آمن على هدى وبصيرة وكأنما كانت الآيات المتنزلة علاجات منظمة فاعلة لأمراض قلوبهم فاما شفيت وانضموا الى موكب المهاجرين والأنصار كانوا قادة الأمم ونماذج معجزة لما يصنع القرآن بالقلوب وانظر حال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وأبي سفيان بن حرب وغيرهم ممن أسلم بعد «أحد» أو بعد «الفتح» ذاته كيف كان الواحد منهم بأمة رضي الله عنهم .

كما جاء التذكير في آية واحدة « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٥٠) والتذكير بمعنى تكرار الذكر بمضمون الرسالة (٥١) فأسلوب القصر تحقيق وتقرير وتعليل لفعل « ذكر » نفيه معنى السببية أو شبه كمال الاتصال والصفة

---

(٥٠) الغاشية ٢١ — ٢٢ (٥١) راجع الراغب ١٧٨ .

المنفية : الاكراه والاجبار بدليل : ليست عليهم بمسيطر (٥٢) وينضم الى ماسبقه من كونه قصر افراد تنزيلى .

ومن شواهد قصر الافراد التنزيلى عند السيكاكى والقزوينى قوله تعالى : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون، وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (٥٣) والخطاب للمؤمنين ، وذلك فى موقف خاص فى غزوة أحد لما خالف الرماة عن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وزلزل المؤمنون وأشيع أن النبى الكريم قتل ، والأسلوب جزل عنيف شديد الايقاع كثرت فيه الدال واللام والتاء مما صبغ التراكيب صبغة ايقاعية قوية راجفة ، وهذا يوائم موقف التخاذل تربية وتصحيحا للعقيدة ووضعا للنبى الكريم فى موضعه البشرى الصحيح فى الاسلام من أنه بشر يموت كالبشر وامتيازه بمهمة الرسالة الالهية « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » فقد نزل المؤمنون حين استعظموا موته وبلغت القلوب الحناجر منزلة من يعتقد أن رسول الله يجمع بين صفتى الرسالة والخلود فقصر عليه السلام على الرسالة وحدها . وعلى هذا تكون الجملة « قد خلت .. » صفة مؤكدة لمعنى القصر متأخرة عنه فى التقدير ، وذهب العلامة الطيبى وجماعة أخذا عن تأويل الزمخشرى الى أنه قصر قلب لانصباب القصر على الصفة (قد خلت) كأن المؤمنين اعتقدوا أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم حكما مخالفا للرسل فى وجوب اتباع دينهم بعد موتهم ، فقلب الحكم ، كأنه قيل : قد خلت من قبله الرسل أمثاله فسيخلو كما خلت ، وثم رأى ثالث : هو أن المقصور عليه « رسول » كالأول واكنه قصر قلب أى رسول لا اله وأكدت الصفة (قد خلت) معنى القصر ورجح أبو السعود هذا الرأى واقتصر

---

(٥٢) راجع الطبرى ١٥١/٣٠ ، والنيسابورى ٨١/٣٠ .
(٥٣) آل عمران ١٤٤ .

عليه السيوطى (٥٤) وتبدو قوته لأن موقف المؤمنين فى انهيارهم نشأ عن شائعة الموت ومن أجله سيق الأسلوب أى الا بشر رسول يموت كما مات اسلافه وليس الها باقيا ٠

وقد اشترطوا فى قصر الموصوف على الصفة افرادا : عدم تنافى الوصفين ليتأتى الاشتراك فيهما ٠٠ ومن قصر الصفة على الموصوف قوله تعالى : « انما حرم عليكم الميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ٠٠ الآية » (٥٥) ٠

والآية من خطاب المؤمنين كما ذكر الطبرى وليس ردا على المشركين كما أجاز الشهاب والألوسى اذ التحليل والتحريم من التشريع (٥٦) والتكليف فرع الايمان المتحقق فى المؤمنين ولما كانت هذه الأمور غير محرمة فى الجاهلية والأصل فى الاشياء الحل قصر صفة التحريم على هذه الأشياء دون سواها ٠ قصر افراد ٠

---

(٥٤) راجع الآية فى : الكشاف ١/٤٦٨ والمفتاح ٢٨٩ والايضاح ٢/٩ وأبى السعود ٢/٩٢ والشهاب ٣/٨٦ والاتقان ٢/٤٩ والألوسى ٤/٧٣ ٠

(٥٥) الآية ١٧٣ البقرة ٠

(٥٦) راجع الطبرى ١/٥٠ والشهاب ٢/٢٨٦ والألوسى ٢/٤٣ ٠

طرق القصر

وهى الوسائل التى تحدث فى الأسلوب هذه الخصوصية من تركيز جملتين فى جملة احدى الجملتين مثبته والأخرى منفية، وأشهر هذه الطرق الاصطلاحية :

النفى والاستثناء ــ انما ــ التقديم ــ العطف ببل ولا ولكن ، ومنها : ضمير الفصل وتعريف الطرفين ، وقد أوصلها السيوطى (١) الى أربعة عشر طريقا لكنها لا تفيد القصر دائما كالنفى والاستثناء .

وقد يدل الأسلوب ، وطريقة بنائه وما يكتنفه من قرائن على القصر، وهو قصر غير اصطلاحى كقوله تعالى من سورة يس « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » (٢) ومعنى : مما عملت أيدينا : ما تولينا نحن احداثه ولم يقدر على تولية احداثه أحد غيرنا (٣) فكلمة : أيدينا ودلالة المقام أفاد المبالغة فى الاختصاص وقد جاء هذا التركيب فى ذات السورة بعد آية احياء الأرض « وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره، وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » (٤) فقوله « وما عملته أيديهم » جاء على طريق النفى وهو دال على القصر كما أن التركيب فى حال الاثبات دال على القصر أيضا فى آية خلق الأنعام ، ومن المعروف فى الاستعمال أن يقال : « هذا شىء عملته بيدى » أى لا مدخل لغيرى فيه لا خلقا ولا كسبا (٥) ومن غير الاصطلاحى : قوله تعالى بعد قصة مريم « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » (٦) وقد تكرر فى القرآن

---

(١) راجع الاتقان ٢/٥١ (٢) ٧٢ .
(٣) راجع الكشاف ٣/٣٣٠ والشهاب ٧/٢٥٢ .
(٤) آية ٣٥ (٥) راجع الشهاب ٧/٢٥٢ .
(٦) مريم ٢٤

وصف عيسى عليه السلام بأنه ابن مريم خمس عشرة مرة (٧) فهو عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى واليهود من أنه ابن الله أو لغير رشده (٧) وهو تكذيب لهم على الوجه الأبلغ والمنهج البرهانى ، حيث جعل موصوفا بأضداد ما يصفونه ، فالحصر مفاد من فحوى الكلام ، وحكى الشهاب قولا ضعفه هو أن الحصر هنا مفاد من تعريف الطرفين بناء على ما ذكره الكرمانى فى شرح النجارى من أن تعريف الطرفين مطلقا يفيد القصر ، أو بناء على أن عيسى بن مريم مؤول به اذ تأويله المسمى به (٩) والأول أرجح وأصوب لعدم اشتهار ما قال الكرمانى عند العلماء . وقال تعالى « والى ثمود أخاهم صالحا ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » (١٠) فقد ذكر الشهاب أن الحصر مفاد من السياق لأنه عليه السلام لما حصر الالهية فيه سبحانه اقتضى حصر الخالقية فيه وهذا مصادرة والغاء لما تعارف فيه كثير من الأئمة من أن القصر يفاد من تقديم الفاعل المعنوى « هو » نحو « أنا قضيت حاجتك نص على مثل ذلك عبد القاهر والزمخشرى وشراح التلخيص وغيرهم وقال الزمخشرى فى تأويل الآية « لم ينشئكم الا هو ولم يستعمركم فيها غيره » (١١) .

وقال تعالى « وتوكل على الحى الذى لا يموت » (١٢) وصف نفسه بالمعنى الذى يختص به تعالى والوصف الذى يقتضى التوكل عليه ، والثقة به سبحانه (١٣) وأصله عند الشهاب « وتوكل على الله »

---

(٧) المعجم المفهرس ٤٩٥ .
(٨) البحر ٦/٢٨٩ .
(٩) راجع الكشاف ٢/٥١٧ وأبا السعود ٥/٢٦٤ والشهاب ٦/١٥٦ نقلا عن أبى السعود . والألوسى ١٦/٩٠ .
(١٠) هود ٦١ .
(١١) راجع الدلائل ٩٤ والكشاف ٢/٢٧٨ وأبا السعود ٤/٢٢٠ والشهاب ٥/١١٠ والاتقان ٣/٥١ .
(١٢) الفرقان ٥٨ .
(١٣) راجع البحر ٦/٥٠٨ .

فلما عدل عنه الى ما ذكر دل بفحواه أن من ليس كذلك لا يصح التوكل عليه، سواء كان غير حي كالأصنام ، أم حيا يموت كمن عبد من دون الله • (١٤) •

ضمير الفصل

وقد آثرناه ببعض التحليل لوجود آيات فى نسق مشابه فى بعضها ضمير الفصل دون الأخرى ثم رأينا احكاما ـ فى هذا الصدد ـ ينبغى مراجعتها • نسبت الى بعض العلماء •

وشرط ضمير الفصل أن يقع بين المبتدأ والخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر وقد أجاز السهيلى والجرجانى والزمخشرى والبيضاوى أن يجىء ضمير الفصل اذا كان الخبر مضارعا أو اسم فاعل مثله ، كما ذكر له العلماء ثلاث فوائد : تأكيد المسند اليه ، والاختصاص وبيان أن المسند خبر لا صفة ، يعنون أنه يفيد التأكيد اذا لم يفد الاختصاص (١٥) • فان أفيد القصر بطريق آخر كأن يكون الخبر معرفا بأل دل ضمير الفصل على تأكيد الحصر سواء كان من قصر المسند على المسند اليه نحو « ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » أو العكس نحو : الكرم هو التقوى أى لا كرم الا التقوى • اذ لا معنى لقصر التقوى على الكرم (١٦) وهذا رأى عبد الحكيم بينما قال السيد فى حاشية على الكشاف « ان كلام الزمخشري فى الفائق يدل على أن تعريف المسند يفيد حصر المسند اليه فيه حيث قال : « معنى أن الله تعالى هو الدهر » : هو الجالب للحوادث لا غير الجالب » ولا يخفى عليك ضعفه لأن تعريف ...الخبر بلام الجنس يفيد حصره فى المبتدأ كما هو مذكور فى المفتاح والمشهور فى

---

(١٤) راجع الشهاب ٦/٤٣٣ •
(١٥) راجع حاشية السبوقي ١/٢٨٦ والشهاب ٥/٢٢١ •
(١٦) حاشية عبد الحكيم ١٨٠ •

الاستعمال » (١٧) والتحقيق أن ذلك غالب والحكم فيه السياق كما ذكر عبد الحكيم وقال تعالى مبينا جزاء المؤمنين ، اثر تعداد صفاتهم الجليلة أول سورة البقرة : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » (١٨) وفى صياغة الاسلوب دلالة على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد بطرق شتى : تكرار اسم الاشارة وكونه للبعيد تكريما • وتعريف « المفلحون » وتوسيط ضمير الفصل لأنه محل توكيد دفعا لمن يتشكك فى الاسناد أو يتوهم التشريك وقد اتفقت الكلمة على ذلك (١٩) ثم جاءت آيات لوصف المنافقين بعد الكافرين فقال تعالى « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » (٢٠) •

والفساد فى الأرض هو الكفر والمعصية — كما يرى الطبرى •أى لا تفعلوا ما يؤدى الى الفساد ، وواضح من كلامه أنه قصر قلب وعليه بعض العلماء (٢١) •

ويرى الزمخشرى وتابعه أبو السعود وسيد شريف والشهاب أنه قصر افراد ، فالمنافقون توهموا بأنه حكم عليهم أنهم خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، فبينوا أن صفة الصلاح محضت من غير شائبة قادحة فيها (٢٢) فرد القرآن عليهم « ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » وقد تكاثرت أدوات التأكيد فى تركيز شديد يقذف بهذه

---

(١٧) راجع حاشية السيد على الكشاف ١/١٨٩ •

(١٨) آية ٥

(١٩) راجع الكشاف بحاشية السيد ١/١٣٦ وتبعه الرازى ١/١٧٠ وأبو حيان ١/٤٤ ، والنيسابورى ١/١٥٤ •

(٢٠) البقرة ١١ — ١٢ •

(٢١) راجع الطبرى ١/٩٩ •

(٢٢) راجع الكشاف والسيد ١/١٨٠ وأبا السعود ١/٤٤ والشهاب ١/٣٣٠ •

الحقيقة فى وجوههم ـ كما هو متعالم ـ فكان الحكم فى صورة الاسمية المفيدة للثبوت والدوام ، وتعريف الطرفين المفيد للقصر ، وتوسط ضمير الفصل المؤكد لهذا الحصر وصدر الكلام بحرف التنبيه الدال على خطر ما بعده ، وذيل بالاستدراك الدال على التقريع والتوبيخ فهم من جملة الموتى الذين لا شعور لهم ، والا لأدركوا أن فسادهم ظهر ظهور المحسوس .

والقصر هنا من قصر الافساد عليهم ، أى هم لا غيرهم المفسدون وهو انتقال بالكلام من الجدال فى الصفة الى تعيين الموصوف بعد اثبات الصفة ترقيا فى الذم ، وكناية عن أنه لا فساد فى الأرض الا منهم وقد جعله فى الكشاف قصر قلب ورد عليه السيد فى حاشيته ثم أوما الى ما ذكره ابن يعقوب من أن الفصل هنا لتأكيد النسبة أيضا ، ولما كان المنافقون لا يتعدون حقيقة الفساد بمعنى أن المسند هنا متحد بالمسند اليه بدلالة القرينة فالمنافقون هم هم المفسدون ، يمكن أن يكون الفصل مؤكدا لنسبة الاتحاد وهو أقوى من القصر فى افادة المقصود (٢٣) .

ومثل الآيتين السابقتين كثير ، فقد جاء فى عديد من الآيات تعقيبا على صفات عاليه للمؤمنين أو سمات نازلة للكافرين من تأكيد المتقابلات .

من مثل قوله تعالى « أولئك هم الصادقون (٢٤) ، أولئك هم المؤمنون حقا (٢٥) ، أولئك هم الوارثون »(٢٦) وفى المقابل جاء نحو قوله تعالى « أولئك هم الخاسرون ، (٢٧) الذين كذبوا شعيبا كانوا هم

---

(٢٣) راجع مواهب الفتاح ٢/٢٢٠ وحاشية الدسوقى ٢/٣٢١ والمراجع قبله .

(٢٤) الحشر ٨ .

(٢٥) الأنفال ٤

(٢٦) المؤمنون ١٠ .

(٢٧) البقرة ٢٧

الخاسرين (٢٨) ، لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » ..(٢٩)
بقصر ما بعد الضمير من وصف على المسند اليه مدحا أو قدحا .

وقد يتوقف العلماء عند بعض الأساليب التى تشبه ما تقدم .

قال الله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » (٣٠) .

وقال فى سورة هود « الذين يصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون » (٣١) .

وفى مثل هذه الأساليب التى لم يعرف فيها الخبر يرى أبو حيان أن التقديم هنا لمجرد الاهتمام والضمير « هم » لمجرد التأكيد (٣٢) .

ويرى بعض العلماء ممن لم يشترط تعريف الخبر ــ لافادة القصر ــ مع ضمير الفصل كالزمخشرى والكرمانى وأبى السعود أن فى الآية قصرا واحدا بضمير الفصل أما تقديم « الآخرة » فللمبالغة مدحا للموقنين وذما للمنكرين ويرى سيد شريف والشهاب فيما نقل ان فى الأسلوب قصرين : قصر الكفر عليهم دون غيرهم ثم قصر كفرهم على الآخرة : ولعل مرادهم قصر كفرهم على حقيقة الآخرة لا يتعداها الى خلاف حقيقتها ، وفى آية المؤمنين كما حقق سيد شريف اختصاص الايمان بالآخرة وقصر ذلك عليهم دون غيرهم كأهل الكتاب تعريضا بأن ما عليه أهل الكتاب ليس من حقيقة الآخرة فى شىء .

والأوضح هو الرأى الثانى فهو معتدل غير مغرق فى التكلف (٣٣)

---

(٢٨) الأعراف ٩٢ .
(٢٩) هود ٢٢ (٣٠) البقرة ٤ .
(٣١) هود ١٩ (٣٢) البحر ٥/٣٠٩ .
(٣٣) راجع فى الآيتين الكشاف والسيد ١/١٣٧ وأبا السعود ٤/٢٧٧ والشهاب ٥/١٧٨ والكرمانى ٨١ .

قال الله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة اذا تمنى وأن عليه النشاة الأخرى » (٣٤) .

نقل السبكى عن السهيلى أن ضمير الفصل أتى فى كل موضـــع ادعى فيه نسبة ذلك المعنى الى غير الله تعالى . ولـــم يؤت به حيث لم يدع . وقد نازعه فى ذلك بأن : الاحياء خلق ، والخلق لم ينسبه أحـد لغير الله تعالى ، واذا كان النمروذ قد نسب الاحياء والاماته لنفسه فقد جاء قوله « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ولم يؤكده بالفصـــل مع أنه منه (٣٥) .

والواقع أن قوله ان النمروذ نازع فى نسبة الحياة والموت صحيح يؤكد ما ذهب اليه العلماء ، أما قوله ان الاحياء خلق والخلق احيـاء فقول واهم تنقصه الدقة . لأن لكل فعل دلالة خاصة ، فالخلق معناه : التقدير المستقيم ويستعمل فى ابداع الشىء من غير أصل ولا احتـذاء كقوله تعالى : خلق السموات والأرض » وفى ايجاد شىء من شىء كقوله خلقكم من نفس واحدة ــ كما ذكر الراغب (٣٦) .

فالخلق عام ، أما الاحياء فهو بث قوة الحياة فى معدوم ، والاحياء والاماتة أثر لصفتى الله تعالى : المحيى المميت ، ولذا لا يســـتعمل أحدهما أعنى الخلق أو الاحياء . مكان الآخر ، ويؤكد هـــذا قول الزركشى عن آية الخلق : ان ذلك مما لا يتعاطاه أحد لا حقيقة ولا مجازا ولا ادعاء بخلاف الاحياء والاماته فيما حكاه الله تعالى عن نمروذ (٣٧)

---

(٣٤) النجم ٤٣ ــ ٤٦
(٣٥) عروس الأفراح ٢/٣٨٦ .
(٣٦) المفردات ٥٦ .
(٣٧) البرهان ٢/ ٤٥ .

وهو بسط لقول أبى حيان ان الضمير دخل فيما فيه نزاع (٣٨) • ونقل بعض هذا من كتب فى القصر من المؤلفين حديثا •

أما موضع المتشابه فهذه الآية من سورة النجم مع قول الله تعالى على لسان ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام — ثناء على ربه بدء دعائه الضارع من سورة الشعراء « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين » (٣٩) ذكر الاسكافى فى الدرة ، والكرمانى فى الأسرار •

ان اضافة الفعلية الاطعام والشفاء الى الله تعالى محتاجة الى لفظ التوكيد لما يتوهم من تضيفه الى المخلوق ما لا يحتاج اليه اضافة الموت والحياة ، لأن أحدا لا يدعى فعلهما كما كان يدعى الأولين » (٤٠) وقد بسط الامام أبو السعود هذا المعنى بأسلوب رصين (٤١) ما معنى هذا الكلام ؟ وكيف تتناقض الآراء فى ذكر الضمير وعدم ذكره ؟

يبدو أن للسياق دخلا كبيرا ذلك أن آيات النجم تعبر عن حقائق الهية مطلقة تنتظم البشرية كلها جاءت فى صحف ابراهيم وموسى

فالاضحاك والابكاء معبران عن السعادة والتعاسة أو ان الفرح والترح بيد الله ، والاماتة والاحياء سواء تواردا على محل واحد أو أكثر فهو فعل الله أبدا فى الحياة والأحياء لكن المستغنى المستكثر من البشر حين يطغى ، يتوهم أنه قادر على الاشقاء والاسعاد والتحكم فى الاعمار كنمروذ وفرعون فى الماضى كنماذج كافرة فى كل زمان ، وقد جاء ضمير الفصل فى آية النجم رفعا لهذا الوهم الضال وتقريرا لصفات الله تعالى وبثا للثقة فى القلوب المؤمنة •

---

(٣٨) البحر ٤٤/٨ •
(٣٩) الآيات ٧٨ — ٨١ •
(٤٠) درة التنزيل ٣٣٢ وأسرار التكرار للكرمانى ١٥٥ •
(٤١) تفسيره : ٢٤٩/٦ •

أما آيات الشعرا فكانت مقاولة بين ابراهيم الخليل وبين قومه ، وقد نعلم ان أباه دعاه الى دينه في محاورة لهما في سورة مريم ، وان قومه قد يرون من الأسباب الظاهرة من يطعمه ويسقيه ، ويقدم الدواء ان مرض ، ولانكارهم مسبب الأسباب قد ينازعون في نسبة ذلك على الحقيقة الى رب العالمين . فناسب أن ينزع ابراهيم هذا الوهم .

وقوله : الذي يميتني ثم يحيين يعني البعث بعد الموت ، فقد سبق مباشرة انخراطه عليه السلام في دعاء خاشع بين فيه قومه على حقيقتهم مخلوقات عاجزة جاهلة ضعيفة ، فالحقيقة الكبرى ذكرها دون تأكيد بضمير الفصل أو غيره ، وصفا ليقينه وقوة ايمانه ، فالحال هنا خاصة جدا بأبي الأنبياء ، أما قصره عليه السلام الاحياء والاماتة على ربه في قوله « ربي الذي يحيي ويميت » فقد كان في مقام الحجاج لنمروذ الذي حاجه ابراهيم في قومه أن آتاه الله الملك .

فقول السهيلي والاسكافي والكرماني عن الحياة والموت في آية الشعراء لأن أحدا لا يدعي فعلهما ليس على اطلاقه ، بل هو مقيد حسب السياق والمقام والا ما جاء الفصل في آيات النجم ثم الاحياء ليس خاصا بالاحياء في الدنيا مما هو منظور كل آن بل هو الاحياء بعد الموت أعني البعث ، وهو أمر أنكره كفار كل دين ، ولذا تغيرت صيغة الأسلوب الخاصة به في سورة النجم « وأن عليه النشأة الأخرى » قصرا بالتقديم ودلالة الحرف «على» تحتم وقوعه ، فلم يبق — والله أعلم — الا أن يقال ان آيات الشعراء خاص بابراهيم ووصف احساسه ، وصدق ايمانه مع اهمال قومه بل ان الأسلوب ألغاهم تماما فاندفع أبو الأنبياء في دعائه الوجل « ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » فهي حقائق كبرى تنتظم على لسانه ، فوق الزمان والمكان ولذا التأم به وصف المشاهد الاخروية بالعطف عليه دون فصل أسلوبي « وأزلفت الجنة للمتقين » الآيات ..

واذا فقول السهيلى رحمه الله : ان الضمير يؤتى به فى كل موضع يدعى فيه نسبته الى غير الله ، ينبغى أن يحرر فيقال : فى كل موضع وصف الله فيه بوصف يدعى نسبته الى غيره تعالى ولو أطلق كالعلماء لكان أدق .

ومن الآيات المتشابهة جاء قول الله تعالى فى سورة الحج : ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير (٤٢) وفى لقمان « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير » (٤٣) فى عقد موانة بين الحق ذى الآيات الجليلة وبين الباطل الحائل ، وقد جاء ضمير الفصل فى آية الحج اذ تقدم فى النسق ذكر الله تعالى ثم ذكر الشيطان ووقعت الآية بين عشر آيات كلها مؤكدة كما أن الأسلوب أقسى وأعنف بالمشركين ، فضمير الفصل هنا يرد على من يشركون مع الله سواه اتباعا للشيطان وتلاؤما مع نسج السياق أما آية لقمان فلم يتقدم فيها ذكر الشيطان فأكثر من ذكر الله وآياته وكان فيه غنى عن ذكر ضمير الفصل اذ الفكرة وهى بطلان الشركاء واضحة وسط النسق المتلائم واكتفى بما جاء فى الآية من تأكيد (٤٤) .

ومن المتشابه أيضا : ما جاء فى قصة عيسى بن مريم على لسانه عليه السلام فى آل عمران « ان الله ربى وربكم فاعبدوه » (٤٥) وفى سورة مريم « ان الله ربى وربكم فاعبدوه » (٤٦) بينما جاء فى سورة الزخرف : « ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه » (٤٧) .

---

(٤٢) الآية ٦٢ (٤٣) الآية ٣٠ .

(٤٤) راجع الاسكافى ٣١٢ والكرمانى ١٤٧ .

(٤٥) الآية ٥١ (٤٦) الآية ٣٦ .

(٤٧) الآية ٦٤ .

قال الكرمانى : ان الذى فى آل عمران وقع بعد عشر آيات من قصة مريم وفى سورة مريم أكثر من ذلك وليس كذلك ما فى الزخرف فانه ابتداء كلام منه فحسن التأكيد بقوله هو بجعل المبتدأ مقصورا على الخبر وهى اثبات الربوبية لله ونفى الأبوة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » (٤٨) .

ويقصد رحمه الله بابتداء كلام انه جاء فى سياق رد فيه القرآن على مشركى مكة حين ضربه ابن الزبعرى مثلا مجادلا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى الآية « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » فبين القرآن بحسم أن عيسى عبد أنعم الله عليه (٤٩)، ثم ذكر طرفا يسيرا من قصة عيسى هى زبدة الخلاف وهى دعوة عيسى قومه الى التوحيد بالله ربهم جميعا ، فلم تأت الآيات مكملة لقصة مريم كما فى آل عمران ، ومريم ، أما قوله انه من قصر المبتدأ على الخبر فيبدو أنه خطأ فى النسخ اذ هو من قصر الخبر على المبتدأ بقصر ربى وربكم ذى الآلاء التى لا تحصى وهى الربوبية على الله وحده دون سواه ، افادة لوحدة الألوهية والربوبية ، ويرشح هذا عطف ربكم على ربى أى ربنا جميعا ، ونفى ما رمى به عيسى من النبوة انما هو من عرض الكلام أو كناية عنه .

ضمير الفصل وتعبير « الفوز العظيم » :

جاء التعبير القرآنى « وذلك هو الفوز العظيم » بالواو وبدونها وبضمير الفصل وبدونه فى دقة متناهية متلائمة مع السياق ، وقد جاء التعبير تذييلا مقررا رحمة الله تعالى للمؤمنين بدخولهم الجنة ، وقد تعدد الآيات بعضا من مظاهر نعيمها كما جاء فى آية واحدة تعقيبا على

---

(٤٨) راجع درة التنزيل ٦٨ وأسرار الكرمانى ٤٩ .
(٤٩) راجع الكشاف ٣/٤٩٣

اشتراء الله ارواح المؤمنين بأن لهم الجنة ثم قد جاء التركيب مؤكدا بضمير الفصل فى ست آيات فقط وقد لاحظنا :

أولا : ضمير الفصل جاء فى تركيبه تعقيبا على جزاء راق لنبوع متميز خاص من المؤمنين كما في الشهداء الذين اشترى الله أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فى آية التوبة (٥٠) .

وأولياء الله أصحاب البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فى سورة يونس (٥١) .

كما جاء تذييلا اصفات عالية للمؤمنين والمؤمنات تقابلا مع المنافقين والمنافقات الذين أعد لهم جزاء رهيب « جهنم خالدين فيها أبدا هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ولذا كان من التلازم ذكر هذا الجزاء الخاص المؤمنين المخصوصين : « جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » من سورة التوبة (٥٢) .

وقريب منها آية الحديد فى المؤمنين والمؤمنات الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (٥٣) .

وفى الصافات : تعقيبا على جزاء عباد الله المخلصين (٥٤) وكان للاخلاص أثره فى الجزاء وفى تضاعف التأكيد على السواء « ان هذا لهو الفوز العظيم » .

كما جاء على لسان الملائكة فى دعاء طاهر للمؤمنين أن يقيهم الله السيئات ويدخلهم جنات عدن « ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم (٥٥) .

---

(٥٠) الآية ١١١ (٥١) الآية ٦٤ .

(٥٢) الآية ٧٢ (٥٣) الآية ١٢

(٥٤) الآية ٦٠ (٥٥) الآية ٩

والتلازم واضح بين هذه الآية وآية التوبة فى ذكر جنات عدن والتذييل بذات التعبير .

وقد عقد الاسكافى وتبعه الكرمانى موازنة بين آية فى التوبة : « خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » (٥٦) وآية الحديد « خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » .

وقال : لم يذكر أبدا بعد خالدين فى سورة الحديد حتى لا يطول الكلام فذكر بدلا منه « هو » .

ولما ذكر فى التوبة « أبدا ، لم يذكر الضمير » . والواقع أن «أبدا» لم تذكر الا مرتين فى آية التوبة ، وآية التغابن « ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم » (٥٧) .

وقوله ان ذكر « هو » عوضا عن ذكر « أبدا » بعد خالدين حتى لا يطول الكلام : غير دقيق وغير مطرد فقد جاء فى الآية ٨٩ من سورة التوبة « أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم » وهى فى الرسول والذين آمنوا معه . فجاء فيها «خالدين» ولم تأت «أبدا» ولم يذكر الضمير على أن تعليله شكلى لا يصلح تفسيرا لهذه الظاهرة أعنى وجود الضمير أو عدم وجوده ، والحق ، أن ذكر الضمير انما هو فى جزاء خاص لنوع خاص من المؤمنين .

أما سورة التوبة فلها وضع خاص معجز ذلك أن هذا التعبير جاء فى أربعة مواطن فى الآيات ٧٢ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١١١ جاء ضمير الفصل فيها فى آيتين الأولى ٧٢ والرابعة أعنى البدء والختام ، والمثير أن

---

(٥٦) الدرة ١٠٣ والأسرار ٩٩

(٥٧) الآية ٩ .

المؤمنين فى الآية الأولى الذين جاء فى مقابلهم أعنى المنافقين : والذين وعدهم الله الجنة ورضوانه الأكبر هم هم المذكـــورون فى الآية ٧٩ « الرسول والذين آمنوا معه » وهم جمع المهاجرين والأنصـــار وهم أيضا فى الآية ١٠٠ السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وهم هم أخيرا فى اية الخاتمة ١١١ أصحاب بيعة الرضوان « فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » فذكر الضمير فى الآية الأولى لأنه البدء ولم يذكر فى الآيتين بعد اكتفاء ، وجاء به أخيرا لطـــول السياقات كأنه من تأكيد البدء والختام وهذا من التلاؤم والوحـــدة المعجزة ، والملاحظ اتحاد المسند والمسند اليه وتأكيد ضمير الفصـــل لهذا الاتحاد أو للقصر بتعريف الطرفين ووصفه آخـــرا بالعظيـــم فى التعبير ذلك هو الفوز العظيم تناسبا بين حقيقة الجزاء ووصفه •

صـــفات الله تعالى :

يغلب فى القرآن أن تختتم الآيات بذكر بعض أسماء الله تعـــالى تذييلا ملائما للآية قبله وهو يجمع بين التذييل ومراعاة النظير وقـــد يسمى تناسب الأطراف (٥٨) •

وأسراره عديدة تحتاج بحثا عميقا عن العلاقة البلاغية بين التذييل وما يسبقه كأن يكون هذا السابق أثرا من آثار الصفات اللاحقة : كقوله تعـــالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصـــار وهو اللطيف الخبـــير » (٥٩) •

وقوله : له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهـــو على كل شىء قدير (٦٠) الى غير ذلك من مواطنه وأسراره ، وقد يجىء ضمير الفصل فى هذه التذييلات اذا اقتضى المقام بمعنى أن يكون مقاما خاصا

---

(٥٨) راجع أنوار الربيع ١٩٥/٤ •

(٥٩) الأنعام ١٠٣ (٦٠) الحديد ٢ •

تتجلى فيه الصفة الالهية قوية فائقة كل تصور ، ففى مقامات الرحمة تجد روحا وسلاما ونسمات من حنان ترعش الوجدان كقوله تعالى :

قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم (٦١) .

وقد تداخل الرحمـــة هول الانتقام فيصيب الهول الأكبر أهله وتنسكب الرحمة على ذويها فى ذات الزمان والمكان عزة العزيز وحكمة المقتدر : فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ان ربك هو القوى العزيز » (٦٢) وقال عيسى فى تبرئه من الحول والطول « أن تعذبهم فانهم عبـادك وان تغفر لهم فأنك أنت العزيز الحكيم » (٦٣) فهو غفران لمن عصى لا يملكه ولا يقدر عليـه سواه فالضمير هنا كما فى سابقيه تأكيد للقصر مناسبة للمقام .

النفى والاستثناء

والنفى أولا ــ متنوع كثير الدلالات ، لكل أداة جرسها الخاص، ودلالتها المعينة المناسبة للتركيب ، فلا يجوز أن تحل أداة محل أخرى، بلاغة ، حتى وان تشابها دلالة .

فهناك : «ان» النافية : بجرسها الخاطف ومقطعها المغلق ، تختلف عن « ما » بفتحها الطويلة واذا كانت ما : تفيد التوكيد لأنها : تجـاب بقد ، يقال : ما زيد فعل فى جواب قد فعل ــ كما نص سيبويه ــ فان «ان» أكثر توكيدا لشبهها بان المخففة من الثقيلة ، ولهـذا تأتى فى المقامات التى هى أكثر توترا وأعلى حرارة ، تلك التى تستدعى مزيدا من الوثاقة والتركيز ، سواء دخلت مع الجملة الاسمية نحو : ان أنت

---

(٦١) الآية ٥٣ الزمر (٦٢) هود ٦٦ .
(٦٣) المائدة ١١٨ .

الا نذير ، أو الماضوية «نحو» ان أردنا الا الحسنى ، أو المضارعية نحو « ان يتبعون الا الظن » فدلالتها حالية كأنها توحى بالثبات والجزم ، وبأن مدخولها محقق واقعا ، أو بشيء من المبالغة والدعوى كما فى أقوال المعاندين .

وهذا التنوع — كما قلت — خاضع لقاعدة دقيقة فى التعبير ، وتصوير المقامات الملائمة مع السياقات صياغة ، وزمنا ، وحالا ، ولبقاعها .

تأمل حين يتوالى قصران أو أكثر ، بحيث يكون الثانى مؤكدا لمضمون الأول ستجد فى توالييهما ما يسمى بتصعيد المعانى وهو ما أطلق عليه علماؤنا « الترقى فى الترتيب » (٦٤) وهو التدرج فى التأكيد وصولا الى الغاية المناسبة اقتصادا فى التأثير وبلاغة فى سياسة النفوس .

وفى أحيان كثيرة يأتى الأسلوبان بان والا فى الأول ، أو ما والا ، وفى الثانى ان والا ، أو فى الاثنين بان والا : قال تعالى « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا الا افك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين » (٦٥) فقد تدرج انفعالهم اللاهث من سخرية وتهكم بالداعى عليه الصلاة والسلام الى تأكيد افتراء المتلو وهو القرآن العظيم ، حاشاه ، ثم بلغ غضبهم حده فرموا بمقولتهم حارة دافقة متلمظة « ان هذا الا سحر مبين » .

وقال أصحاب القرية لرسل عيسى عليهم السلام « قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون » (٦٦)

---

(٦٤) انظر الانتصاف على الكشاف ٤٢/١ وهناك لون من الترتيب النازل أعنى بترتيب الجمل أو الصفات من الأعلى للأدنى .

(٦٥) سبأ ٤٣ (٦٦) يس ١٥ .

فالجملتان الأوليان مقدمة زائفة لهذه النتيجة ــ فى زعمهم ــ ترقيا فى التأكيد وتصويرا لتدافع الانفعال •

وفى دعوة يوسف عليه السلام صاحبى السجن الى عبادة الله وحده، وهى دعوة ذكية اعتمدت الأسلوبين الخطابى والبرهانى أسلوبا نفسيا نبويا مدعوما بالمعجزة يقول فيها : « ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان الحكم الا الله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم » (٦٧) •

أربعة أساليب متلاحقة بدأت بما والا مؤكدا أن الأصنام تلك أسماء وهمية لا مسمى لها فى دنيا الواقع ، لم يأذن بها الله كناية مصورة عن وضوح بطلانها وخرق عبادها ، ثم أكد ذلك بهذا المقابل الجليل « ان الحكم الا لله » والثالث بالنهى والاستثناء دافعا بالأسلوب والقضية الى غايته وهدفه الحق « ألا تعبدوا الا اياه » وجاء الرابع تأكيدا لذلك « ذلك الدين القيم » بتعريف الطرفين واتحادهما مدلولا ، تدرجا الى تقرير دين التوحيد وهو الدين القيم •

وفى الترقى انفعالا وتأكيدا جاء قول النسوة لما رأين يوسف وأكبرنه وقطعن أيديهن : « حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم » (٦٨) والجملة الثانية ــ عند الامام عبد القاهر ــ مداخلة للجملة الأولى من ثلاثة أوجه : وجهان شبيهان بالتأكيد وهما أنه اذا كان ملكا فهو على التحقيق لا يكون بشرا فانيا ، وثانيا أن الحال اذا كان للتعظيم والتعجب من فرط جمال وحسن يراه الانسان اذا قيل ما هذا بشرا أن يكون الغرض أنه ملك فهو تأكيد لأنه تحقيق لما فهم قبل •

---

(٦٧) يوسف ٤٠ (٦٨) يوسف ٣١ •

والوجه الثالث شبيه بالصفة فهـو انه اذا نفى الجنس أثبت له جنس آخر ، فاثبات انه ملك تبيين وتعيين لذلك الجنس وهو مبنى على سؤال مقدر ويعنى شبه كمال الاتصال (٦٩) .

ونضيف هنا : أن هذا الترقى بالقصر تأكيدا ونعتا ، ما هـو الا تصوير لانبهار النسوة وسحرهن من حسن قاهر غلاب فى لحظة دهش غطى فيها الانفعال والأخذ وكل رسل الوجدان على العقل الذاهل ولذا سارعت الألسن فى لحن جماعى وجدانى مأخوذ ليس للعقل فيه نصيب وذاك يجعل اثبات الملكية انما هو على سبيل التحقيق انفعالا لا التشبيه الذى يكون للعقل واليقظة فيه أثر ، وهنا صياغة القلب الأنثوى المحترق الدائر فى دوامة الكيد بعيدا عن قدس الايمان . كمـا أن الأسلوب اذا بدى بالأقوى « بان والا » جاء الأسلوب الثانى مثله وهذا اذا كانت الجهة واحدة أو الغرض الخاص واحدا بدلالة المقام كقوله تعالى : « ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله » (٧٠)

ومعنى يدعون : يعبدون ، وعبادة الشيطان هى طـاعتهم له فى وسوسته واغرائه على عبادة الأصنام — على التأويل — فلا ينـافى الحصر الأول . وقيل يدعون : يطيعون : قال هنا الألوسى : « فـلا منافاة » والأخير واه ، اذ ليس من دلالة دعا فى القرآن : الطـاعة بل : النداء ، أو التسمية أو العبادة أو الابتهال ، والطاعة جزء من الدعـاء بمعنى العبادة وهذا أبعد تأويلا من الأول (٧١) .

وقال تعالى عن الوليد بن المغيرة وموقفه من القرآن « ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر » قال الخطابى : عنادا للحق وجهلا به ، وذهابا عن الحجة ، وانقطاعا دونها » (٧٢) .

---

(٦٩) الدلائل بتصرف ١٥٤ وانظر أبا السعود ٢٧٢/٤ .
(٧٠) النساء ١١٧ (٧١) انظر الألوسى ١٤٩/٥ .
(٧٢) بيان القرآن ٢٨

والمعجب هنا هذا التلاؤم الخارق فى تصوير النفس المضطربة الحائرة اذ أى علاقة فى وصف التنزيل بأنه سحر فيه استهواء وتأثير خفى الأسباب ، وبين أنه قول مصنوع على لسان بشر انه تعليل مرتبك مريض مهوش مردود يلطم وجه صاحبه .

ومن المثير حقا أن يكون رد الوايد على القرآن فيه من الانهزام والتخاذل والتناقض ما به يكون ابطالا لذات رده ، وسخرية من عزمه وعقله وتعجب يود الوليد أن يكون فى قوله حكيما هامزا فيصير بما قال أكثر الناس خرقا وبلاهة وهزأة .

قال الشهاب : هو تأكيد ولذا لم يعطف (٧٣) وقد بينا وجه التأكيد فيه .

ثم انه جاءت أساليب فيها قصران والثانى بما والا ، وهذا حين تكون الجهة منفكة أو الغرض الخاص للجملة ليس فى اتجاه الجملة الأولى وان دارا فى فلك واحد كقوله تعالى « وان من شىء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم » (٧٤) والأول يفيد أن كل المقدورات المندرجة تحت قدرته تعالى الشاملة انما هو فى غيب مكنون ، والثانى: أن واحدا منها لا يظهر الا بالارادة والحكمة العالية فالأول فى صفة القدرة وعلم الغيب والثانى فى الارادة والحكمة ، وجاءت ان والا فى الغيب لخطورة هذه القضية — كما سيأتى — وادعاء بعض البشر كشف شىء من الغيوب (٧٥) .

وقال المصرى لموسى عليه السلام : وقد أراد أن يبطش به « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، ان تريد الا أن تكون جبارا فى الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين »(٧٦) .

---

(٧٣) راجع الشهاب ٣٠٧/٨ .

(٧٤) الحجر ٢١ (٧٥) راجع أبا السعود ٧٢/٥ .

(٧٦) القصص ١٩ .

وهـذا دال على ذكاء المصرى • فقد أكـد أولا ارادة أن يكون موسى جبارا طاغيا علم الطغيان ، صيحة عاتية متهمة ، تغلب انفعالى موسى عليه السلام ، ثم تراجع الأسلوب ولان ورقت الكلمات ، وتنزلت على داعى الحكمة والذكاء ، فذكر موسى بدعوة اصلاحه ، وغر مبادئه « وما تريد أن تكون من المصلحين » اذ فيه كناية من وجـــوه : نفى الارادة لنفى الاصلاح من باب أولى ونفى أن يكون من جملة المصلحين دون أن تكون مصلحا ، لأنه أدل على ذلك ثم اصـــابة بليغة للهدف وهو التركيز على الاصلاح الذى عاش له موسى ، واذن كان قوله أشـــبه بالمـــاء البارد الذى أفاق به موسى عليه السلام والذى أنهى الموقف تمـــاما•

وهذه آية أخيرة جاءت على لسان الرسول ــ صلى الله عليـــه وسـلم ــ « ان أتبـــع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين » (٧٧) فقد جاءت الجملة الأولى فعلية ، والثانية اسمية تؤكد الثبات مـــع الوصف «مبين» فقد أغنت عن ذكر «ان» بدل «ما» والصفة المنفية فى القصرين تحقيق اقتراحاتهم للآيات الحسية ، وان كان أبو السعود ــ يرى ــ كما مر أنه اذا كان المقصور عليـــه الوحى فى ظاهـــر الأسلوب فان القصر حقيقى والمنفى عام أى ما يقع الا اتباع الوحى دون سواه ، ففيه عموم فى الرد ، وتنزيه للرســول الكريم اذ لا يخطر على باله ولا يقع فى دائرة فكره الا الوحى واتباعه • ثم ان الجملة الثانية بهدوئها النسبى مهدت الاستفهام الداعى الى التفكير وتحكيم داعى العقل فى الآية بعدها « قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شـاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واســتكبرتم » أى ألا يكون هذا شأننا دالا على التجنى ومجانفة الحكمة •

---

(٧٧) الاحقاف ٩

وكذا باقى أدوات النفى لها دلالتها وزمنها وايقاعها الذى يتطلب النظم ، ذلك أن الألفاظ مشاكلة للمعانى التى هى أرواحها يتفرس العاقل فيها — كما قال السهيلى — حقيقة المعنى كما يتعرف الصادق الفراسة صفات الأرواح فى الأجساد (٧٨) .

فلن لتأكيد النفى فى المستقبل القريب ومقطعها المغلق دال على هذا القرب وقصور معنى النفى فيها كقوله تعالى : « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا » (٧٩) اى ان كانت الأخرى قد وجبت وثبتت لكم — وهذا ما يدعونه — فتمنوا الموت الآن ثم قال فى الجواب ولن يتمنوه أبدا ، وأبدا تأتى بعد فعل الحال تقول زيد يصلى أبدا (٨٠) .

وقد تفيد الاستمرار — بالقرينة — كقوله تعالى « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٨١) ثقة بالله ، وتفويضا اليه طول العمر .

ولا عامة الدلالة ، وتتعين دلالتها بمدخولها : فاذا دخلت على المستقبل جعلته بعيدا منفيا ، تناسبا مع ألفها الذى يمتد بها الصوت ؛ فآذن امتداد جرسها بامتداد معناها كقوله تعالى عن اليهود « ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم » (٨٢) .

---

(٧٨) راجع نتائج الفكر ١٣١ .
(٧٩) البقرة ٩٤ .
(٨٠) النتائج ١٣٢
راجع فى دلالات أدوات النفى مغنى اللبيب ١/٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٢ ، والبرهان للزركشى ٣/٢١٧ ، ٣٥٤ ، ٣٨٨ ، ٣٣٦
(٨١) التوبة ٥١ (٨٢) الجمعة ٧

لأن اقتران الشرط بالفعل يؤذن بالعموم والانسحاب على جميع الأزمنة ، ولذا جاء فى الجواب « لا » بازاء صيغة العموم وهى الشرط، لاتساع معنى النفى فى لا كما ذكر السهيلى ، ومنه قوله تعالى : لا تدركه الأبصار فهو نفى ممتد (٨٣) .

كما تنفى الماضى ، وتدخل على الاسمية ، وتؤكد نفى الجنس والاستغراق ان دخلت على نكرة نحو ، لا اله الا الله .

وليس مضاعفة النفى ، تنفى الحال ، وقد تنفى غيره ، كقوله تعالى « ليس لهم طعام الا من ضريع » (٨٤) : فهو لنفى الجنس وقوله تعالى « ليس لهم فى الآخرة الا النار » (٨٥) لنفى المستقبل والنهى فرع النفى ، وقد جاء القصر بلا الناهية والا ، فى تراكيب فيها حسم وقوة نافذة كهذه الوصية التى كانت من أواخر وصايا ابراهيم لبنيه ويعقوب عليهما السلام « يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » (٨٦) .

أى لا تموتن على حال من الأحوال الا على حال الاسلام ، والقصر هنا خرجت الفكرة فى معرضه ، ودل على الأمر بالثبات على الاسلام طول الحياة ، والنهى عن كونهم على خلافه وهو الكفر اذ الموت على غير الاسلام لا خير فيه ، وفيه تخييل بديع من تخييرهم بين حالات الموت فيختارون أسماها فرضا وتقديرا وحقا دائبا (٨٧) .

وقال تعالى « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده » (٨٨) .

---

(٨٣) راجع نتائج الفكر ١٣١ (٨٤) الغاشية ٦ .
(٨٥) هود ١٦ (٨٦) البقرة ١٣٢ .
(٨٧) راجع الكشاف ٣١٣/١ والبحر ٣٩٩/١ والشهاب ٢٤١/٢
(٨٨) الأنعام ١٥٢ .

وفى الآية نهى قاطع ممتد المستقبل ، ومبالغة فى النهى عن الأخذ أو الأكل للنهى عن القـرب من باب الأولى ، والـكناية فى « التى هى أحسن » بمعنى الأسلوب الوحيد الذى أذن به الشرع مع الايجـاز البالغ المتنوع والصياغة الشاملة لوصاة من الوصايا العشر باقية مابقى انسـان •

الاستفهام بمعنى النفى والا :

والقصر به له مذاق خاص ، ومقام معلوم لأنه يشرك المتلقى فى الوصول الى الحكم أو المعنى تحقيقـا للغرض ، باثارة طاقاته ويحفزه على التأمل والتذوق وصولا الى اقناع مؤثر بحق واضح فى نفسه •

قال تعالى « والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكـروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا عـلى ما فعلوا وهم يعلمون » (٨٩) •

جاء القصر اعتراضا بين صفات المتقين مقررا توحد الله تعـالى بغفران الذنب لجوئا اليه واستعانة به سبحانه وهى حقيقة استقرت فى أعماقهم ضمن فطرة الايمان •

وقال تعالى : على لسان المؤمنين والنبى المبلغ ـ عليه الصـلاة والسلام ـ « قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » (٩٠) •

فهنا تقابل بين نوعين من التربص جد متباعدين تربص بالكفـر تدور عليه دوائر الانتقام الالهى أو يسـلط عليهم المؤمنون ، وتربص الكفر بالمؤمنين وما يتـوقع بهم الا احدى الحسـنيين فوز بالشـهادة

---

(٨٩) آل عمران ١٣٥ ٠ (٩٠) التوبة ٥٢ ٠

ورضوان الله أو فوز منتصر فى المعارك ، فهنا الاثارة والتعـــــريض والتصوير بالاستفهام والطباق والتوبيخ لمن عطلوا مداركهم •

وقد تبين أن القصر جاء بدءا ليؤدى فكرة خاصة أو اعتراضـــا مقررا مصورا وقد يجىء عقب الآيات تذييلا مؤكدا ممتد الأثر ســـواء صيغ صياغة المثل المستقل بذاته من صدق وتصوير وشمول واكتنـــاز ووفرة معان وملاءمة لمواقف تتكرر فى دنيا الانسان أم صيغ صـــياغة مشـــابهة للمثل •

ونكتفى هنا بتحليل مادة **الجزاء** فى تراكيب القصر القرآنية وقد جاءت المـــادة فى مائة وعشرين أسلوبا منها خمسة عشر جاءت فى معرض القصر (٩١) وقد لاحظنا ما يلى :

١ ــ جاء فى أربعة عشر أسلوبا تعقيبا على جزاء يقع فى الدنيـــا أو جزاء يقع فى الآخرة وزمان الجملة دنيوى أو يقع فى الآخرة الجزاء والتعقيب بأسلوبه على السواء وكلها خاصة بالسىء من العمل وهـــذه الأساليب تنوعت صياغة ، وأداةنفى ، وزمانا ، وسياقا ، وكثر مجيئهمن جهة الحق تعالى ترهيبا ، وقل مجيئه على ألسنة الملائكة يوم القيـــامة تأنيبا وتعذيبا نفسيا للكافرين •

وقد جاء أسلوب واحد خاص بطائفة عاليـــة من المؤمنين هم الخائفون من مقام ربهم •

ونبسط قليلا ما أوجـــزنا :

١ ــ من خص الخائفين من مقام ربهم جاء فى سورة الرحمن سورة الآلاء العالية القدرة من الرحمن •

---

(٩١) راجع المعجم المفهرس فى المادة : ١٦٨ •

قال تعالى فى سياق مديد بدأ بقوله « ولمن خاف مقام ربه جنتان » : آية ٤٦ .

واستمرت الآيات تصف هذا النعيم الذى لا يطمح اليه خيال حتى الآية ٧٦ اتصالا بآخر السورة . ووسط هذا الوصف الجليل جاءت الآية « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » واسطة هذا العقد ، مثلا تنطق (٩٢) به الفطر وتنحنى أمامه العقول .. وفيها ايجاز مذهل، فالاحسان الأول : الاحسان فى العمل ، وفاعله الانسان على العموم ومعناه : اتقان العمل على شرط الاخلاص والمراقبة ، والاحسان الثانى هو الثواب بمعنى العطاء والفضل وفاعله هو الله تعالى ، فهو عطاء غير مجذوذ لا ينتهى الى مدى وقد تقدم ما فى معناه : وهو كلمة جزاء بدء الآية فالمبتدأ والخبر متحدان مدلولا وقد أحاط بالاحسان الانسانى وكونا دائرة اشارة الى سبوغ نعمته تعالى دنيا وأخرى واحاطة فضله وقد جاءت هل بدل ما ذات الدلالة الحالية غالبا خروجا عن الأصل فى استعمال هل فدخلت على الاسمية افادة للثبوت والدوام حثا وترغيبا فى الجزاء والعمل والعطاء .

٢ ــ وفى المقابل تنوعت أساليب الجزاء العادل أو جزاء السوء كما يلى :

جزاء بمعنى عقاب دنيوى فى عدد من الأساليب :

الأول : بانما فى حد الحرابة لمن خرج الى وحشية ضارية فكان عقابه بتره وقطع دابر الشر ، وهو جزاء واضح الحكمة واضح البيان مطلب نفسى وعقلى ودينى ولذا جاءت انما : « انما جزاء الذين

---

(٩٢) راجع الكشاف ٤/٤٩ .

يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » (٩٣) .

ومنه ما جاء على لسان امرأة العزيز ، وهى امرأة شديدة الذكاء والكيد والدهاء وقد صدر أسلوب القصر كل ذلك حين بوغتت بزوجها وهى تطارد فتاها « وألفيا سيدها لدى الباب » فلم يخنها لسانها ولم يتوقف تفكيرها بل قالت فى جرأة « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم » (٩٤) وقد لبست قناعا من غضب فاتهمت يوسف ظلما وشكوى وهى الظالمة ، وأطلقت السوء ولم تخصص وأظهرت الدل وأثارت الغيرة فى قلب زوجها فى قولها : « بأهلك » وطمأنته بالفعل « أراد سوءا » دون أساء مع الشفقة على يوسف .

واقترحت عقابا بعد أن كيفت التهمة كما يقول رجال القانون ، والاقتراح ذكى لا يهلك يوسف ولا يبعده عن دنياها فهو سجن أو عذاب ، وبدأت بالجزاء وختمت بالعذاب الأليم خداعا ليظن بها الآباء والترفع وقد جاء قولها فى معرض القصر افتعالا ودهاء وهو أسلوب كلما زدته تأملا زادك معانى وظلالا (٩٥) .

وما يحتمل أن تكون نافية حالية أو استفهامية بمعنى أى شىء جزاؤه الا السجن وهو ما أرجحه مناسبة للمقام .

وفى هذا المجال جاءت آية سبأ تتوسط العقاب الرهيب ، كفاء كفرهم واعراضهم وتكبرهم فقد مزقهم شر ممزق وجعلهم أحاديث خالدة يضرب بهم المثل « تفرقوا أيدى سبأ » والآية « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور » (٩٦) بهذا الاستفهام المثير الموضح

---

(٩٣) المائدة ٣٣ (٩٤) يوسف ٢٥ .

(٩٥) وفى الآية معان آخر وراجع الرازى ١٢٢/١٨ .

(٩٦) الآية ١٧

للجزاء ، وهو جزاء خاص ، نلحظه من اسم الاشارة للبعيد « ذلك » مناسب للون شرس صاغر كما ينبىء بناء الاسم «كفور» وهذا الجزاء قيده الغضب فاصق بسبأ نقمة الدنيا يدور معهم كدارة النار ، والمقام متداخل كثير التقابل والتضـــاد بين نعم جليلة وبطر عات وتذكير حار وكفر طاغ وانتقام مهيب وتعبير خالد وحديثا تذكره الأجيـــال عبرا وعبرات ، وهذا كله مناسب أن يكون التعبير بهل والا ٠

والعجيب أن هذه السورة حادة التصوير والتأثير جاء قـــوله تعالى « وأسروا الندامة لمـــا رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعنـــاق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون » (٩٧) ٠

تعقيبا على حوار ساخن بين الذين استكبروا والذين استضعفوا وتشاحن وسباب وصياح يحمل بعضهم بعضا أوزارا وتبعات منهـــا الجزاء النارى ، فما ان يلفحهم العذاب حتى يخنسوا لا نأمة ولا لفظة بل ندامة موارة فى الأعماق ونعوذ بالله ٠

والمقام المصور لهذه الانفعالات التى تغلى ، المثير للمشاعر رهبا يناسبه التعبير بهل فى أسلوب القصر كما يناسب تصميم السورة وروحها ذات الأساليب العميقة التى تهز الكيان وتصدع القلوب ٠ والآيةالثانية تصف جزاء يحدث يوم القيامة بمعنى أن الزمن الحالى والآتى متداخل فى تعابير الآيات ٠

٢ ــ وقريب منها هذه الأساليب التى يتعانق فيها الترغيب مـــع الترهيب كما فى قوله تعالى « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلهـــا » (٩٨) ومثلها آية القصص ٨٤ وغافر ٤٠ وقد تأدى القصر بلا والا لأن الجزاء مستقبل ٠

---

(٩٧) الآية ٣٣ ٠

(٩٨) الأنعام ١٦٠ ٠

وقد لحظنا من أساليب الجزاء أن هل لا تأتى الا مع جزاء غريب مثير أعنى تعليقا وتعقيبا ويمكن أن توازن بين هذه الآيات :

ـ فى كفار مكة وهم يستعجلون العذاب استهزاء فتنزل الآيات مهولة رهيبة شديدة الايجاز « قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون اثم اذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون الا بما كنتم تكسبون » (٩٩) وتأمل الطباق المصور والاحتباك وتوالى الاستفهام للتبكيت وحذف المتعلقات وبعض الآفعال (١٠٠) والجملة والاكتفاء بالظرف « آلآن » والالتفات والتعبير بالمظهر بدل المضمر بعنوان : «المجرمون» « الذين ظلموا » وتناسب الظلم مع الجزاء الأخروى الخاص المصدر بالفعل الساخر « ذوقوا عذاب الخلد » والتعقب المثير بهل مع التعبير بالفعل : يكسب وهو أخص من يعمل الذى كثر مع الكافرين دالا على الاحاطة والفعل عن قصد ، بينما الكسب فيما يظن أنه خير وهو الشر أو المستجلب الضرر (١٠١) .

وقريب منها آية النمل « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون الا ماكنتم تعملون» (١٠٢) على الالتفات للتشديد واضمار القول لعمومه أو لتعيينه فالقائل الزبانية وهى قولة تصك أقفاءهم بعد أن كبوا على وجوههم جزاء مبسوطا متنوعا ، ولزن ذلك بآية التحريم : يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم انما تجزون ما كنتم تعملون » (١٠٣) فهو قول الملائكة أيضا

---

(٩٩) يونس ٥٢ وراجع الى أبى السعود ١٥٢/٤ .
(١٠٠) راجع النبأ العظيم ١٤١ .
(١٠١) راجع فى دلالة الفعلين والراغب ٣٦٠ ، ٤٤٨ .
(١٠٢) النمل ٩٠ (١٠٣) آية ٧ وراجع أبا السعود ٢٦٨/٨

والنهى للبيئيين والتبكيت والقهر بذكر مناسب لهذا القدر الذى لم يفصل فيه العقاب .

ثم اقرأ هذه الآية أخيرا من سورة القصص « من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون » (٨٤) .

وهى آية جاءت على مقربة من نهاية السورة فيها هذا الهدوء والتقرير وتثبيت الجزاء وما يشبه تكرار السيئة والعمل فهو تهديد فيه ريث وتلبث وهو مناسب لما تفضى اليه الآية من تعبير الرسول الكريم ووعده وعدا آملا لا يتخلف وكشف عن حجب الغيب حتين يرده الى مكة فاتحا .

« ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » ثم تنتهى السورة هادئة واعظة بالرجوع الأكبر « كل شىء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » .

وهى نهاية تتكرر بتكرر الوحدات الانسانية ما بقيت حياة فى الدنيا ثم النهاية الكبرى « واليه ترجعون » .

ونكتفى بهذا القدر من التحليل وهو دال على ما نومىء اليه من أن المقام والنسق الخلص أو العام هو الذى يعين نوع القصر ونوع الأداة المستعملة مع الا فى النفى والاستثناء ثم ان التعبير : ما تجزون الا ما كنتم تعملون » بصوره المختلفة من تغير الأداة قبل الا ، أو الفعل كانوا على الغيبة جاء هكذا دون الباء فى التعبير « بما كنتم تكسبون » أو التعبير بالمثل فى قوله « فلا يجزى الا مثلها » وقد رأى بعض العلماء (١٠٤) أن التعبير على حذف الباء أو على ما كنتم أو المثل .

---

(١٠٤) راجع الرازى ٤/١٥ وتفسير أبى السعود ١٣٥/٧ ، ١٧٢/٧ ، ١٩٠/٧ والبحر ٣٩١/٤ .

أو أنه لا حذف بل المراد التنبيه على قوة التلازم والارتباط بين العمل والجزاء حتى كأنهما شيء واحد وهذا ما أميل اليه لتلاؤمه مع سائر التعابير القرآنية في كثير من الجزاءات • وكأن العمل السيء صار هو بذاته الجزاء السيء •

وجملة الجزاء هذه تصحب معاني العقاب والعذاب دائما فكأنها — كما يرى الرازي — جواب عن سؤال سائل كيف يتأتى الوعيد مع رحمته تعالى أي أن العقاب ليس من عنده تعالى ابتداء بل هو جزاء على عمل باطل (١٠٥) ، وهذا تعليل منطقي الصياغة لمسألة بلاغية وقد يتأتى في بعض الأساليب المنفصلة دون عاطف ودون اختلاف الجملتين خبرا وانشاء اكتنا وجدنا أساليب خبرية أو انشائية عطفت بالواو : نحو : وهل نجازي الا الكفور ، ونحو « فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون » والأقرب أن يقال ان هذه الأساليب تنزل من سابقتها منزلة التقرير والتأكيد هذا اذا جاءت تعقيبا بعد الجزاء وهو الأعم الأغلب •

وقد تلبس الفكرة أسلوب القصر تأسيسا كقوله «ومن عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها » ، ونحو «ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها» وعلى كل فهو اعلان قوي عن فكرة الاستحقاق وتقرير لها وربما لا يبعد ذلك عن مقصد الرازي ولكنه عبر عنه بما يعين شبه كمال الاتصال عند البلاغيين أعني الجواب عن سؤال مفترض فكان فيه التباس •

---

(١٠٥) راجع الرازي ١٧/١١٠ ، ٢٦/١٣٥ ، ١٥/٤ •

النفى الضمنى والاستثناء :

والمراد بالنفى الضمنى أن يكون فى مادة الفعل معنى النفى وأن يكون هذا النفى الضمنى مقصودا مصححا للتفريغ ومنه الفعل أبى كقوله تعالى « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (١٠٦) .

والفعل يأبى : أوله الزجاج بالفعل يكره فقال مقدرا المستثنى منه عاما « ويكره الله كل شىء الا اتمام نوره » وليس دقيقا ولا صوابا والأولى تأويل الزمخشرى للفعل يأبى بمعنى لا يريد لأنها وقعت فى مقابل «يريد» (١٠٧) والواقع أن هذا التأويل لا يغنى عن الفعل «يأبى» بنية ومعنى دلالة على النفى والمنع فى قوة واستعلاء حق .

ويرى الامام ابن الشجرى أن أبى مثل ليس فى دلالتها على النفى واستدل بمجىء الفعل فى القصر كالآية السابقة (١٠٨) والواقع أن ليس للنفى المحض وليس لها معنى سواه أما أبى فلاثبات الاباء بدليل دخول النفى والنهى على الفعل كقوله تعالى « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله » وأبى مثل منع ورفض ونفى ونحوها .

وفى أسلوب آخر ــ خاص بالكافرين الرافضين ــ قد يكون الاباء والتولى أدل على الاعراض وعلى محاولة الاستعلاء الكاذب ، كقوله تعالى « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس الا كفورا » (١٠٩) ومثلها آية الفرقان (١١٠) .

وتعليقا على موقف الكفار من البعث جاءت الآية « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ، فأبى الظالمون الا كفورا » (١١١) .

---

(١٠٦) التوبة ٣٢ .
(١٠٧) راجع الكشاف ٢/١٨٦
(١٠٨) راجع الأمالى ١/٢٥٦ .
(١٠٩) الاسراء ٨٩
(١١٠) آية ٥٠ .
(١١١) الاسراء ٩٩

وقد يدل الأسلوب على النفى دون فعل نص على ذلك العلماء فى قوله تعالى : على لسان يعقوب عليه السلام « لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم » (١١٢) وهو يقصد بنيامين ، والاستثناء من أعم العلل أو الأحوال أو الأزمان ، وقوله : لتأتننى به جواب قسم والمعنى : حتى تقسموا بالله لتأتننى به الا أن يحاط بكم وما بعد الا كناية عن الهلاك أو الانهزام وأصله من احاطة العدو : ومعنى الآية : لن أرسله معكم حتى تقسموا لا تمتنعون من الاتيان به فى كل حال الا حال كونه محاطا بكم أو الاحاطة أو الا لعلة الاحاطة أو زمانها ، والنفى هنا « لا تمتنعون » حكمى دل عليه الأسلوب لتصحيح التفريع (١١٣) .

كقولهم : أقسمت بالله الا فعلت أى ما أطلب الا فعلك ، ولوقوع الفعل بعد الا فى هذه الآية والتى قبلها سر بيانى نبه اليه الأخفش بأنه كلام فى معنى الشرط فأشبه الشرط (١١٤) .

يعنى فى الترتيب واللزوم ، ويعنى الأخفش رحمه الله أن الحال هنا بمعنى الشرط فى الترتيب كما سيأتى — ان شاء الله — .

ومنه قول الله تعالى عن قوم طالوت وقد ذهبوا لقتال جالوت فقال لهم « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى ، الا من اغترف غرفة بيده ، فشربوا منه الا قليلا منهم » (١١٥) ، قرأ عبد الله وأبى والأعمش « الا قليل » بالرفع قال فى الكشاف « وهذا من ميلهم مع المعنى ، والاعراض عن اللفظ جانبا »

---

(١١٢) يوسف ٦٦ .

(١١٣) راجع الشهاب ١٩٢/٥ والارشاد لأبى السعود ٢٩٣/٤ نقلا عن الكشاف ٣٣٢/٢ .

(١١٤) راجع الشهاب ١٩١/٥ — ٩٢ .

(١١٥) البقرة ٢٤٩ .

وهو باب جليل من علم العربية فلما كان معنى « فشربوا منه » فى معنى فلم يطيعوه حمل عليه كأنه قيل : فلم يطيعوه إلا قليل منهم » والمعنى أن الموجب فى معنى المنفى (١١٦) ، وعلل أبو حيان رأى الزمخشرى هنا بأنه « حفظ الابدال فى المنفى دون الموجب ، فلذلك تأوله ، ولامانع يمنع منه لغة وهو فصيح والأفصح منه النصب على الاستثناء فليس ثم اضطرار فى تأويل المثبت بالمنفى » (١١٧) وحكمه بأن الأفصح النصب واغفاله تحليل الكشاف لا يقوم له دليل لأنها قراءة معتبرة ، والامام أبو حيان على امامته فى التفسير واللغة وذوقه المتميز كان يغلبه أحيانا التزامه بالتوقف عند رأى نحوى متغاضيا عن الرأى الفنى المقابل .

وقال تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين » (١١٨) .

ذكر الزركشى أن الا لا تدخل بعد الايجاب الا لتأويل ما سبقها بالنفى أى فانها لا تسهل وهو معنى «كبيرة» (١١٩) وكبيرة من الفعل كبر بمعنى شق وثقل فهو استثناء مفرغ (١٢٠) كما أومأ الرازى الى المنفى المقابل للمقصور عليه وهو غير الخاشع « لأنه لا يعتقد فى فعلها ثوابا ولا فى تركها عقابا فيصعب عليه فعلها أما الخاشع فلما اعتقد جزيل الثواب ونفى المضار لم يثقل عليه ذلك » (١٢١) .

---

(١١٦) الكشاف ١/٣٨١ .

(١١٧) البحر ٢/٢٦٦ (١١٨) البقرة ٤٥ .

(١١٩) راجع البرهان ٤/٢٤٠ .

(١٢٠) راجع الطبرى ١/٢٠٦ والبحر ١/١٨٥

(١٢١) التفسير الكبير ٣/٥٠ .

مقامات النفى والاستثناء :

وهذا الطريق أصل الباب ــ كما يقولون ــ وأقوى الطرق ، وكثير من الطرق يفيد القصر بالحمل عليه ، ولذا لا يكون غالبا الا فى المقامات العنيفة المستوفزة ، جهيرة النبرة ، قوية الوقع ، حين تتشابك مواقف التأثير الوجدانى مع الاقناع العقلى ، وهذا انما يكون فى مقامات الانكار وليس الانكار موقفا عقليا فحسب بل انه رفض تتعانق فيه الطاقات الانسانية الراقية هذا هو الغالب فى الاستعمال ، وقد يأتى ــ كما ذكره العلماء ــ فى غير ذلك كالأمور المنزلة منزلة المنكرة ، أو المجهولة ، التى لا انكار فيها وهذا التشقيق مأخوذ من كلامهم (١٢٢) .

تجد هذا حين يصف القرآن الكريم غيبا خارقا ، ماضيا أو آتيا ، أو جزاء خاصا أو وصفا ثابتا ، أو حالا مثيرة ، أو تصويرا لدقائق حال المتكلم من البشر وخافى خواطره ، وحينئذ يشع هذاالطريق أطيافا وظلالا .

فمن مشاهد التعذيب يوم القيامة ما ذكر الله تعالى : من جزاء الذين يكتمون علمهم متكسبين به ثمنا قليلا وأصله فى أحبار اليهود ثم يطلق على من له صفتهم « ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار . ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (١٢٣) .

وأكل النار جاء بانما فى أكلى أموال اليتامى ظلما فى قوله تعالى « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (١٢٤) .

---

(١٢٢) راجع الدلائل ٢١٧ والمفتاح ٢٩٥ وحاشية عبد الحكيم ٣٠٨

(١٢٣) البقرة ١٧٤ (١٢٤) النساء ١٠ .

وآكل أموال اليتامى الضعاف انما يستحق عن جدارة هـــذا العذاب وكل لفظة فى الآية توحى بقدر من التبشيع والتشنيع فقد ذكر الأكل والمراد مطلق الانتفـــاع ، لبيان أن مال اليتيم حـــول الى متعة شرهة مقززة فى فم حيوانى لاقم وانضاف اليه «ظلما» لتـــدنيه عن الوحوش لأنها لا تظلم بل هى محكومة بغرائزها فى سد جوعتها ، ولذا كان الجزاء أكلا أيضا ولكنه لون منه غريب رهيب متلائم مع العمل ، وجاء الأسلوب بانما لوضوح الأمر وأن الجزاء يستحقه فهو أوضح من أن ينازع فيه انه سعير يصلاه ولا يملك فكاكا .

وهذا الجزاء سابق على بعثهم كمـــا روى أبو بردة عن النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بيعث الله تعالى قوما من قبورهم تتـــأرجح أفواههم نارا » فقيل من هم فقال ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ ألم تر أن الله يقول « ان الذين يأكلون أموال اليتـــامى ... الآية » (١٢٥) ومثله فى التغليظ آية الربا كما سبق .

وفى جانب كاتمى العلم ـــ من أحبار اليهود ـــ على العمـــوم أو انكار صفة النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الموجودة فى التـــوراة والانجيل ، ليظلوا كبارا رؤساء يرجع اليهم يلتهمون أموال النـــاس باطلا (١٢٦) والأولى حملها على العموم فيدخل تحتها رؤساء اليهود ـــ وهم سبب نزول الآية ـــ ومن يصنع صنيعهم ، وقد جاء الأسلوب بالنفى والاستثناء دفعا لكل انكار وحسما لكل تلاعب وميسما محققـــا لمن باع آخرته بقليل متاع ، وقد حقق الأكل فى الصنفين بقوله « فى بطونهم » فهى ظرف مؤكد مقرر ، ويجوز أن يتعلق بحال محذوفة دالة على الامتلاء أى ملء بطونهم ، فالجزاء من جنس العمل وما يأكلون

---

(١٢٥) راجع الطبرى ٤/١٨٤ وأبا السعود ٢/١٤٨ .
(١٢٦) راجع الاستغناء ٢٤٢ وأبا السعود ١/١٩١ .

فى الدنيا ليس طعاما بل هو نار لأنهم أكلوا ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة له ، فزمن الجملة حالى أو فى المآل أو نارا يوم القيامة (١٢٧) فالزمن آت تغليظا ووعيدا ٠

وحين يبنى أسلوب القصر على التشبيه أو التصوير يكون الغنى فى الدلالة والخصوبة فى الفكرة وتوليد الظلال وهذا الشعور ، ويلاحظ — فى التشبيه أن المنفى هو المقابل لما دل عليه المشبه به تأمل قول الله تعالى « ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » (١٢٨) ٠ وقوله تعالى « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » (١٢٩) ٠

وموعد الساعة والساعة من أعظم ما وقع فيه المماراة من الغيوب ، التى نصبت عليها الأدلة ، ولمح البصر هو رجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها ، وهو تمثيل لسرعة مجيئها على ما تعارف عليه البشر من التمثيل بلمح البصر ، ولما كان فى علم الله ما هو أسرع قال أو هو أقرب أى بل هو أقرب قال العلماء فى آن غير منقسم من الزمان : والآن غير المنقسم لا يكاد يتصوره العقل ، فأمر الساعة خارق فى بغتته وسرعته تصويرا بالحس المنظور ، والمقصور عليه مشبه به أو موصوف بالتشبيه اللازم ، والصفة المنفية هى درجات السرعة أو البطء وجعل القرافى المستثنى والمستثنى منه أحوال المقدور الربانى أى لا حالة الا هذه الحالة فى الوقت المقدر ، والصفة المرادة والمنفى هو أحوال العجز والتأخير وعدم النفوذ وهو قريب لدلالة النسق على قدرة الله تعالى (١٣٠) ٠

---

(١٢٧) راجع الشهاب ٢٦٩/٢ والألوسى ٤٣/٢ ٠

(١٢٨) ٧٧ النحل (١٢٩) ٥٠ القمر ٠

(١٣٠) راجع فى الآية أبا السعود ١٣١/٥ ، ١٧٥/٨ والشهاب ٣٥٧/٥ ، ١٢٩/٨ والاستيناء ٣٢٦ ٠

وقد سبقت آية الربا « الذين يأكون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » فهو وصف لغيب آت ، ترهيبا وترذيلا لآكل الربا الذى مثل — بحق — بالمصروع ، ولذا جاءت الصورة قافزة متحركة متداخلة الحركات والجزئيات نابضة ودخل الشيطان فى بعض عناصرها تقبيحا ، وقال الله تعالى عن الكافرين « ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » •

والتشبيه بالأنعام مراد به ذمهم بالغباء والتسفل والحيوانية ثم ترقى المعنى نازلا بهم عن درجة الأنعام تعطيلا لمظاهر الادراك شرا متعمدا وحقدا موروداً (١٣١) •

وفى تقدير صفة العلم بالشهادة واستقراء بعض متعلقاتها يقول الله تعالى :

« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » (١٣٢) قصرا لهذه الحالات الثلاث بدءا بالخاص فأعم العام — على كونها مشهودة مراقبة من الله تعالى ، تربية للضمير وغرسا للمراقبة فى النفوس (١٣٣) •

وفى وصف سنة الله تعالى من اختلاف الناس أمما وشعوبا ومنازع ومشارب وهداية وضلالا تقريرا لسنة الخالق فى تمايز البشر بعيدا عن الانكار •

---

(١٣١) وهو لون من الترتيب التنازلى فى الصيغات وان كان يفيد تصاعد الفهم •

(١٣٢) يونس ٦١ •

(١٣٣) راجع البحر ٥/١٧٣ وروح المعانى ١١/١٤٤ •

قال الله تعالى «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » (١٣٤) .

وأسلوب القصر يثير دهشة وعجبا من هؤلاء الذين اختلفوا بعد أن جاءهم الحق أو الكتاب ، لظلمهم وبغيهم ، وقد عبر بالفعل «أوتوه» بدل أنزل عليهم تنبيها على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فيه وهذا أدعى للدهشة والعجب .

وقوله « من بعد ما جاء » متعلق بفعل محذوف ، وكذلك بغيا تقديره : اختلفوا وقد حذف اكتفاء ثم قال أبو حيان ولا يجوز أن يكون متعلقا لـ «اختلف» والا لكان المعنى : وما اختلف فيه الا الذين أوتوه « الا من بعد ما جاءتهم الا بغيا » .

ولا يستثنى بالا شيئان أو أكثر من غير عطف ولا بدل ، وأجازه أبو البقاء العكبرى .

وقال الكشاف : مؤولا « ما كان ذلك الاختلاف الا حسدا بينهم، وتابعه البيضاوى وأوله الشهاب على أن الحصر بدلالة المقام أو على جواز تعدد المستثنى منه » (١٣٥) والصواب ما ذكره أبو حيان لعدم حاجته الى الاغراق فى التأويل أو اتباع الضعيف من آراء النحاة .

---

(١٣٤) البقرة ٢١٣ .

(١٣٥) راجع فى الآية : الكشاف ٤١٩/١ والبحر ١٧٨/٢ وشرح المفصل ٩٢/٢ والشهاب ٢٩٩/٢ ، ٣١٤/٣ فى آية مماثلة وأبو السعود ٢١٥/١ والألوسى ١٠٢/٢ ، ١٠٧/٣ .

وقال الله تعـــالى :

« شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العـلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (١٣٦) ٠

وهذه الآية الشريفة جعلها الطبرى ردا على من أشرك ، والعلماء على عمومها ومعنى شهد عند الزمخشرى ومن تبعه انه تعـــالى بين وحدانيته بنصب الآيات التكوينية وانزال الآيات التشريعيـــة وكرر شهادة التوحيد تأكيدا واعتناء بشأنها وقال فى الانتصاف لطول الـكلام نجدد التوحيد تلو التنزيه ليلى قوله : « ان الدين عند الله الاسلام » وقال الكرمانى : الأول شهادة واعادة ليجرى الثانى مجرى الحـــكم بصحة ما شهد به الشهود وعن جعفر الصادق الأول وصف والثـــانى تعليم أى قولوا واشهدوا وكثير من العلماء على أن شهد بمعنى حكم وقضى أو بين أو أعلم وأخبر أو أحكم وأظهر أو شهد بنفسه لنفســه قبل أن يخلق الخلق وهى معان متقاربة متلازمة ، وهو ــ عـلى كل ــ وصف وتسبيح ومدح وتنزيه وتقرير وتعليم (١٣٧) شهادة يبدأ بهـا الايمان وجاء القصر معرضا لها تحقيقا وتصديقا ووصفا محيطا ٠

---

(١٣٦) آل عمران ١٧ ٠

(١٣٧) راجع فى الآية : الطبرى ٣/١٤٢ والكشاف ١/٤١٧ ، والبحر ٢/٤٠٦ ، وغرائب النيسابورى ٣/١٦٥ وأسرار التكرار ٤٧ وأبو السعود ١/٢١٥ ودقائق التفسير لابن تيمية ٢/٢٠ والتفسير القيم لابن القيم ٦٨٤

النفى والاستثناء والنظم

موازنات

الوحدانية :

والمراد بالنظم هنا تنوع الأساليب واختلاف درجاتها صعدا فى التأكيد فهناك قصر بما والا ، وان والا ، وهناك ما تتكاثر فيه أدوات التوكيد والعموم كدخول من على اسم جنس بعد ما النافية أو ان وهذا كله محكوم بالنسق والمقام • ومقدار الاحساس الذى يزحمه الأسلوب •

وبدءا فالوحدانية فى مقدمة القضايا الكبرى التى نزل القرآن ليرسخها فى العقول والقلوب بكل طرق الأداء ، وفى أسلوب القصر جاءت فى معارض شتى وفق نظام السورة وسياق الآيات •

ونود هنا أن نرد وهما جاء فى بعض المؤلفات الحديثة فى البلاغة لجعلهم قوله تعالى « والهكم اله واحد » مما نزل فيه المخاطب المنكر منزلة غير المنكر فلا يعتد بانكاره لتكاثر الأدلة والبراهين على وحدانية الله (١) •

ذلك أن هذا التعبير جاء ثلاث مرات فى الذكر الحكيم وان اختلف النسق والخطاب :

١ — قال تعالى ••من سورة البقرة « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » (٢) •

---

(١) راجع : علوم البلاغة للمراغى ٥١ ، وعلم المعانى د• عتيق ٦٧ •
(٢) ١٦٣ الآية •

والمفسرون على أن الخطاب عام لكافة الناس وقد أعربت جملة التوحيد خبر ثان للمبتدأ « الهكم » أو صفة أخرى للخبر « اله واحد » وهي مقررة مؤكدة للوحدانية وعلى هذا لا يجوز فصل التأكيد عن المؤكد اذ الأسلوب يتصاعد فيه المعنى من اثبات الوحدانية الى اثبات الالهية ثم الى نصب الأدلة الكونية استدلالا بالأثر على المؤثر فى الآية « ان فى خلق السموات والأرض ... الآية » (٣).

٢ ــ قال تعالى فى سورة النحل « والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون الهكم اله واحد » (٤) .

وقوله « الهكم اله واحد » تصريح بالمدعى ، وتمحيص للنتيجة بعد اقامة الحجة لأن الآلهة المدعاة مخلوقة لا تخلق . موات لا حياة فيها ولا علم عندها لانها أصنام دليلا على أن اله العالم الحق الله واحد فى ذاته وصفاته ، فلا يمكن فصل النتيجة عن المقدمة ، والقياس الكامل وليس بعد هذا من تأكيد (٤) .

٣ ــ جاء فى سورة الحج « ولكل جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين » (٦) .

والخطاب خاص بالمؤمنين وهم غير منكرين وجاءت الجملة بعدها

---

(٣) راجع البحر ٤٦٢/١ وتفسير أبى السعود ١٨٣/١ .
(٤) الآية ٢٢ ــ ٢٣ .
(٥) راجع البحر ٤٨٣/٥ ، وأبا السعود ١٠٦/٥ وغرائب النيسابورى ٥٦/٧ .
(٦) الآية ٣٤

فله أسلموا صعودا بالمعنى بمعنى الاذعان التام والايمان المطلق بالله وحـــده .

ثبت اذن أن هذه الجملة جزء لا ينفصل من نسق خاص ، وأن فكرة التنزيل لاصحة لها فى التعبير، ثم ان اثبات الوحدانية لم تأت فى تعبير مستقل الا مؤكدا (٧) أبسطه قول الله تعالى فى سورة الصافات « ان الهكـــم لواحد » (٨) بان واللام واسمية الجملة فكأن الجملة كررت ثلاث مرات، وقد أدرج السيوطى تكرار التأكيد هنا تحت طرق القصر وان لم يسلم له .

وعن قضية الوحدانية : جاء التدرج فى الأساليب هكذا :

١ ــ القصر بانما : دلالة على أن هذه القضـــية ان كانت قد خفيت عليهم أو ادعوا الجهل بها فهى من الوضوح بمكان بل لو فكروا مليا وخلوا بين أنفسهم وزيغهم لاهتدوا بفطرهم هم وكل ما حـــولهم ناطق بوحدانية الاله الأحد .

قال الله تعالى « وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين انمـــا هو اله واحد » (٩) .

« قل انما هو اله واحد واننى برىء مما تشركون » (١٠) .

وقال : « انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد » (١١) .

وقال تعالى : « قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد » (١٢) وقد

---

(٧) المعجم المفهرس ٣٨ ــ ٣٩ .

(٨) الآية (٩) النحل ٥١ .

(١٠) الأنعام ١٩ (١١) النساء ١٧١ .

(١٢) ١٠٨ الأنبياء .

قصر الوحى على الوحدانية مع أنه يشمل أمورا كثيرة كالتكاليف والأخلاق والقصص وغير ذلك ، لأن الوحدانية هى الأصل الأصيل وغيره راجع اليه وأجاز الشهاب ان يكون غيرها غير منظور اليه (١٣)

ويؤيده أن المقام فى تقرير الوحدانية •

لكن المعجب فى الآية الأخيرة أنه قصر الاله على صفة الألوهية المتصفة بالوحدانية وأسلوب القصر الأخير هذا يؤول لصفة هى وحدانية الاله ليكون مقصورا عليه فى القصر الأول «قل انما يوحى••» والوحى مقصور فهو قصر متداخل شديد التركيز لأنها عند التأويل تنحل أربع جمل اكد اثبات صفة الوحدانية فيها مرتين جاءت كلها فى جملة واحدة تمثل حقيقة واحدة كبرى مسطورة فى الوعى واللاوعى شاهد بها كل مخلوق حتى الكافر ان خلى وقلبه لا يجد سواها تفسيرا لخلق الكون وتدبير أمره فكأن فى الآية تعريضا به أن يدع هواه ويحث الخطا عسى أن يكون من المفلحين • وقد ينعكس الطرفان أعنى قد يكون لفظ « الهكم » وقد جاء موصوفا فى الآية السابقة قد يكون صفة كقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام بعد أن تملكه الغضب وأقسم ليحرقن عجل الذهب الذى عبده اليهود « لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ، انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شىء علما » (١٤) •

وفى ثورة الغضب جاء قصران : الأول (بانما) قصر فيه الالهية على الله تعالى وذكر لفظ الجلالة بصفات جلاله وكماله وجماله يرشح أنه حقيقى ، ثم ترقى فى التأكيد والحسم الجازم فكان القصر الثانى فى شهادة التوحيد •

---

(١٣) انظر الشهاب ٦/٢٧٩ والرازى ٢٢/٢٣٢ •

(١٤) طه ٩٨

وانما فى القصر الأول يذكرهم ويعرض بهم بعد أن أتجاهم الله وصنع لهم من الآلاء ما لا ينسى فالوهيته واضحة ، وعجل اذهب رمز لفكرهم الغض وتعبدهم للمال واذهب فى سبيله يضحون بالايمان • ونلحظ تكرار لفظ الجلالة وصفته وضميره الظاهر أو المستتر أربع مرات •

٢ ـ هلولا :

وقد جاء على ألسنة الرسل عليهم السلام فى دعوتهم أقوامهم الى التوحيد « اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ثمانى مرات (١٥) : والجملة الأولى أمر تضوح بعبادة الله (اعبدوا الله) وجملة القصر تعليل لهذا الأمر الخاص ، ولكم خبر مقدم ، أو الخبر محذوف ، وقدم الظرف للتخصيص والتبيين أى ما لكم فى الوجود أو فى العالم اله غير الله وغير بمعنى الا وهذا التعبير المركز كان عنوان كل دعوة وفاتحة كل مقاولة سواء أتبعت بتشريعات أخر كما فى قصة شعيب (١٦) فى سورة هود أم اتبعت بآيات الله تعالى ونعمه كما فى قصة صالح (١٧) أم لم تتبع بشىء كقصة هود (١٨) • كما جاءت الدعوة الى التوحيد على ألسنة الرسل بأساليب عديدة قصرا أو غيره • (١٩)

وقد يقوى الأسلوب وتعلو النبرة ويشتد الايقاع فيتغير النظم فنجد ما : النافية تليها من الاستغراقية المؤكدة للنفى داخلة على نكرة فيتأكد العموم من وقوع النكرة فى سياق النفى ويتأكد الاستغراق بمن ليكون الشمول دقيقا حاسما محيطا بأفراد النكرة أو اسم الجنس ، فلا

---

(١٥) المعجم المفهرس ٣٨ وما بعدها •
(١٦) الآية ٨٤ (١٧) هود ٦١
(١٨) هود ٥٠ •
(١٩) المعجم المفهرس ٣٨ وراجع أبا السعود ٣/٢٣٥ •

يفلت واحد من أفراده من قبضة النفى فاذا كان الاخراج بالا والاثبات لفرد واحد من هذا المنفى العام كان الحسم والدقة والتركيز والظلال فالآية « قل انما أنا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار » الآية ٦٥ جاءت بين غيبين فى سورة ص : غيب آت يقدم مشهدا جارا لتنازع أهل النار وتنابذهم « لا مرحبا بكم » ردا على : لا مرحبا بهم انهم طوائف فى النار أشعل العذاب أحقادهم وثائر انفعالاتهم وجحيم غضبهم الذى صار كقطعة من النار وتعقب الآيات على هذا المشهد الرهيب « ان ذلك لحق تخاصم أهل النار » (٢٠) .

والثانى غيب معنى وقتما خلق آدم عليه السلام وسجدت الملائكة الا ابليس أبى واستكبر وانخرط فى جدل حاقد حتى طرد مغضوبا عليه مزءوما مخذولا وقد بدأت الآيات بقوله تعالى : « ما كان لى علم بالملأ الأعلى اذ يختصمون » (٢١) .

وبين القصتين والغيبين تبرز الوهية الله الواحد القهار المسيطر على الأكوان والأزمان والذى شمل شعاع قهره كل ما يكون وكل ماكان ولذا صيغ أسلوب القصر صياغة خاصة ملائمة للنسق وأتبع لفظ الجلالة بوصفين خاصين « الواحد القهار » فهو قصر حقيقى قوى الأخذ شديد السيطرة تميد به القلوب والعقول .

ومن هذا اللون قول الله تعالى : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٢٢) .

فقد بدأت الآية الحكم المؤكد بالقسم على كفر النصارى ولم يذكرهم وانما ذكر قولتهم الشنعاء وانظر الصياغة « قالوا » زعما دون

---

(٢٠) ص ٦٤ (٢١) ص ٦٩ .

(٢٢) المائدة ٧٣

وصيدا من الحق ،)(ان الله) بجلالته وجبروته وصفات قهره وكماله ، ثالث ثلاثة هكذا على التنكير والدخول فى العدد أمرا ادا بشع يجعل تفرهم صراحا ومفهوم الجملة الأولى أن الله واحد وقد أكد هذا المفهوم بأسلوب جزل عنيف غاضب « وما من اله واحد » وتأويله كما فى الكشاف « ما اله قط فى الوجود الا اله موصوف بالوحدانية » (٢٣) فهو موقف دفع وابطال ورد مهيب مثير المخ البشرى مستتبع لمشاعر التعجيب والتحقير لهؤلاء الذين وصفوا بالكفر مرتين فى سطرين •

٣ ــ شهادة التوحيد : دلالتها ومقاماتها وأسرارها :

وقد تنوع فيها المقصور عليه لفظا بين الله باسم الجلالة أو ضمير المتكلم سبحانه أو المخاطب أو الغائب سبحانه فى سبعة وثلاثين أسلوبا قرآنيا اقتضاها المقام (٢٤) الذى تنوع وكان وضع شهادة التوحيد فى نسقها فى قمة التلاؤم والدقة الخارقة المعجزة ، واليك بعضا من هذه المقامات :

١ ــ تقرير صفة الوحدانية أعنى وحدانية الألوهية فى سياقات تذكر طرفا من كفر الكافرين أو صفة من صفات اعراضهم سواء كان كفرا وثنيا وهو الأغلب أم كفر أهل الكتاب وهو الأقل والأساليب فى أنساقها قوية تصور الكفر ثم تكر عليه نقضا وابطالا بشهادة التوحيد وقد يسبقها أو يتبعها ما يصعد المعنى حسما ، ودفعا أو تعجيبا أو تعظيما وتنزيها لله تعالى ، وسواء جاءت الشهادة على لسان النبى صلى الله عليه وسلم مأمور بتبليغها بالفعل « قل » أم كان خطابا للكفار وهو خطاب اهانه تحملهم على التفكير •

---

(٢٣) الكشاف ٦٣٤/١ وأبو السعود ٦٦/٣

(٢٤) المعجم المفهرس ٣٨ وما بعدها •

كما جاء فى الآخرة حكاية عن صدوفهم فى الدنيا وجاء خاصا بكفار بلقيس على لسان الهدهد : واليك بسطا لما تقدم :

وبداية فان شهادة التوحيد كانت أول شيء أرسل به الرسل وأنذروا به : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون » (٢٥) • وقال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » (٢٦)

وقد جاء على لسان موسى عليه السلام غضبا على السامرى وعلى اليهود مدمرا الههم الذهبى مخلصا التوحيد لله مثنيا ممجدا له سبحانه « وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا انما الهكم الله الذى لا اله الا هو وسع كل شيء علما » (٢٧)

كما جاء فى خطاب النبى صلى الله عليه وسلم نعى القرآن على الكفار اعراضهم عنه وكفرهم بالرحمن وأمره عليه السلام بتوحيد الربوبية والألوهية وافراد الله بالتوكل والمثاب قولا وعملا « كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا اليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب » (٢٨) •

وتلحظ الجملة الحالية وهو تفجر معنى التناقض الحاد والتعجيب المديد فهم يكفرون بالله الملك الخالق المربى الرحيم وهذا قريب من دلالة الرحمن وهذا أدعى الى الايمان لا الكفران وتلاؤما جاءت أربعة أساليب أمر الرسول بقولهما ردا عليهم ثم اعراضا عنهم — وهو موطن عجب — لينفرد بافراد الله بجليل الصفات والاساليب المتداخلة على طريق

---

(٢٥) النحل ٢
(٢٦) الأنبياء ٢٥
(٢٧) طه ٩٨
(٢٨) الرعد ٣٠

التأكيد والوصف والعطف بالقصر بتعريف الطرفين فى الأول والنفى فى الثانى والتقديم فى الاخيرين فى احكام وأسر وشدة سبك ووحـــدة اخلاص من تكرار الضمير والصفة خمس مرات •

ومن النهى عن الاشراك وتأكيده بشهادة التوحيد جاء قوله تعالى « ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه لـــه الحكم واليه ترجعون » (٢٩) •

والخطاب للنبى الكريم مرادا به العموم تعـريضا بمن أشرك • ودعوة جليلة التأثير •

وقريب منه هذا الخطاب العام استدلالا بالنعمة على المنعـــم وبالخاق على الخالق ثم تأكيد للتوحيد ونفى الشريك « يأيها النـــاس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى تؤفكون » (٣٠) وقد توالى أسلوبا قصر الأول بهل وغير استفهام يحمل المخاطب على التفكير وصولا الى النفى الحاســم لخالق آخر سوى الله ثم ذكر أثرا واحـــدا من آثار الخلـــق هو رزق المخاطبين الدائم من مخلوقات كبرى لا تعطى الا بقدرة مدبر حكيم وقد جاءت شهادة التوحيد مؤكدة مقررة فى تمجيد وتسبيح ، وبعد هـــذا الا يكون اعراضـــهم مثار تعجيب مدهش « فأنى تصرفون » وتأمل كيف توالت وسائل الأداء من نداء وتنبيه وأمر واستفهام مكرر وقصر مكرر ولجلال الأسلوب ورفضه للشرك جاء التعبير « نعمة الله » دون نعمة ربكم •

واضافة النعمة الى لفظ الجلالة لا يأتى الا فى المقامات التى يسطع فيها ضوء القدرة ، وسطوة القهر والجلال كتسخير الله لهذه المخلوقات

---

(٢٩) القصص ٨٨ (٣٠) فاطر ٣

الهائلة الزاخرة وهى البحار نعمة الله « ألم تر أن الفلك تجـــرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته » (٣١) .

أو تدمير الله للأحزاب حول الخندق بالريح المرسلة والجنـــود التى لا ترى : « اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرســلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » (٣٢) .

وازن ذلك بمقامات الرضا ، والعطاء الرحيم فى قوله تعـالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » (٣٣) . « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » (٣٤) .

ومن هذا النسق الخاص ما أنطق الله تعالى به الهدهد فى مملكـة سليمان عليه السلام حين غاب عن نظر سليمان فى رحلة اكتشف فيها امرأة وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وقصته بدءا من تهديد سليمان للهدهد الغائب التارك ما كلف به دون اذن ، وحضور الهدهد : فمكث غير بعيد ، ونطقه بالحكمة من جنس حكمة سليمان وتلكم المحاورة وخطبة الهدهد وأسرارها الفنية وسماتها الاسلوبية تحتاج بحثا .

لكن انظر ارتفاع درجات الانفعال وتوهج الأسلوب ودفق الصفاء، واللهم الهدهد بثناء على الله الجليل بأسلوب جليل « وجدتها وقومهـا يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » . والسجود للشمس والكواكب خـــروج بالسجود عما جعل له ، والشمس مخلوق مسخر ولا يعقل أن يكون الها واذا جاء فى موازنة سريعة بين اله باطل وبين الله الحق بلفظ الجلالة لبظهر زيف ما دعوا وغالبا : ما يأتى فى الاسلوب القرآنى الآلهة الباطلة

---

(٣١) لقمان ٣١ (٣٢) الأحزاب ٩ .

(٣٣) الضحى ١١ (٣٤) الطور ٢٩ وراجع المعجم المفهرس ٧٠٨

يعقبها اسم الجلالة تصويرا بالطباق واظهارا لهذا التناقض الحاد بين المواقع الحق المشرق والباطل المزعوم المدعى أعنى : كثر هذا التعبير « من دون الله أو من دونه » لما ذكرت •

كما أن ذكر الشيطان والصد عن السبيل ونفى الهداية مهد للآية التالية : « ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » • وقوله : ألا يسجدوا فى معنى الأمر والآية تحرر دليلا على وجوب عبادة الله فهو المنفرد بقدرته بأخراج الخبء والخفى والمنفرد يعلم الخفى والظاهر فهما لديه سواء • ومع ان أخراج الخبء كما ذكر العلماء يعم ما يعلم من اشراق النجوم والكواكب واظهارها بعد استتارها ، وانزال ، الامطار ،وانبات النبات، بما يعم الانشاء والابداع والخلق أكاد ألمح هذا التلاؤم الخاص جدا بالهدهد فحياته ورزقه على هذا الخبىء ، القريب من بشرة الأرض ولذا ذكر الخبء والاخفاء وبعض منها داخل فى عالمه تلاؤما معجزا يتسع ليشمل الأكوان ويضيق ليخص رزق الهدهد من خبىء مكنون •

وقدمت السموات تلاؤما مع عبادة الشمس ثم ذكر الأرض تقديما لدلالة الآفاق على دلالة الأنفس وما حولها عكس ما ذكر ابراهيم وموسى عليهما السلام من تقديمهما دلالة الأنفس لأنهما ناظرا من ادعى الألوهية من البشر « اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » • وقال موسى لفرعون « ربكم رب آبائكم الأولين » ثم قال « رب المشرق والمغرب » •

ولما ذكر الهدهد عرش بلقيس وأومأ هذا الى عرش سليمان وهى

عروش المخلوقين ذكر أعظم الاجسام مما هو محيط بالاكوان وهو عرش الله العظيم مربوب لرب جليل قدوس • (٣٥)

وتأمل موقع الشهادة فى النسق لتجدها مع كونها مدلولا منتظمة مع الثناء والتسبيح والتمجيد لله من الهدهد بل كل ما خلق الله ولذا كان التشريع بسجود التلاوة لينضم المؤمن الى موكب الساجدين •

وأخيرا فقد ذكرت الآية التالية تعقيبا على مشهد عذاب أخروى للكافرين الذين انكروا البعث « فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون » (٣٦) • أى قولوا لا اله الا الله عاملين بها » ذما لهم وترهيبا من مثل عقابهم •

كما جاءت صيغة تقرب من شهادة التوحيد وليست فى قوتها اثر حديث المباهلة وخوف رهبان النصارى وهربهم منها ورد القرآن عليهم « فعيسى عبد الله ورسوله ومثله كمثل آدم • ثم جاءت الآية « ان هذا لهو القصص الحق وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم » وقد سبقت هذه الآية • والمهم أن الزمخشرى سوى بين هذا التعبير (وما من اله الا الله) وبين شهادة التوحيد وقد رد عليه الزركشى بما سنذكره آخرا •

٢ ــ ذكرت شهادة التوحيد سابقة لتقرير البعث دليلا عليه وأنه حق وصدق لأن من تفرد بالألوهية قادر على الاعادة كالبدء وهما مقدوران كباقى المقدورات تحدث ان تعلقت بها ارادة القدير •

قال تعالى « الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا » (٣٧) والبعث يلى الوحدانية خطورة

---

(٣٥) راجع فى الآية : الرازى ٢٤/١٩٠ ــ ١٩٣ ؛ وأبو السعود ٦/٢٨٢

(٣٦) الصافات ٣٥ (٣٧) النساء ٨٧

وكونه من القضايا القرآنية الكبرى التى ووجهت بتيارات من الجحود والاعراض وقد قلبت فى القرآن على وجوه من الأساليب تفوق الحصر ذكرت الآية منها اسلوب القصر دليلا وأسلوب القسم مدلولا أعنى جواب القسم اقناعا وتأثيرا قويا للعقل والقلب معا • قال تعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » (٣٨) •

والملاحظ : أن مدخول الاستفهم الانكارى التوبيخى جملتان الثانية مؤكدة لمفهوم الأولى فان معنى « وأنكم الينا لا ترجعون : هو نفى البعث من قبيل الخلق عبثا « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا » (٣٩) والواقع أنه لم تخطر بقلوبهم هذه الفكرة وهى عبثية الخلق ولكن لتلازمها لانكار البعث أثبت لهم حسبان ذلك وأنكره والكلام أشبه بالاحتباك • والمثير أن الحسبان المنكر عبث وهو ملائم للمحال وهو خلقهم عبثا ثم انظر الاقتدار من تكرار (نا) للعظمة والجلال ، وغالبا ما يتبع ذكر العبث أو الباطل التنزيه لله تعالى عن ذلك كقوله « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » •

وفاعل التنزيه « تعالى الله » لفظ الجلالة الجامع لكل الصفات ثم توالت صفات من الجلال تناسبا مع المقام التنزيهى والسطوة الالهية، فتوالت دون عطف لاجتماعها فى الموصوف سبحانه فهو الملك المسيطر المالك لما سواه لا يزول ملكه ولا يبيد (الحق) الثابت وجودا وملكا وكمالا (لا اله الا هو) المتوحد بالألوهية (رب العرش الكريم) وهو خلق أكبر من السموات والأرض : وهذه الصفات الجليلة والأسماء القدسية أدلة على حكمة الحكيم الذى يعد انكار البعث قولا غثا مع تلك الصفات (٤٠) • ثم انك قد رأيت أن شهادة التوحيد يكثر أن

---

(٣٨) المؤمنون ١١٦ . (٣٩) المؤمنون ١١٥ .
(٤٠) راجع الرازى ١٢٨/٢٣ وأبو السعود ١٥٣/٦ .

تجىء فى مقامات شديدة قوية وفى هذه المقامات يسبقها لفظ الجلالة مباشرة أو يفصل بينهما بعض أسمائه الحسنى بما يناسب السياق • وقلت : يكثر لأن ذلك جاء فيما يقرب من أربعة وعشرين أسلوبا من سبعة وثلاثين هى عدد شهادة التوحيد فى القرآن كما جاء قليلا جدا اسم الحى أو رب مضافا (٤١) •

٣ ــ جاءت فى سياق يذكر بعض آيات الله الكونية أو اسرار خلقه وخفى نعمه أثرا من آثار الخلق والقدرة والرحمة والعلم ، دليلا على الخالق القدير لكن قد تلحظ تغيرا فى السياق اقتضاه المقام أو تفاوتا فى درجة الاسلوب عنفا وقوة أو تماوجا وتأثيرا :

قال تعالى من سورة غافر « الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا اله الا هو فأنى تؤفكون» وقال تعالى من سورة الأنعام « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل »•

وبالموازنة نجد :

١ ــ أية غافر (٤٢) فى مقام تعداد النعم الإلهية على البشر من تقدير القوانين الكونية من جعل الليل سكنا وراحة يعقبه نهار مبصر للحركة وتحقيق الخلافة أثر من دوران الأرض حول نفسها بقدرة الله • وهى أية جلياة للبشرية ولذا ذكر الناس وكرر اسم الجلالة وصفة الرب والخالق انتهاء الى الوحدانية فهى صفات الاله الواحد »

٢ ــ فى آية الأنعام : (٤٣) ذكر ابداع السموات والأرض وهما

---

(٤١) المعجم المفهرس ٣٨ •

(٤٢) الآية ٦٢ (٤٣) الآية ١٠٢ •

كناية عن الكون كله دليلا على نفى الولد والصاحبة بهذا الاستفهام المنكر المستبعد وبفعل الكون وتقديم المتعلق بعد النفى « انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة : بتقديم ضميره فى الظرف تقديما للموجود المتعالى على المعدوم الشائن ، وقد وقع انكار الولد والصاحبة بين أوصافه بديع السموات والأرض بدءا ثم (وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) بهذا العموم المطلق فى المتعلق نسفا لهذه الفكرة الآسنة من الأوهام ، ثم عقب باسم الاشارة البعيد رتبة مع ميم التعظيم (ذلكم الله ربكم) باتحاد الطرفين المعرفين قصرا ووصفا بالربوبية الشاملة ووصف آخر بشهادة التوحيد نفيا لكل ما سواه فى الوهم والخاطر أو الزعم الباطل وكرر الخلق مرة ثانية : بالاسم الحالى المستمر « خالق كل شىء » يظهر خلقه متى شاء وكيف شاء ويلزم الأمر بعبادته بعد اجتماع هذه الصفات الحسنى فى الموصوف الأعظم وتلحظ اقتدار الاسلوب وسطوته وهيبته وايماضه بالجلال والرهبة والانذار لوجود دعوى البنوة والصاحبة مخنوقة بين صفات جلاله .

وقد لحظ الكرمانى وتبعه الفيروزبادى أنه لما ذكر الشركاء والبنين دفع ذلك بشهادة التوحيد وقدمها على قوله « خالق كل شىء » وفى سورة المؤمن ذكر قبله خلق السموات والأرض وهو « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » فخرج الكلام على اثبات خلق الله ، وزاد صاحب البصائر « وقدم على نفى الشريك » (٤٤) .

وزيادة الفيروزبادى موهمه لأن شهادة التوحيد ليست لنفى الشريك فحسب بل المنفى عام وهو ما سوى الله شريكا أو ندا أو مقابلا أو غيره .

---

(٤٤) أسرار التكرار ٧٣ وبصائر ذوى التمييز ١٩٧/١

على أن قولهما ان تقديم شهادة التوحيد دفع للشركاء والبنين يوهم أنه لم يذكر صفة الخلق الا مؤخرة فقد ذكرت أيضا مقدمة « وخلق كل شيء » .

والظاهر أنه لم تذكر صفة الخلق (ماضيا) فى سورة غافر كما ذكرت فى آية الانعام قدم « خالق كل شيء » لأن نسق الآيات فى خلق الآيات والمن بالآلاء ، انتهاء الى وحدانية الله تعالى وهى المقصودة بسوق النعم .

ولذا لما ذكر نعما أخرى بعد هذه الآية اتبعها بقوله : هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين » .

أما آية الأنعام فقد قدم فيها صفة الخلق لكل شيء أولا انتهاء الى شهادة التوحيد ثم ذكر الخلق ثانيا انتهاء الى النتيجة تأكيدا بأسلوب آخر ولذا ذكر فا الفصيحة المفيدة للسببية : خالق كل شيء فاعبدوه ، هذا ما جال بالخاطر وقت الكتابة والله أعلم .

ثم قد كثرت مادة الخلق والجعل انتهاء الى اثبات صفة الملك والوحدانية فى آية الزمر وهى تتعرض لاون من الآيات وهى ما خص الأنفس .. وتقسيم العلماء للآيات كونيه ونفسية مأخوذ من قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » (٤٥) وقوله : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم » (٤٦) .

أما آية الزمر فقوله تعالى « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم

---

(٤٥) فصلت ٥٣ (٤٦) الذاريات ٢٠ ـ ٢١ .

خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فأنى تصرفون » (٤٧) •

فهى تتحدث عن الخلق الأول ثم نعمة الانعام ومراحل التكوين الجنين وهى مراحل مذهلة صورتها آية المؤمنين واضاف هنا « الظلمات الثلاث » وهو تعبير فى لفظين يبسطه علماء الطب فى صفحات تعبيرا معجزا عن حقيقة علمية نزلت آيتها فى مكة قبل أربعة عشر قرنا ، وجاء هنا (له الملك) والله أعلم : لأن هذا الخلق ومراحله وصوره ، بقدرة الله لا يملكه الا مالك الملك مصرفه ومدبره على حكمة واقتدار ومن هذا الملك الانسان ذاته ومن التعجيب أن يعرض المخلوق المملوك عن الخالق المالك وهو معنى فأنى تصرفون وقد تلمح من ذكر الملك هنا من الأسرار ما تقبله الفطرة ، فسر الظلمات هنا علم بيديه ملك الملوك بمقدار وعلى كل فالآية تتوجها شهادة التوحيد لأن من يفعل ذلك كله اله واحد لاشريك لـــه •

٤ ــ جاءت شهادة التوحيد تمجيدا واعلاما ووصفا وثناء ودعوة وتعليما كما فى آية آل عمران « شهد الله أنه لا اله الا هـو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » (٤٨) كما جاءت أول آية الكرسى بدأت بلفظ الجلالة ثم تلتها صفات جايلة وآثارها تحيط بالكون دنيا وأخرى • تدبيرا واحكاما وقيومية لعـالم الغيب والشهادة « الله لا اله الا هو الحى القيـوم لا تأخـذه سـنة ولا نوم ••• » الآية (٤٩) •

٥ ــ كما جاء لفظ الجلالة وشهادة التوحيد سابقة مع صـفات ملائمة لوصف تنزيل القرآن بالحق دلالة على عظمة القرآن وجـلاله

---

(٤٧) الآية ٦ •
(٤٨) آل عمران ١٨ (٤٩) البقرة ٢٥٥ •

وأنه صفة الله تعالى لا يقاوم قهره ولا يبيد سلطانه وأثره فى القلوب، وهيمنته على الأرواح لأن الله سماه « روحا » وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » واذن فالله الواحد الذى لا شريك له الحى القيوم

وقال الله تعالى : بعد آية التحدى والمعاجزة فى سورة هود : « فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل أنتم مسلمون » .

والخطاب على الراجح للنبى والمؤمنين وقوله أنزل بعلم الله كناية عن كونه من عند الله كما يقول الرازى ومعناه كما فى الكشاف والبحر أنزل متلبسا بما لا يعلمه الا الله من نظم معجز الخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه .

وشهادة التوحيد مترتبة على عجز المشركين والاصنام أن يأتوا بالمعارضة فثبت أن القرآن من عند الله وأن النبى صادق وأن شهادة التوحيد حق وأن ما سواه من الألهة المزعومة باطلة قطعا واطلاقا .

ومترتبة من ناحية أخرى فيها بعض التسبب ذلك أن القرآن العظيم باعجازه الخارق نزل من عند الله لأنه واحد لا شريك له .

وقد لمح الرازى ، فى استعمال الشهادة وجها من التهديد أى فكونوا خائفين من قهره وعذابه وهذا يجوز اذا كان الخطاب للكافرين ويكون معنى الاستفهام الأمر بالاسلام والواضح أنه من خطاب النبى والمؤمنين والاسلام معناه هنا الاخلاص ترغيبا فى زيادته (٥٠) .

---

(٥٠) الآية ١٤ وراجعه فى الآية الكشاف ٢/٢٦٢ والبحر ٥/٢٠٨ والرازى ١٧/١٩٧ .

بالاسم الأعظم وصفات الجلال هو الذى أنزله تقريرا لحق ، وتزكية له وترغيبا فيه .

وقد تجىء اثر الكلام عن وصف غلاب للقرآن كقوله تعالى من آواخر الحشر « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » الآيات (٥١) .

فتلكم الأسماء الحسنى وما لها من دلالات تشع الجمال والجلال وتدع القلوب المنفعلة بأسرارها وآثارها فى الأكوان خاشعة وجلة مغمورة بالنور الأقدس حياء وقربا وهذا مناسب لتصدع الجبل وخشيته لو أنزل عليه القرآن ثم ايماء الى عظمة القرآن وجلاله وأن منزله ذو الصفات الحسنى المقدسة ولعلك تلحظ أن شهادة التوحيد هنا سبقت بقصر هو تعريف الطرفين المتحدين دلالة « هو الله الذى لا اله الا هو » بهذه الدائرة المحيطة الخالدة فالمقصور عليه واحد من القصرين « هو » بدءا ونهاية ، وهذه الظاهرة جاءت فى أساليب معدودة فى القرآن حين يكون المقام أو النسق شديد التوهج والجلال والتعبير مبنى على حروف اللام والألف والهاء والواو والأصوات خارجة من الأعماق دون عائق يصل بها النفس الى منتهاه ولا يبقى الا قلب نابض بالتوحيد .

وتأمل خطاب الله لموسى بالواد المقدس طوى : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » (٥٢) ونسج الأسلوب جزل شديد الوقع

---

(٥١) الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

(٥٢) طه ١٤

من الحـــاء وتكـــرار التـــاءات مع العـــين واللـــام وكثرة المقاطع المغلقة فى الجزء الأول وكثرة اللامات الممدودة والهاءان فى شهادة التوحيد ، ثم المقاطع المغلقة والفاء والعين توازيا فى الجزء الأخير مع الجزء الأول وكثرة حروف المد بأنواعها جعل للايقاع وقعا عميقا مهولا مهيبا ، واسم الله وضمائره تكرر أربعا كآية الحشر بل انها أحد عشر من بدء الخطاب « انى أنا ربك ... » لقد سرى جـــلال الاسلوب فى النسق كما سرى بالكون وفى كيان موسى الكليم ، لك الله يا موسى لولا تأييد من الله ما قوى كيانك على هذا الجلال .

٦ ــ كثر مجىء شهادة التوحيد خطابا لنبى الاسلام صلى الله عليه وسلم فى عنائه الطويل مع أشد شعوب الأرض عنادا فكانت تتنزل الأيات فى مواقف الشدة تسرى عن الرسول الكريم وتمده بالثقـــة ، وتشد أزره ، وتأمره بالفزع الى الله والاعتماد عليه والمضى على نهج الدعوة مكثرا من ذكر الله متبعا للوحى داعيا بشهادة التوحيد والهـــا كما فى قول الله تعالى :

« فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » (٥٣) .

« رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (٥٤) .

« اتبع ما أوحى اليـــك من ربك لا اله الا هو وأعـــرض عن المشركين » (٥٥) .

---

(٥٣) التوبة ١٢٩ .

(٥٤) المزمل ٩

(٥٥) الأنعام ١٠٦ .

« قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعـــا الذى له ملك السموات والأرض لا اله الا هو يحيى ويميت » (٥٦) ٠

« فاعلم أنه لا اله الا الله واســـتغفر لذنبـــك وللمـــؤمنين والمؤمنـــات » (٥٧) ٠

٧ ــ جاءت دعاء مستغيثا ذائبا على لسان يونس عليه السلام « وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين » (٥٨) وقـــدر من التقدير بمعنى التضييق وتقديرا لعقوبة أو من القدر أو بمعنى أن لن نعمل فيه قدرتنا (٥٩) والأخير ضعيف ٠

ولذا تصدرت فى خطـــابات المؤمنين الأوامر الخـــاصة بالدعاء الضارع والتوكل المخلص ٠ قال تعالى :

« هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين » (٦٠)

« الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٦١)

والدعوة الى تجريد التوحيد واخلاص اليقين ، وكمال التنزيه ، وصمة القصد ووحدة المأمول وتنوير القلوب بحق الايمان وعز المؤمن فى ذله للمعبود والفرار الى الله وحده الذى باسمه قام الوجود وعـــلى أسمائه بنيت الأساليب ٠

الدعوة الى ذلك ومثله معه تنبض بها الاساليب التى أشرقت فيها شـــهادة التوحيد ٠

---

(٥٦) الأعراف ١٥٨
(٥٧) محمد عليه الصلاة والسلام ١٩
(٥٨) الأنبياء ٨٧
(٥٩) راجع الكشاف ٢/٥٨١ ٠
(٦٠) غافر ٦٥
(٦١) التغابن ١٣ ٠

لا اله إلا الله والإيجاز :

وفي هذا التركيب ونظائره : نفي للماهية (اله) ويلزمه نفي الوجود — كما هو مذهب أهل السنة . ولا لنفي الجنس داخلة على موصوف نكرة ركبت معها ، فالقول : لا اله يقتضي النفي العام الشامل لكل اله فاذا قال بعده : الا الله أفاد التوحيد المطلق المحقق باثباته توحيدا بعد نفي الشركاء والأضداد ، ولذلك فان « لا اله » عند سيبويه فى موضع المبتدأ وكذلك الشلوبين والزمخشري والا الله خبر ذكر هذا فى المفصل ونقل الزركشي والشهاب عن الزمخشري أيضا أن لا اله فى موضع الخبر ، والا الله فى موضع المبتدأ فهو من قصر الخبر على المبتدأ .

ويرى أبو حيان أن الواقع بعد الا بدل من الضمير المستكن فى الخبر المحذوف .

وعلى هذا فهو من القصر على البدل المقصور بالفائدة كقوله تعالى : « لا علم لنا الا ما علمتنا » فخبر لا محذوف لأنه كون مطلق فساغ حذفه وقدره بعضهم « موجود » أو « لنا » أو « بحق » ورجح الزركشي الأخير حتى تكون كلمة التوحيد جامعة لثبوت ما يستحيل نفيه وهو الله تعالى ، وجامعة أيضا لنفي ما يستحيل ثبوته وهو ماسوى الله ، ويرى الرازي أن الأولى عدم تقدير الوجود لأن نفي الماهية أولى من نفي الوجود فى اثبات التوحيد ويمكن التقاؤه مع الزمخشري فى رأيه الثاني ، وثم تساؤل أورده الزركشي عن الرازي وأجاب بأن هذه الطريقة أفيد حيث تدل على قصر اله بحق على الله تعالى بأوجز عبارة أو أن القلب الانساني لا يمكن أن يشغل بأمرين متدافعين دفعة واحدة فاذا بدىء بالنفي ، والنفي تفريغ للقلب فاذا كان خاليا كان أقرب الى ترسيخ التوحيد فيه واشراق نور الله تعالى وتطهيره من

الأغيار (٦٢) وهو شرح للفكرة المتعالمة ، التخلية والتحلية • أو التجلية بالجيم والواضح أن هذا التركيب بهذه الصياغة قصد اليه ليكون دالا على اخلاص التوحيد لألوهية الله تعالى نفيا لما سواه ، ولـذا كانت الشرط للايمان وأول ركن من أركان الاسلام ، وأسلوب تنزيه وذكـر وتمجيد ثم ان الايجاز ليس محصورا فى حذف الخبر بل لضغط جملتين فى جملة يرتفع بها اللسان مرة واحدة نفيا واثباتا • والمثبت هنا لفظ الجلالة بوقعه المهيب ودلالته الجامعة لكل كمال الهى •

وثم أمر أخير هو أن الزمخشرى سوى بين « لا اله الا الله » وبين « ما من اله الا الله » لأن كلا من الجملتين اشتمل على نفى واثبات ومن المؤكد للاستغراق ملفوظ بها فى الثانية وتضمنت الأولى معنـاها ورد الزركشى بأن شهادة التوحيد أبلغ واذا اختيرت لأن لا أقعد بالنفى العام لأن المقصود من لا نفى الذوات اذ هى لنفى الجنس والماهيـة ايذانا بأن الغرض الاسم لا الخبر ، وخبر ما هو المقصـود بالنفى ولا يمكن حذفه ، ثم ان دلالة الاسم الذى ركبت معه : على الاستغراق أمكن من دلالة (ما) على أن التركيب يحدث زيادة لا تكون قبله ، ومعنى كلامه أن دلالة لا على التوكيد أقوى من ما وهو ما ذكره السهيلى وغيره لشمول النفى بها وكونه مطلقا وليس خاصا لنفيها الجنس (٦٣) ويبقى أن تعدل عبارة الزركشى « أبلغ » بنحو أقوى وأشمل وأعم لان كل كلمة فى مقامها وسياقها هى البليغة والله أعلم •

---

(٦٢) راجع فى تحليل العبارة : شرح العبارة : شرح المفصل ١٠٧/١ والأمالى الشـجرية ٢٨٦/١ والبحـر ٤٦٤/١ والرازى ١٧٤/٤ ـ ١٧٥ • ورسالة الزركشى فى معنى لا اله الا الله ٨١ ـ ٨٩ •

(٦٣) راجـع نتـائج الفـكر ١٤١ ورسـالة الزركشى ٩٧ ـ ٩٨ والكشاف ٤٣٥/١ •

من قضايا النظم القرآنى

الـــــــرزق :

وقد جاء على أنحاء مختلفة فى سياقات كاثرة كقوله تعالى « كلوا من طيبات ما رزقناكم » • وقوله « وترزق من تشاء بغير حساب » وقد يتقدم المسند اليه لفظ الجلالة أو ضميره فيفيد القصر كقوله تعـالى : لا نسألك رزقا نحن نرزقك (١) وقوله تعالى « الله يبسط الرزق لمـن يشاء ويقدر » (٢) أو باجراء وصف الرزاق على الله قصرا بتعـريف الطرفين مؤكدا بضمير الفصل كقوله تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هـو الرزاق ذو القوة المتين » (٣)

كما جاء فى معرض الاستفهام كقوله تعالى : « أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض » (٤) « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » (٤) •

وحين يتوهج الأسلوب ويحمى وتعلو نبرته فى سياق يشدد النكير على المشركين حين يسخرون من البعث ويستعجلون العذاب فيذكر قبله بعض صفاته المحيطة كبسط سلطانه وشمول رزقه كل شىء حى • قال تعالى « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعـلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » (٥) •

وفى جملة الرزق تداخل قصران : الأول بما ، والا والثانى الواقع بعد الا « على الله رزقها » بتقديم المسند على المسند اليه ، والمثير أن

---

(١) طه ١٣٢ (٢) الرعد ٢٦
(٣) الذاريات ٥٦ ـ ٥٨ (٤) النمل ٦٤ •
(٥) هود ٦

لفظ الجلالة المهيب هو المقصور عليه فى الأسلوبين تصريحا فى الثانى وبشىء من التأويل فى الأول وقد توسط القصرين والاسلوب ايحاء بأنه مصدر الوجود والرزق وعماد الكون فقد بنى على (لفظة التركيب) كما قامت بقدرته وقيوميته الأكوان ٠

وهذه ظاهرة جاءت فى أساليب معدودة من الذكر الحكيم حين يتطلب الموقف تركيزا مضغوطا طارقا مزلزلا وهذا مصدر اتساع المفهوم وشموله وكثرة ظلاله والتلاؤم واضح بين جرس الكلمات ودلالاتها وقوة التأكيد والشمول مع المقام فللأن الرزق دفاق أبدا جاءت «ما» تلتها من داخلة على فكرة عامة متفرقة وجاء الوصف « فى الأرض » تأكيدا وتصويرا (٦) ثم تأتى الا وبعدها « على الله » فتثير أشواق النفس الى المبتدأ «رزقها» فهو مفتاح الآية يبدل بالجهل علما وبلهفة التشوق طمأنة ويزيد بث الثقة المطلقة فى الله ٠

ومثل هذا التركيب جاء قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام وقد رموه بالجنون وأرادوا به كيدا فقال فى لحظة متوهجة ستمت فيها روحه وانطلقت تقرع أسماعهم فى فدائية مثالية لا تبالى بهم ولا بعالمهم المحدود وفى توكل واثق بربه وخالقه «والآية : ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال : انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم » (٧) وحق أن تسمى السورة باسم هذا النبى الجليل الذى يعلن على مسمع الدنيا وحدانية الله وبراءته من شركهم وأصنامهم ، بل يتحداهم أن يكيدوه ولا يتمهلوا فى ايذائه لأن نور الله

---

(٦) راجع الشهاب ٥/٧٢ ٠ (٧) هود ٥٤ ـ ٥٦

أشرق فى قلبه فما عاد يهمه مخلوق وتلحظ معنى : أدب النبى فى التعبير فلم يقل أشهد الله واياكم أو أشهد الله وأشهدكم حتى لا يقرن بين هذه المخلوقات التعيسة الضالة وبين الله الجليل بل قال : انى أشهد الله فهذا هو المهم وأشهدكم لطما لهم • كما تلحظ حروف اللين نهاية الكلمات المختارة دلالة على غضبه وصياحه بهم رافعا صوته يسمعه القريب والبعيد ، وقد علل عدم مبالاته بهم واحتقاره لكيدهم جميعا بالتوكل المطلق على الله ربى وربكم بذكر لفظ الجلالة وتكرار صفة الرب ولم نجمعهم معه قائلا ربنا : لاختلاف الوجهة ونفورا من الجمع معهم ثم صعد المعنى ذاكرا سطوة القهار فى تركيب قاهر مشع : ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها :

والأخذ بالناصية : تصوير للتحكم واحكام القهر والسيطرة واحاطة القدرة بكل دابة فهو تعبير جليل غاضب وقد جاء السفع بالناصية فى تعبير آخر أشد وعيدا لأبى جهل « لئن لم ينته لنسفعا بالناصية » (٨) •

والتعبير « ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها » بالقصرين وبنائهما على ضمير الجليل «هو» تصويرا وتأثيرا وهزا للقلوب وبيانا للايمان حين يسمق ويسمو ثقة بالله وتوكلا عليه تعالى • وقال تعالى : « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم » (٩) • والقصر الثانى من القصرين فى الجملة الأولى جاء تمثيلا بالمحسوس والمعنى : وما ينتفع به العباد الا ونحن قادرون على ايجاده والانعام به ، وشىء كناية عن كل ما ينتفع به العباد والتركيب قريب الشبه من التركيب فى الآيتين السابقتين •

---

(٨) العلق ١٥

(٩) الحجر ٢١ •

الغيب :

واستكناه المجهول ومعرفة الغيوب أمر يشغل الانسان الذى وجد وسط عوالم لا يعلم عنها الا قليلا حتى ادعى بعض البشر وعلى مدى التاريخ الطويل للبشرية معرفة الغيب لعديد الأسباب ، وفى اثبات علم الغيب لله وحده تنوعت الأساليب لكن فى مقامات خاصة تجد هـــذا القصر الشامل المركز قال تعالى « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبـــة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » (١٠) أربعة أساليب متوالية أحاطت بأنواع الغيوب معلومة لله وحده دون سواه ، وقد ســبق تحليل الآية •

وقال تعالى « وما من غائبة فى الســـماء والأرض الا فى كتـــاب مبين » (١١) والغائبة اسم للشىء الذى يغيب ، والتاء فيه للمبالغـــة كعلامة ، وهو قصر لموصوف شامل محيط فى الكون عـــلى كونه معلوما لله محاطا به فى اللوح المحفوظ ، وقال تعالى « اليه يرد علم الســـاعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضـــع الا بعلمـــه » (١٢) •

وقوله اليه يرد علم الساعة أى اذا سأل سائل عنها قيـــل الله يعلم أو لا يعلمها الا هو وعلى كل نفى الأسلوب قصر تلاه قصر آخر عام بدأ بجمع القلة منكرا بعد نفى مسبوقا بمن المؤكدة للعموم وثمرات بهذا الجمع تنويعا لا يحصيه عد والكم بالكسر وعاء الثمرة فما تتفتح

---

(١٠) الأنعـام ٥٩ وراجع فيها الشـــهاب ٤/٧٤ والألوسى ٣/٢١٩ وغرائب القرآن ٧/١٢١ •

(١١) النمل ٧٥ (١٢ فصلت ٤٧ •

ثمرة وقتا ومكانا ولونا ونوعا ورائحة وكذلك ما يحدث من حمل حامل فى عالم الانسان والحيوان ولا وضع واضع من نوع الحمل وأحواله وأوقاته وما يتصل به من صفات تعجز الحاصر الا والله وحده عالم به علم احاطة ، ويبدو من كلام الكشاف والرازى وأبى السعود أنه الأنثى العاقلة وهو الواضح بينا يوحى كلام ابحر أنه عام فى الاناث (١٣) وعلى كل ففى سر العطف على علم الساعة أو البعث أن هذا التوالد فيه ايجاد بعد عدم وكأنه دليل على البعث اذ هو اعادة بعد اعدام • وفى التعبير بالعلم بمعنى الجزم واليقين والاحاطة الكلية بالمعلوم وتفاصيله دقة بالغة لأن علماء الفلك والجو والطقس لا يخبرون الا عن ظنى وكثيرا ما تخلف الظنون ، وكذا العلم بالوضع أيبقى أم يموت وأسعيد أم شقى وغير ذلك مما لا يقترب من حماه علم الطب البشرى •

ومن هذه الأمور التى لها ارتباط العقيدة بالسحر ، هذا الأمر الذى لا يظهر الا أثره وله خطره فى أوساط العامة والاسلام يؤكد أنه لا يحدث أمرفى الكون خيرا أو شرا الا باذن الله وارادته قال تعالى بعد الحديث عن هاروت وماروت وانذارهم للناس بأن السحر ضر «وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله» (١٤) وفيه أسلوبا قصر الأول تبعا للكشاف فى مثل هذه الأساليب وهى : تقديم الضمير « هم » وهو المسند اليه على الخبر المشتق «بضارين» بعد النفى «ما» وان كان الامام عبد القاهر ومن تبعه يخص ذلك بالضر الفعلى ، والأسلوب يفيد أن الضرر واقع وأنه منفى عن الضمير المقدم ثابت لمقابله نحو « وما أنت علينا بعزيز » لشعيب أى رهطك •

---

(١٣) راجع فى الآية الكشاف ٣/٤٥٦ والبحر ٧/٥٠٤ والرازى ٢٧/١٣٦ وأبا السعود ٧/١٨ والشهاب ٧/٥٥ ـ ٥٧ •

(١٤) البقرة ١٠٣ وراجع الألوسى ١/٣٤٥ •

والقصر الثانى بما وألا مع طول المقصور وتعدد حروف التأكيد والعموم وفيه قصر الضرر على كونه باذن الله فهو نفى لكل الأسباب والحالات واثبات حال واحدة هى كونه باذن الله والقصران متقابلان فى هذا التركيب الشديد السبك فما يقابل المقصور عليه فى الأول وهو «هم» المنفى مذكور فى القصر الثانى مقصورا عليه وهو « باذن الله » مثبتا ، وكذلك فى القصر الثانى فكأن المنفى نفى مرتين والمثبت أثبت مرتين أيضا تصحيحا للعقيدة برجوع كل شىء الى الله تعالى •

موقع المقصـــور عليه :

وموقع المقصور عليه فى النفى والاستثناء هو ما بعد الا ، صفة أو موصوفا ففى المبتدأ والخبر صريحا أو مؤولا نحو « وما محمـد الا رسول » (١٥) وقوله تعالى « ما خلقـكم ولا بعثـكم الا كنفس واحدة » (١٦) أى كخلقها وبعثها اذ لا يشغله شأن عن شـأن ارادة واقتدارا بيانا ليسر البعث عنده تعالى لا عجز ولا لغوب ، يعد الأول من قصر الموصوف على الصفة وكذلك الثانى الذى يراد من التشبيه ربدته أعنى الوجه أى سهولة ويسرا وفى الآية ايجاز بالغ وتصوير دال عـلى امكان المشـبه •

فاذا قدم الخبر كان من قصر الصفة كقولك ما قائم الا زيد فاذا كان الخبر ظرفا أو جارا ومجرورا فقد يكون من قصر الموصوف كقوله تعالى « ان عليك الا البلاغ » بقصر النبى «الضمير» ــ صلى الله عليه وسلم ــ على صفة البلاغ •

وفى قصر الفعل على الفاعل يكون من قصر الصفة كقوله تعـالى « لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » لنوح عليه السلام والقصر يقع

---

(١٥) آل عمران ١٤٤ (١٦) لقمان ٢٨ •

بين الفعل قائما بفاعله وبين متعلقاته ما عدا المفعول معه والمصدر المؤكد للزوم الفصل بالا بين الواو وما قبلها فى نحو قولك سرت والنيل ولأن المصدر ذات الفعل قالوا الا اذا أول بالمصدر النوعى كقوله تعالى ــ ذاكرا شبهة منكرى البعث ــ « ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين » (١٧) أوله أبو حيان مع حذف الوصف : أى ظنا ضعيفا وقيل يضمن الظن بمعنى الاعتقاد أى ما نعتقد الا ظنا ، لا علما ، وقيل على التقديم والتأخير والأصل : ما نحن الا نظن ظنا ، واقتصر عليه ابن يعيش ، وقال أبو السعود ما نفعل الا ظنا على جعل النفى منصبا على الفعل العام والاستثناء على القيد الخاص ، ورد على أبى حيان فى تقدير الوصف «ضعيفا» لأنه جاء فى مقابلة الاستيقان « وما نحن بمستيقنين » اذ مقابله مطلق الظن ، وقال الرضى : التأكيد بالمصدر لرفع التوهم فقد تقول : ضربت تعنى ما يجرى مجراه كالتهديد والأرجح ما ذكره السكاكى والبلاغيون وأيده سيد شريف فى حاشيته على شرح الكافية من أن التنكير فى «ظنا» للنوعية أى ظنا ضعيفا دون تقدير محذوف اذ لا دليل عليه ويكون قولهم : وما نحن بمستيقنين تأكيد لجملة القصر وتصعيد فى المعنى اذ نفى الظن القوى يؤكده نفى اليقين من باب أولى (١٨) .

وقال تعالى « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق » (١٩) أى الا خلقا متلبسا بالحق والحكمة لا يلائم الفساد والشرور ، ويجوز أن تكون الباء للسببية أى بسبب الحق (٢٠) وعلى

---

(١٧) الجاثية ٣٢

(١٨) راجع فى ذلك المفتاح ١٩٣ والبحر ٥١/٨ وتفسير أبى السعود ٧٥/٨ وشرح الكافية ١٣٦/١ .

(١٩) الحجر ٨٥ (٢٠) راجع الشهاب ٣٠٦/٥ .

الأول فالظرف وصف للمصدر المحذوف • ومن قصر الفعل على المفعول وهو من قصر الصفة قوله تعالى « وما يضلون الا أنفسهم » •

القصر على الحال :

وللحال ــ وبخاصة فى الاستثناء ــ شأن فى القرآن الكريم ذلك أن أحوال البشر اللازمة أو المتغيرة هى مطلب القرآن ، تعديلا أو حثا أو اقرارا فى جانب المؤمنين ، ورفضا أو انكارا أو تعجيبا أو ذما فى جانب الكافرين ، أو حالا شاملة لذلك وغيره سعة أكبر من سعة الزمان والمكان ، والأحوال منها الخبىء الدفين فى عالم الشعور واللاشعور ومنها الظاهر سلوكا ، ولذا تنوعت صياغاتها بتنوع الصياغة فى اللغة العربية •

قال شهاب الدين القرافى رحمه الله « والحال فى الاستثناء « يعنى فى القرآن » يقع ماضيا ومضارعا وجملة اسميةوفعلية ومصدرا بأن وبغيرها وحالا مشتقة واسما جامدا ، وجملة شرطيةومجرورا متعلقا بحال محذوفة » (٢١) واختلاف الصياغات يخضع لدقة متناهية فى التلاؤم بين المقام والصياغة الخاصة اذ لا بد « كما يقول الامام عبد القاهر « من أن يكون ذلك انما كان من أجل علل توجيه وأسباب تقتضيه » وقال ان الوقوف على العلة فى ذلك اشكال وغموض ذلك لأن الطريق اليه غير مسلوك والجهة التى منها تعرف غير معروفة » (ف٢) •

وقد جاءت دراسة الامام فى الحال وبخاصة فى الجملة التى جاءت بالواو أو بدونها : فى عموم الحال بعيدا عن الاستثناء ، وموجز ذلك :

١ ــ الحال المقدمة خير فى الحقيقة وان كان على هيئة خاصة ،

---

(٢١) راجع الاستغناء • (٢٢) الدلائل ١٤٤ •

وضحت بعد مجيء الخبر الحقيقى فالخبر الحقيقى مباشر والحال هيئة بواســـطة الخبر •

٢ ــ مجيء الحال جملة بدون الواو حين يقصد ضـــمها الى ذى الحال فى اثبات واحـــد ، واذا جاءت الواو فى نحو جاء زيد وهو يسرع اذا قصدت استئناف اثبات للسرعة لأن اعادة ذكر زيد بضميره لا يكون حتى تقصد استئناف الخبر عنه •

٣ ــ جاءت جمل اسمية على غير القياس فلم تذكر الواو نحو : كلمته فوه الى فى : خروجا على الأصل بضرب من التشبيه اذ المعنى كلمته مشافها اله ، وقولهم : رجع عوده على بدئه أى رجع ذاهبـــا فى طريقه الذى جاء فيه (٢٣) • واذن فالخلاصة أن فكرة اتصـــال المعنى أو استئنافه وراء الواو حذفا وذكرا •

وقد بسط ذلك السكاكى بشىء من التحديد : فالحال المفردة سواء كانت مؤكدة نحو هو الحق بينا أو مطلقه جارية بوصف غير ثابت نحو جاء زيد راكبا فى حكم الخبر فلا تأتى بالواو •

وكذلك الحال اذا كانت فعلية مضارعية أما الماضوية فتـــأتى فى الاثبات بقد أو منفية بما فلم تأت على نهج الحال فتـــأتى الواو أما الاسمية فى الحال غير المؤكدة لدلالتها على الثبـــوت تأتى بالواو وأما الظرف فحيث احتمل أن يكون جملة فعلية وألا يكون جاز ذكـــر الواو وعدم ذكرها كقولك رأيته على كتفه السيف : أو وعلى كتفه السيف : فان كان صـــاحب الحال نكرة لا تأتى الواو حين يراد الوصف وتأتى حين يراد الحال •

وعليه قوله تعالى : « وما أهلكنا من قـــرية الا ولها كتـــاب معلوم » (٢٤) •

---

(٢٣) المرجع ١٤٥ وما بعدها •

(٢٤) الحجر ٤ وراجع المفتاح ٢٧٤ ــ ٢٧٦ •

والواقع أن الحال فى القرآن الكريم مطلقا فى الاستثناء وغيره تحتاج بحثا متأنيا مخلصا من خلال استقصاء مواقعهـــا وأسرار استعمالها فى القرآن والاهتداء بما كتبه علماء التفسير فى هذا الصدد اكمالا للبحث المبتسر أو المحدود عند البلاغيين ، وعلى ضوء مما كتب أئمة التفسير وأكثرهم كان اماما فى البلاغة نقدم هـــذه التحليـلات

قال تعالى « وما خلقنـا الســـماء والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٢٥) .

وحين يكون المقصور عليه حالا يستثنى من عموم الأحوال المقدرة المنفية ولا يبقى مثبتا الا تلك الحال وهى دالة على أمرين وقوع الفعل وكونه على هيئة خاصة لا يتعداها .

والحال هنا « شبه جملة «بالحق» وهى فى مقابلة الحال المنفيـة فى الجملة الأولى «لاعبين» فهو قصر قلب تنزيلى لأن زعمات الكافرين واعتقاداتهم من اشراك الأصنام وتكذيب البعث وغيره من عقـــائد الاسلام يجعلهم فى منزلة من يرى أن الخلق كله عبث لا حكمة فيه ، وقوله «بالحق» فى تأويل الحال لأنه وقع فى مقابلة «لاعبين» .

وقال تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله ان الله كان عليمـــا حكيمـــا » (٢٦) .

وقال تعالى : « من ذا لذى يشفع عنده الا باذنه » (٢٧) .

وقد جاء قصر الحدث على مشـــيئة الله فى أكثـــر من عشرة أســـاليب (٢٨) .

---

(٢٥) الدخان ٣٨ ــ ٣٩ (٢٦) الانسان ٣٠ .
(٢٧) البقرة ٢٥٥ . (٢٨) المعجم المفهرى ٣٦ ، ٣٩٢ .

وكذلك القصر لأنواع منه وقعه فى الدنيا والآخرة على اذنه تعالى (٢٩) افرادا له بالارادة والمشيئة فهو وحده مدبر شئون الكون بحكمته وقدرته وارادته ، ومحل «أن يشاء» فى الآية الأولى النصب على الظرف أى الا وقت مشيئة الله وهو رأى الزمخشرى وتبعه كثير من المفسرين الا أبا حيان الذى رده بأنه لا يقوم مقام الظرف الا المصدر المصرح به نحو : أجيئك صياح الديك ولا يجوز «أن يصيح الديك»وتبع القرافى أبا حيان وأعرب « أن يشاء الله » متعلقا بحال محذوفة أى الا مقترنين بأن يشاء الله وموافقين لها أو صفة مصدر محذوف : الا مشيئة مرتبطة بمشيئة الله (٣٠) ودلالة هذا الأسلوب انه لا دخل لمشيئة العبد الا من حيث الكسب وظاهرا لسبب وانما التأثير والخلق لقدرة الله تعالى حسب مشيئته سبحانه دعوة الى التوكل والتفويض مع مباشرة الأسباب دون الاتكال عليها وهذا معنى التوكل دون التواكل أو قطع الصلة مع مسبب الأسباب .

وفى الآية الثانية : « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه » فهو رد مع المشركين فى زعمهم شفاعة الأصنام لهم عند الله وكانوا يقولون: « انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى » .

والآية تبين جلال كبرياء الله وعظيم عزته وجبروته ، ومعنى الاذن : الأمر أو العلم أو التمكين والباء للمصاحبة وهى التى يعبر عنها بالحال كما قال أبو حيان أى لا أحد يشفع عنده الا مأذونا له (٣١)

---

(٢٩) المعجم المفهرى ٣٦ ، ٣٩٢ .

(٣٠) راجع البحر ٤٠٣/٨ وغرائب النيسابورى ١٢٥/٢٩ والبقاعى ١٦١/٢١ وأبا السعود ٧٦/٩ .

(٣١) راجع البحر ٢٧٩/٢ والقرافى ٦٤٣ .

ومن الحالة الكاشفة للسرائر قول الله تعالى « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون » (٣٢) .

والآية تتحدث عن المنافقين وجمعهم بين المتناقضين ، ايمان فى الظاهر على طرف اللسان وكفر مستكن فى الأعماق ، تعجيبا من شأنهم، وشذوذ طباعهم وتعرى قلوبهم المسودة ، وتقيم الحجة الساخرة المثيرة على كفرهم بطريق وثيق ، والمعنى : لا يؤمن أكثـــرهم بألسنتهم فى حال من الأحوال الا فى حال شركهم بقلوبهم .

وانظر الاحتراس المعجز فى التعبير بالأكثر هنا وفى بعض الآيات نحو « وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك » فى الكفار لأن بعضـــا من هؤلاء وأولئك قد أسلموا وحسن اسلامهم (٤٣) وقـــد جاءت الجملة الاسمية حالية لدلالتها أولا على الثبوت بمعنى ثبوت اشراكهم ولزومه حتى قبل ايمانهم الظاهرى الذى جاء فى صورة الحالى المتجدد وسما لهم بسمة الاشراك وذما للنفاق والواو تعنى الاستئناف اشهارا لهـــذا المعنى الغريب وان كان مقدرنا للفعل .

وقال تعالى عن المشركين « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محـــدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم » (٣٤) والآية ترسم صورة غريبة للمشركين حالمـــا يستمعون الى الذكر الحكيم تتاهت فى النفور والاعراض فهم يستمعون لا يسمعون دلالة الاحتشاد والاهتمـــام لا اقبالا على القرآن بل امعانا فى الكيد فهم يشغلون أنفسهم باللعب الدائب كأنه ليس لهم من المستمع الا اسمه وشكله الخارجى أما قلوبهم فقد أفلحوا فى صرفها عن القرآن باللعب واللهو الدائم وتحرير المعنى:

---

(٣٢) يوسف ١٠٦ (٣٣) راجع الاستغناء للقذافى ٦٤٣ .
(٣٤) الأنبياء ٢ .

ما يأتيهم فى حال من الأحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه أو لاعبين حال كون قلوبهم لاهية عنه اتنـــاهى غفلتهم فتكون حالا متداخلة ، والحال الأولى اسمية خبرها فعلى تأكيـــدا للاســناد وهو اللعب الذى جاء فى صورة المضارع لأن الحدث حـركى مستمر أما الحال الثانية فقد جاءت حالا مفردة (٣٥) وخص القلوب لأنها مواطن التأثر فاذا امتلأت لهوا وعبثا كان ذلك أدل على الأعراض عن القرآن الذى لم يقع عندهم حتى على هامش الشعور واغـــلاق المنافذ عن ذكر الرب عمى وتسفل عن درجة الانسان •

وقال تعالى « اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » (٣٦) ورقيب : يرقب القـــول ويكتبه ، وعتيد : معد مهيأ للكتابة ، وهناك رقيب فى الخير ورقيب فى الشر ، بدليل «المتلقيان» فترك أحدهما لدلالة الثانى عليه وتمـــام المعنى : ونحن أقرب اليه من وريد قلبه حين يتلقى المتلقيان •

والآية تبين عمل الحافظين ليكون حجة على الانسان ثم يتداخل الترغيب مع الترهيب • وتلحظ فى الآية زيادة على ما سبق :

١ ــ ذكر الرقيب وحذف فعله ومهمته وهو الكناية والتســجيل لدلالة الأســـلوب عليه •

٢ ــ صياغة «رقيب» دون مراقب ، وعتيد دون معد يدل على بليغ اهتمام الملكين بالتسجيل لا تفوتهما مثقال ذرة وقد وضحت الســـنة أن ملك السيئات ينتظر التوبة ساعات رحمة من الله بعباده : كمـــا أن التعبير بالظرف «لديه» يدل على القرب الشديد من التعبير بشبيهـــه

---

(٣٥) راجع فى الآية تفسـير أبى السـعود ٥٤/٦ والألوسى والاستغناء ٦٤٦

(٣٦) ق ١٧ ــ ١٨ •

«عند» وهي دلالة مطردة فى القرآن سواء كان قربا حسيا أم معنويا. ولم تذكر واو الحال هنا تشبيها للاسمية بالفعلية فى اتصالها وتداخلها مع صاحب الحال وهو الملائم للمقام . وهـذه الحال يسميها القرافى الحـال الوقتيـة (٣٧) .

بقى ملمح فنى بالغ فى الجملة الحالية اذا كانت فعـلا كقـوله تعالى « وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون » (٣٨) وقال سبحانه « وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين » (٣٩) .

قالوا : الحال تشبه الشرط هنا فى ترتب جزائه على شره وتعقيبه له ، كقولك ان تذاكر تنجح ، واذا كان معروفا عن الحال أنها مقـارنة لزمن حدوث الفعل لأنها هيئة من هيئاته كقوله تعالى : «ثم أدبر يسعى» فالسعى صورة للادبار وفى ذات زمنه ولمـا كان الأخـذ بالبأسـاء متأخرا عن زمن الارسال والاعراض يأتى بعد اتيـان الآيات قال العلماء ان فى هذه الأساليب التى تشبه الشرط يقدر الحال محـذوفا بالعزم والنية والارادة ــ حسب ملاءمة المعنى والسـياق ــ ويكون ما بعد الا متعلقا بهذا العزم المحذوف .

ففى الآية الأولى يقدر : الا مريدين أخذها والثانية الا عازمين أى الكفار على الاعراض فالحذف متعلق بالارادات الخفية وهى مطوية خارجا فطويت أساوبا تلاؤما والله أعلم كقوله « اذا قمتم الى الصلاة فاغسـلوا وجوهكم » ثم ان حذفها أعان من ناحيـة أخرى على معنى

---

(٣٧) راجع فى الآية : الطبرى ٢٦/٩٩ والكشاف٤/٦ والبحر٨/١٢٤ وأبى السعود ٨/١٢٩ والقرافى ٦٥٠ .

(٣٨) الأعراف ٩٤ (٣٩) الأنعام ٤

اللزوم فى النسق وأنها لا تتخلف ولا تتغير كأنها خرجت عن طبيعة الحال واشبهت الصفات وهذا قد يدخل تحت ما علل به الاخفش وقوع الفعل — على وجه العموم — بعد الا بأنه كلام فى معنى الشرط فأشبه الشرط فلذا وقع بعده الفعل ألا ترى أن معنى : لا يصيبهم ظمأ ... الآية ان أصابهم ذلك كتب لهم « » وقد نبهنا بدء هذا البحث الى سر الصياغة للفعل بعد الا وهو اظهار جانب التسبب وما له من أثر نفسى ووقوع الحدث ضربة لازب على أن هذا اللزوم يقوى هذا الحسم المفاد من أساليب الحصر حينما يتطلب النسق والمقام ذلك .

ورأى القراق ان الفعل الماضى فى الآية الثانية « كانوا عنها معرضين » بمعنى المضارع «يكونون» تلاؤما مع المضارع المنفى بعد ما «تأتيهم» لكنه رحمه الله لم يبين سر الماضى هنا ولا تأويل فكرة مقارنة الحال لفعلها زمنا وهو ما قدمناه ، ويبدو — والله أعلم — أن التعبير بالماضى تأكيد لمعنى اللزوم الذى دل عليه التركيب وبخاصة أن فعل الكون الماضى قد يتحرر من فكرة الزمن وهذا خاص بالآية ومايشبهها وعلى العموم فتأكيد اللزوم بالمعنى يجعله شبيها بالحقائق التى لا تنقض ذما لاعراضهم الراسخ .

وتأمل هذه الآية على لسان يوسف عليه السلام «لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى » ومع أن انباءهم لهم سابق على اتيان الطعام الا أن الزمن مستقبل اذ لم يحدث ذلك قبل زمن الخطاب .

وهناك بعض الأساليب التى دارت حولها آراء الأئمة من علماء العربية كقوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم » .

فكثير من العلماء يعرب الجملة بعد الواو حالا . وقد التمس الرضى بعقله الفذ لذلك سرا نحويا لأن ما بعد الا منفصل معنى عما

قبله لمباينته له نفيا واثبـــاتا والا مؤذن من حيث المعنى بنوع من الانفصال وكذلك الواو والفعل لا يعمل مع حرفين مؤذنين بالفصـــل ولذا لا يقع عطف النسق بعد الا أما واو الحال فان الفعل معها لا يظهر عمله لفظا فيما بعدها بل هو مقدر ، وهذا الانفصال وعدم الضم مما يشبه الاستئناف هو ما ذهب اليه عبد القاهر فى تعليل الواو ، لـكن الامام الزمخشرى اتبع المذهب الكوفى وأعرب الجملة صـفة لقرية ، وتوسطت الواو ــ على غير قياس ــ لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف وقد تعقبه بعضهم ، لكن تابعه أبو البقاء وانتصر له صاحب الكشف بأن المعنى عـلى الوصف أبلغ يعنى بذلك اللزوم فى الوصف ولصـــوقه للموصوف لا يفارقه وهو ما يناسب المقام ترجيحا (٤٠) .

تقـديم المقصـور عليه :

لم يأت تقديم المقصور عليه على المقصـور ــ فى النفى والا ــ فى القرآن الكريم ، وأجازه العلماء ــ عـــلى قلة ــ بشرط أن يلى المقصور عليه الا كقول الكميت :

ومالى الا آل أحمد شـيعة ومالى الا مذهب الحق مذهب

والقصر فيه غير اصطلاحى لأن الاسـتثناء تام ، وانما قل ذلك لاستلزامه قصر الصفة قبل تمامها اذ فصل بين أجزائها بالمقصـــور عليه ، ولم يمتنع هذا التركيب لأن وجود الا بعدها المقصور عليـــه قرينة تمنع الوهم واللبس (٤١) .

---

(٤٠) راجع فى هذه القضـية الكشاف والانتصـاف ٢/٣٨٧ والبحر المحيط ٦/١١٤ والشـــهاب ٥/٢٨٣ ، ١٩١ والأطـول ١/٢١٤ والألوسى ١٤/١٠ وشرح الكافية ١/٢٣٥ والاستغناء ٢٩٧ .

(٢) راجع الامبابى ٣/٩٠ .

انما

الطريق الثانى من طرق القصر له دلالته ، واستعمالاته الخاصة تفيد الاثبات والنفى حملا على النفى والاستثناء ، وقد التمس بعض الأصوليين ـ لافادتها ذلك ـ أن أصلها ان المؤكدة التى تفيد الاثبات وما النافية ، وهو تعليل افتراضى فالعلمـاء على أنها ما الكافة اتصلت بان كما تتصـل بأخواتها .

والقول بافادتها الاثبات والنفى حملا على طريق النفى والاستثناء قديم قدم التفسير القرآنى فقد رووا عن عبد الله بن عباس وابن مسعود ومجاهد وغيرهم رضى الله عنهم انهم قالوا فى « انمـا حـرم عليكم الميتة » ما حرم عليكم الا الميتة ، وقد رواه الزجاج والفراء والطبرى ومن تبعهـم .

الامام أبو حيـان وانما :

نقل كثير من العلماء أن الامام أبا حيان يرى أن انما لا تفيـد القصر بل مجرد التوكيد ومن هؤلاء ابن هشام والشـهاب الخفـاجى والألوسى وغيرهم وتلميذه الامام تاج الدين السـبكى ووالده الامام عـلى بن عبـد الـكافى السـبكى قال تاج الدين ان الامام أبا حيان كان مصمما على رأيه ويتغالى فى الرد على من يقول بافادتها الحصر ثم رد عليه ومن جملة ما قاله أن من أحسن ما وقع فى الاستدلال على أنها للحصر قوله تعالى « وان تولوا فانما عليك البلاغ » فانها لو لم تكن للحصر كانت بمنزلة قولك « وان تولوا فعليك البلاغ ، وهـو عليه البلاغ تولوا أو لم يتولوا ، والمراد تسليتـه ـ عليه الصـلاة

---

(١) راجع الطبرى ١/٥٠ والدلائل ٢٥٠ والصاحبى ١٨٣ وتفسير الرازى ٥/١١ والأطول ١/٢٢١ .

والسلام — وأن توليهم لا يضر وهو دلالة الحصر » كما وهمه ابن هشام فى المغنى قائلا « لم يرتض كلامه ثقة من العلماء » •

ونحوهما الشهاب والألوسى (٢) •

ومن يتبع أساليب انما وتعليقات أبى حيان فى البحر المحيط يجد عجبا :

فقد ذكر فى تأويل الآية « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون » (٣) •

أن انما لا تفيد القصر ، ولا فرق بين ان ولعل من أخواتها اذا اتصلت بها ما ، واذا فهم الحصر فانما يفهم من سياق الكلام (٤) •

وتأمل شرحه للآية التالية قوله تعالى « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها •• » الآية (٥) •

قال : ولفظة انما : ان كانت وضعت للحصر فالحصر مستفاد من لفظها ، وان كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف اذ مناط الحكم بالوصف : التعليل وهو يقتضى الاقتصار عليه (٦) وهو ملتفت الى الأصوليين فى فكرة التعليل بالوصف ويهمنا تردده هنا فى انما وتجويزه افادتها الحصر •

ثم تأمل هذا الوقف الأخير وهو يتكىء على ذوقه الفنى ومايطبعه الأسلوب القرآنى فى قلبه وحسه حين يشرح الآية : انما يأتكيم به الله ان شاء » (٧) يقول مفسرا « ليس ذلك الى أنما هو للاله الذى يعاقبكم على عصيانكم ان شاء » كما كرر تلميذه العبارة بذاتها (٨) واذن فملكته الفنية كانت تغلب فى بعض الأحيان تقعيداته البلاغية •

---

(٢) راجع : مغنى اللبيب ٣٠٩/١ ، والشهاب ٢٨٧/٥ ، ٢٧٩/٦ والألوسى ٢١/١٤ والابهاج ٣٥٨/٣ •

(٣) البقرة ١١ (٤) البحر ٦١/١

(٥) التوبة ٦٠ • (٦) البحر ٥٧/٥

(٧) هود ٣٢ • (٨) البحر ٢١٩/٥ •

هل يمكن بعد هذا أن نقول ان له وجهين من الرأى ، أو أنه متوقف فى افادتها الحصر أو أن تحليله الأخير يعد رجوعا عن رأيه الأول يمكن القول بكل ذلك .

واذن فهو لم ينف افادتها الحصر على وجه القطع واليقين . والواقع أن استيفاء رأى عالم كبير كأبى حيان من الخطورة بمكان دقة وأمانة .

وردا على رأى القلة من العلماء التى لا ترى فى انما أداة قصر نصب الامام عبد القاهر أدلة على افادتها القصر ثم زاد عليها السكاكى لتكون ثلاثة ترددت فى كتب البلاغيين (٩) :

أولا : قول قدامى المفسرين من عرب الصحابة والتابعين العارفين بموضوعات الألفاظ ودلالاتها كابن عباس وابن مسعود ومجاهد رضى الله عنهم وهم حجة فى ذلك : قالوا فى الآية الكريمة « انما حرم عليكم الميتة » بنصب الميتة : معناه : ما حرم عليكم الا الميتة وهذا موافق فى الدلالة القراءة رفع الميتة مع بناء حرم للفاعل ، على أن ما موصولة وجملة حرم : صلة ، والميتة : خبر ان والقصر هنا طريقة تعريف الطرفين والمعنى : ان الذى حرمه الميتة ، وهذا ما تفيده القراءة الأولى والأصل توافق القراءات فى المعنى .

ثانيا : نص علماء النحو القدامى على أن «انما» لاثبات ما بعدها ونفى ما عداه ، وهذا عين ما يفيده النفى والاستثناء .

ثالثا : صحة انفصال الضمير معها مع امكان اتصاله ، دون أن يكون فصله من المواطن المعروفة فى النحو ، ومنها أن يقع الضمير

---

(٩) راجع الدلائل ٢١٥ والمفتاح ٣٩١ والمطول ٢١٣ ـ ٢١٣ .

بعد الا فيأتى منفصلا كقول الله تعالى : « لا اله الا أنت • لا اله الا أنا » وقال الشـــاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس الا أنا

وعدوا من الشاذ نحوا وبلاغة قوله :

* الا يجاورنا الاك ديار *

وقد جاء الضمير بعد انما منفصلا قياسا على الا كقول الفرزدق :

أنا الذائد الحامى الذمار وانما يدافع عن أحســابهم أنا أو مثلى

والشاعر يفتخر أنه بطل غيور يحمى حماه ، ويذود عن حقيقتــه وحسبه ، وقد أدى التركيب ما أراده فانفصل الضمير فاعلا ، ليقصر الدفاع والذود عن الأحساب على نفسه دون سواه ، وهــذا مناسب لمقام الفخر وطبيعة الفرزدق ولو قال ــ كما افترضوا ــ وانما أدافع عن أحسابهم أنا ، لكان أنا توكيدا للضمير المستتر وجوبا وهو الفاعل فى أدافع والتأكيد لا يكون مقصورا عليه لأنه عين المؤكد ، وعليه يكون المعنى : أدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم وهذا غير مراد ،وغير مناسب لمقام الفخر العالى النبرة ، ولذا فصياغة الشاعر البصير باللغة مرادة لتصوير ذات نفسه المطبوعة على الآباء فهو يريد القصر وهــو متضمن معنى ما والا (١٠) •

---

(١٠) راجع الايضاح ت خفاجى ٢١٦ ــ ٢١٧ •

انمـــا وأنمـــا :

وأنما بفتح الهمزة قد تؤول بمصـــــدر اسم مفرد ، ولذا نازع ـــ فى افادتها القصر ـــ بعض العلماء لكن يرى الزمخشرى ومدرسته فى التفسير البلاغى أنها مثل المكسورة فقوله تعالى « قل انمـــا يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون » (١١) يؤيد أنها مثل انما المكسورة لمجيئها بمعناها لوقوعها بعد الوحى الذى هو فى معنى القول ثم انها مقولة «قل» فى الحقيقة ـــ كما ذكـــر الشهاب ـــ ولا شـــك فى افادتها التوكيد ، فاذا اقتضى المقام القصر كما هنا انضم الى التوكيد « قال : ولكنه ليس بالوضع كما فى المكسورة فقـــــد جاء ما لا يحتمله كقوله تعالى « وظن داود أنما فتناه » ولذا فسره الزمخشرى بقـــوله « ابتليناه لا محالة » مع تصريحه بالقصر هنا وهو الحق (١٢) .

وموجز كلامه أن أنما « بالفتح : تفيد التأكيد قطعا ، والقصر ان اقتضى المقام كآية الوحدانية ، وربما لا يقتضى المقام القصر ولايحتمله كآية « داود » .

والشهاب ـــ مع كثرة نقله عن أبى السعود ـــ لم يورد هنـــا عن أبى السعود ما يعد ردا على الزمخشرى ، فقد حلل الآية على القصر بتأويل «فتن» الى فعل الفتنة وتوجيه النفى الى مطلق الفعل ، «فعل» والاثبات الى المعنى المقيد المقارن له من المعنى المخصوص وهو أثره فى الحقيقة أى فعلنا به الفتنة لا غير (١٣) .

وقد طبق هذا التحليل على بعض الشواهد القرآنية بدلالة المقام كما سبق فى الآية « انما أتبع ما يوحى الى » ، ومثله قوله تعـــالى على لسان هارون عليه السلام «لعابدى العجل فى غيبة موسى عليه السلام»

---

(١١) الأنبياء ١٠٨

(١٢) راجع الكشاف ٣/٣٧١ والشهاب ٦/٢٧٩ .

(١٣) راجع تفسير أبى السعود ٧/٢٢١ ـ ٢٢ .

« يا قوم انما فتنتم به » أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل لا الارشـــاد الى الحق ، لا على معنى : انما فتنتم بالعجل لا بغيره (١٤) اذ هـــو غـــير مـــراد .

وعلى هذا فلا مانع من القول بأن أنما مثل انما دائمـــا فى افادة القصر وان كانت محمولة عليها حمل الفرع على الأصل .

انمـــا وأنواع القصـــــر :

وانما كالنفى والاستثناء جاءت فى أنواع القصر كما ذكر السكاكى وان لم يذكر شاهدا على القصر الحقيقى وقد جاء فى القـــرآن الكريم قوله تعالى « انما الهكم الله الذى لا اله الا هو » (١٥) .

وقال تعالى : عن وجوب اتباع القرآن : « فاتبعوه واتقـــوا لعلكم ترحمون ، أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، وان كنا عن دراستهم لغافلين (١٦) : بقصر انزال الكتب على طائفتى اليهود والنصارى يعنى : التوراة والانجيل لأنهما أشهر الكتب قديمـــا مع اشتمالهما على تشريعات وأحكام منظمة واذا لم يذكر غـــيرهما كصحف ابراهيم ، وزبور داود وغيرها فهو قصر حقيقى غير تحقيقى .

كما جاءت فى قصر الافراد التنزيلى كما فى قوله تعـــالى « وانما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينـــــا الحساب » (١٧) وكثر مجيئها فى قصر القلب فيما ســـبق من قصره ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أو غيره من الأنبياء عليهم الســـلام على البشرية كقوله تعالى « انما أنا بشر مثلكم » (١٨) واستعمال انما غالبا وكثيرا فى قصر القلب شىء لاحظناه من خلال ما قدمنا من أســـاليب قرآنية وما لم نقدم من شواهد وهو ما يسبق أيضا ـــ بادىء الرأى ـــ الى الخـــاطر .

---

(١٤) المرجع ٦/٣٧ (١٥) طه ٩٨ (١٦) الأنعام ١٥٦ .
(١٧) الرعد ٤٠ (١٨) الكهف ١١٠ .

الامام عبـــد القاهر وانما :

من خلال تحليلات الامام لأسلوب القصر بلا العاطفة ذكر أنهـا تكون فى قصر القلب ثم قاس عليها انمـا فهى تأتى فى قصر القلب ثم قيد ذلك بقوله « ثم الاعتبار به اذا أطلق فلم يقيد ـ بوحده ـ وما فى معناه » (١٩) يعنى مما يدل على الإفراد فى السياق وقد دافع العصام بأن انما بمعنى ما والا والمتبادر منه نفى الشركة وقياس الامام انمـا على العطف لا فى افادة القصر بل فى افادة نوع القصر (٢٠) فكأنه كلام على سبيل التمثيل فالنقاش فى المثال الذى أورده لا فى الحكم •

ويمكن أن نفهم من تقييد الامام السابق بنحو وحـــده وما فى معناه : الاشارة الى المقام والقرائن فى تحديد نوع القصر وهى اشارة ذكية تقرب تحليلاته من الصواب وبخاصة أنه رحمـه الله كان يتكىء كثيرا على ذوقه الفنى الخالص فى بيان الدلالات وأسرارها وهو بصدد ارساء معالم عتيدة للبلاغة العربية وهو أمر شغله عن فكرة استقصاء الأساليب التى أخذ بها علماء الفقه والأصول وظهرت منها محاولة ثرية عند الزمخشرى فى أساس البلاغة والراغب فى المفردات كتأليف تام•

أما الاستقصاء فى الجزئيات فقد بدأ مبكرا عنـد الجاحظ حين حاول تحديد مدلول اللفظ القرآنى « مطر ، وجوع وخوف من خلال استقصاء قرآنى حاسم •

وقد أحس الامام عبد القاهر أنه لم يستوف القول فى « انما » وانظر الى هذه العبارة الدالة « واعلم أنه ليس يكاد ينتهى ما يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق » (٢١) •

---

(١٩) الدلائل ٢٢٠ (٢٠) راجع الاطول ١/٢٢٠ •

(٢١) الدلائل ٢٢٩ •

مقـــام انمـــا :

واذا كان النفى والاستثناء يأتى فى المقامات الجهـــيرة العالية النبرة ، المشدودة بالأحاسيس الموارة ، ومواقف الجدال والمراء ، أو تأكيد موقف غريب هاجم ، او تصوير حال المتكلم ووجدانه المهتـــز القلق بالهواجس والخواطر ، او أفكاره الملونة بالمشاعر والوساوس كما جاء فى الحكاية عن البشر ، أو التركيز على تقديم غيب غريب خفى فى المـاضى ، أو تصوير مشهد مثير آت فان «انما» بجرسها وغنتهـا وقوتها ودلالتها لا تكون الا فى المواقف الهادئة الناعمة دون جلبـة أو ثورة انها تتصدر الحقائق والأفـكار والمشـــاعر والمواقف ، تبعث فيها حياة جديدة وتســوقها الى النفس المتلقية سوقا هادئا وتطبعهـا بتؤدة وريث ، سواء كان ذلك حقا أو ختلا وموارية واعراضا وعـدم مبالاة كما جاءت على لسان الكفر وأشياعه •

ولا شك أننا نلحظ أبدا ــ خلافا شديدا بين سياقات الكلام ــ وصياغات العبارات وتتابع المعانى والمشاعر بين جذب واين ، وعنف ورخاوة انفعال طاغ واتزان شعورى مما يلائم أداة دون أخرى • تأمل لو وضعنا انما بدل النفى والاستثناء فى الآية الكريمة « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ، وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٢٢) •

لو فعلنا : لضاع المعنى ، وانكسر التدفق ، واعوجت العبارة وبرد الايقاع وذهبت الصحة والبلاغة معا ، لأن انما ــ بهـدوئها ولينها ــ لا تقوى على عنف السياق ، والغضب الالهى الملحق فيه،فهو بدأ الآية بالحكم الصارم المؤكد بالكفر ــ وما أشنعه ــ على من اعتقد تعـــدد الآلهة لهذا الكون ؛ ذاكرا من أوصافهم أبشعها ، ومن أقوالهم أفظعها،

---

(٢٢) المائدة ٧٣ •

هو القول الجماعى دون حق ودون رصيد من صدق القلوب ــ بأن الله ثالث ثلاثة ، يذكر لفظ الجلالة المهيب هزا للقلوب والأكوان فى مقابلة آلهة مرصوصة فى عدد أعجم لا يبين انها مخلوقات وكفى ، ثم تحور النظم وتعددت أدوات التأكيد والعموم لنفى المقابل الفانى واثبات الألوهية الواحدة بأقوى الأساليب معقبا بالتهديد ومنهيا بالقسم العظيم وهو المقسم والمقسم به على وعيدهم بعذابه الأليم ان لم ينتهوا مكررا مع القسم سمة الكفر التى تستأهل أليم العذاب .

ثم تأمل الآية الكريمة « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا ... » (٢٣) .

والآيات تمسح بيد الحنو على هذه القلة المؤمنة المحتسبة التى تركت الوطن والديار والأهل والأموال مهاجرة فى سبيل ربها الى موطن النور ثم الذين يؤثرون على أنفسهم من الأنصار يحبون من هاجر اليهم ويقاسمونهم بيوتهم وأموالهم ، وقد تطلعوا الى الأنفال جميعا بعد أن أفاء الله عليهم ظفرا فى غزوة بدر ــ فى لحظة ضعف بشرى ، فكان العتاب الرقيق ، والتوجه الحانى الى ما هو أبقى وأعلى انه سياق ارشادى يرسم ملامح المؤمنين ظاهرا وباطنا متطلعين الى رحاب أقوى بحساسية ايمانية ، تهتز القلوب وجلة كلما ذكر اسم الله ، وتزداد ايمانا كلما سمعت آياته متوكلة ، مصلية منفقة ان المقام ودود رفيق ولذا لو وضعت النفى والاستثناء بدل انما كنت قد وضعت الشىء فى غير محله كالنار موضع الأزهار ولذا قالوا ان «انما تستعمل فى الأمر الجلى أو الخفى المنزل منزلة الجلى » .

---

(٢٣) الأنفال ١ ــ ٤ وراجع الكشاف ٢/١٤١ .

انمـــا فى الأمر الجلى :

والمراد بالأمر الجلى : أنه جلى فى نفسه ، مقبول لدى المتكلم ، كأنه لا ينبغى أن يكون مثار جدل أو انكار حتى ان أنكره المخـــاطب فانكاره فى غير موضعه تأمل هذه الآية فى شأن المنافقين وغالبا ما يكون المنافق المظلم القلب عليم اللسان « واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » فقد نهى المنافقون عن الافساد وهو افساد عام ملأ الأرض (٢٤) وعن التأليب على المؤمنين وتتبع عوراتهم وافشاء أسرارهم الى أعدائهـــم فردوا مدعين : أن صلاحهم ، وحسن نواياهم واعتدال ســـلوكهم أمر واضح لا يخفى ، وهذا القصر لا يصور واقعهم النفسى ولا الخـــارجى بل كان قناعا يخفى خبيثا ، ولذا شدد الله تعالى وهو العليم بالسرائر ، شدد النكير عليهم وانقلب الأسلوب لا يقصرهم على الفساد بل يقصر الافساد ـــ وهو فعل الفساد عن عمد ـــ عليهم فهم أس البلاء والشرور بأقوى الأساليب التى تضافرت فيها وسائل التوكيد من « ألا » التى تنبه لافته الى خطورة مدخولها ثم ان وضمير الفصـــل الذى يؤكد الاختصـــاص المفـــاد من تعريف الطرفين ثم اســـمية الجملة مع نفى الادراك والحس عنهم تأنيبا وتأمل تكرار ضـــميرهم « هم » مرتين متصلا بالفساد سمة لهم أبدية فهو ديدن وطبع لهم وهم أرضـــــه ومعدنه ، وقال الله تعالى فى شأنهم أيضا « واذا لقـــوا الذين آمنـــوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انمـــا نحـــن مستهزئون الله يستهزىء بهم » (٢٥) .

فهم يقولون حين يلتقون بالمؤمنين «آمنا» دون تأكيد لأنه مجرد كلام يتيح لهم الحياة ويصرف عنهم العقاب دون رصيد فى قلوبهم فهو

---

(٢٤) راجع حاشية السيد على الكشاف ١/١٨٠ .
(٢٥) البقرة ١٤ ـ ١٥ .

اسراف شديد لا يقبلون على تاكيده ثم هو لا يجد رواجا لدى المؤمنين ذوى الفراسة ، فاذا ما اختلوا برؤسائهم من اليهود الذين سمتهم الاية : «شياطينهم» استهواء وسيطرة واقتداء فهم لهم امعات ذابت فى رؤسائهم شخصيا اذ ليست لهم حماية ذاتية من عقيدة صحيحة اذا ما اختلوا بهم قذفوا بما فى أعماقهم من خبث أثير لديهم حبيب الى اليهود « انما نحن مستهزئون » فاعترافهم اشكلى بالايمان مجرد استهزاء ساخر • بقصر نفوسهم على الاستهزاء دون الجدية والصدق وأن هذا أمر لا ريب فيه وانما يلاحقهم الرد الالهى قارعا نفوسهم كابتا لهم واضعهم فى حجمهم مخلوقات شاردة « الله يستهزىء بهم » وتأمل وقع هذا الاستئناف بلفظ الجلالة الأقدس — على النفس قاهرا مزلزلا ، وذكر الاستهزاء مجازاة ومشاكلة ثم مددهم بالإملاء والمد والامهال لهم كيدا واستدراجا ليكون العقاب عظيما (٢٦) •

وقال تعالى : « قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والأثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢٧)•

فهو قصر لجملة من الرذائل واضحة الشر سيئة الآثار يدركها كل عقل واع وكل ذى نظرة بصيرة لا تتحمل انكارا ولا مراء ، ومن يقتبلون هذه الكبائر انما لما ران على نظرهم وغشى على قلوبهم من أهواء •

وفى آية السحر عن هاروت وماروت « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر » (٢٨) فهما يعلمان الناس السحر ، ابتلاء واختبارا للانسان ، وصلابة ايمانه فى الصراع بين الحق والباطل

---

(٢٦) راجع الكشاف ١/١٨٧ •

(٢٧) الأعراف ٣٣ (٢٨) البقرة ١٠٣ •

وهما ينصحان كل من يريد التعلم بأنهما فتنة وأن مزاولة السحر شر يودى الى الكفر ، وان ذلك أمر واضح حالا وخارجا ولذا كان القصر بانما ، وقال تعالى :

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها » (٢٩) وهو قصر للأمر الخاص من الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعبادته على رب مكة البلد الحرام دون غيره على الاطلاق والمقصور عليه رب هذه البندة وهو رب العالمين وقد خص البلد الحرام تشريفا وتقديسا رترغيبا .

وتجد فى هده الأمور الجلية أن المقصود ليس الحكم الواضح الذى لا يرقى الى الانكار بل افادة معنى ثانوى هو التعريض الذى يحتاج قدرا من الفكر الواعى واللزوم الذهنى البصير مثيرا لراكد الانفعالات وهو على ترتيب الآيات : سخرية المنافقين وكفرهم ، والتعريض بمن يتعلم السحر وميله الآثم ، والتعريض بمن يقارف الفاحشة، اهنة لذويها، وترغيبا فى الفضائل المقابلة ثم الدعوة بالحكمة الى عبادة الله ، وتنزيه البلد الحرام من رجس الجاهلية والله أعلم .

دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وأساليب القصر :

من عجب أننى تتبعت ـ فى المصحف الشريف ـ ما جاء بشأن ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام اخبارا أو مقاولة وحوارا أو دعاء متبتلا فما وجدت أسلوب قصر واحد بالنفى والاستثناء بل وجدت القصر بانما وتعريف الطرفين كقوله حتى فى معرض الحجاج مع نمروذ « ربى الذى يحيى ويميت » وكذلك ضمير الفصل كما سبق « الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين » (٣٠) .

---

(٢٩) النمل ٩١ .

(٣٠) الشعراء ٧٨ ـ ٧٩ .

وهذا متلائم ــ فى اعجاز ــ مع ما رسمه القرآن لشخصية ابراهيم الخليل من وقار وحلم وأناة وهدوء وتسامح كما قال الله تعالى « ان ابراهيم لحليم أواه منيب » (٣١) وقد أشار الى ذلك الأستاذ المرحوم سيد قطب (٣٢) وان كنا نخالفه فى جعله موسى عليه الصلاة والسلام نموذجا للزعيم المندفع العصبى المزاج وقد سبق تعليقنا وردنا ٠

وتأمل أناة ابراهيم وسلامة النفس فى تعليقه على احياء الله الطيور الموزعة الأجزاء « أعلم أن الله على كل شىء قدير » (٣٣) ٠

ومن أساليب القصر بانما فى دعوته عليه السلام قوله تعالى : « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعلمون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا » (٣٤) ٠

وفى آية أخرى « انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا » (٣٥) ٠

فالمفهوم من قوله ذلكم أى التوحيد خير لكم وأن ما هم عليه شر محض لا خير فيه ، فأثبت ما يدل عليه من حصر عبادتهم فى أوثان من الحجارة ، فهو كما يقول الشهاب ، استدل على شرارة ما هم عليه من حيث انه زور وباطل » (٣٦) فهى كناية مصورة ثم ان هذا الاستدلال فيه قدر من الوضوح ووضع أيديهم على عظيم باطلهم وتافه فكرهم ٠

---

(٣١) هود ٧٥ ٠
(٣٢) التصوير الفنى ٢٠٣ (٣٣) البقرة
(٣٤) العنكبوت ١٧ (٣٥) العنكبوت ٢٥ ٠
(٣٦) راجع الشهاب ٩٥/٧ وروح المعانى ١٥٠/٢٠ ٠

ومن المثير — ان كنت مهتما بدلالة الإحصاء — أن كلمة الأوثان جاءت ثلاثا فى القرآن منها اثنتان فى دعوة ابراهيم فى الايتين السابقتين ، والثالثة فى معرض مناسك الحج لقريش « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » (٣٧) وهم من نسل ابراهيم وأهل بيت آقامه ابراهيم بأمر الله كما جاء لفظ الأصنام خمسا منها أربع فى دعوة ابراهيم والخامسة حكاية عن اليهود من قوم موسى وقد وجدوا أقواما « يعكفون على أصنام لهم فقالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون » (٣٨) وهذا يدل أولا على أن الأحداث فى قصة ابراهيم التى تعددت حلقاتها فى مواطن كثيرة من القرآن فوق ما فيها من عظات وعبر وتسرية عن نبى الاسلام بانتصار الحق على الباطل مهما طال أمدا وأكثر رغاء وزبدا كانت انذارا مباشرا للكفار العرب وبخاصة قريشا التى نصبت الأصنام والأزلام حول الكعبة تزييفا لهذه الأوهام الباطلة .

ذلك أن ابراهيم وهم يفخرون بالانتساب اليه رفع القواعد من البيت ليكون مطهرا « للطائفين والقائمين والركع السجود » (٣٩) وهو هو البيت الذى به كانوا سادة القبائل العربية .

وفيه ثانيا التوجيه الى التأسى من خلتم الأنبياء بأبيه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام فى الصبر والمصابرة والمثابرة فى الدعوة والحلم وقد كان الرسول الكريم أشبه الناس بابراهيم خلقا وحقا كما جاء فى الأثر .

---

(٣٧) الحج ٣٠ (٣٨) الأعراف ١٣٨ ..

(٣٩) جزء آية من الحج ٣٦ .

تدليـــــلات :

ومن أساليب انما فى الأمر الجلى قوله تعالى « انما المؤمنـــون أخـــــوة » (٤٠) .

وقد نزلت الآيات بشأن ما وقع من ايذاء بالقول من عبد الله بن أبى رأس النفاق لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ورد عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ثم لما مضى لرسول الكريم طال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا وجاء قوماهما من الأوس والخزرج فتجالدوا بالعصى فرجع اليهم الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصلح بينهم ونزلت والمعنى : ليس المؤمنون الا اخوة كما قال الزمخشرى (٤١) أى لا أعداء لا كما قال الرازى : انما للحصر أى لا اخوة الا بين المؤمنين وأما بين المؤمن والكافر فلا ، وقد يومى النسق الى هذا كما دلت عليـــه آيات التوبة (٤٢) لأن مفهوم الآية انهم اخوة كاخـــوة النسب فى الحب والموالاة دون العداوة والبغضاء والعراك والأخوة عند بعض أهـــل اللغة جمع أخ من النسب والاخوان جمع أخ من الصداقة فالأسلوب يؤكد المودة والتحاب بين المؤمنين اشارة ــ كما يقول الرازى نفسه ــ الى أن ما بينهم ما بين الاخوة من النسب والاسلام كالأب ولا بأس هنا أن نناقش ما يقول الرازى هنا حين يعقد موازنة بين (بما) و (انما) فى أنه لو حذفت بما فى الأول كما فى الآية « فبما رحمة من الله لنت لهم » لمـــا كان كلاما ولو حذفت انما فى قولك لمـــا ضر وصح اذ الباء متعلقة بما بعدها وهو محتاج اليها فكذا ما اتصل بها بينما لو حذفت انما لمـــا ضر (٤٣) .

---

(٤٠) جزء آية الحجرات ١٠ .

(٤١) الكشاف ٣/٥٦٥ (٤٢) ٦٧ ــ ٧١ .

(٤٣) راجع الرازى ٢٨/١٢٩ ــ ١٣٠ .

ولعله يقصد الصحة النحوية فى أصل المعنى اذ البلاغة تزين الصياغات بموازين دقيقة فاذا اقتضى المقام انما ثم حذفت لما صح الأسلوب بلاغة والرازى مثل غيره يفترض أصل المعنى والمعنى الزائد وأصل المعنى فى الواقع فكرة ذهنية تجريدية حاربها الامام عبد القاهر اذ المقام هو الذى يقتضى نظما خاصا ملائما لو أغفل شىء منه لانطفأت البلاغة وسقط الأسلوب ، والواقع أن بعض البلاغيين تأثر بالمنهج النحوى فى فكرة أصل المعنى وقد سبب ذلك عديدا من الأخطاء فى تناول بعض القضايا البلاغية .

ونعود الى الآية ففيها كناية عن وجوب التراحم والتواد ، فان رمى الأسلوب الى معنى آخر لا يؤخذ من ذات التركيب بل من ظلاله ومقتضاه فهو تعريض يثير طاقات الفكر والوجدان كهذا المقطع من حوار ابنى آدم من سورة المائدة ، بين قابيل وهابيل « قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين » (٤٤) .

والرد تترقرق فى نسيجه الحكمة والثقة والحلم فهو وارد على الأسلوب الحكيم لأنه تلقاه بغير ما يترقب من جواب وبما هو أهم والمعنى : أنك أتيت من قبل نفسك لبعدها عن التقوى لا من قبلى فلم تقتلنى ، فلم يصرح بذلك بل سلك مسلك التعريض حذرا من تهيج غضبه الشيطانى ثم دعوة رقيقة الى التقوى عساه أن يفىء الى ربه ، ولذا أسند الفعل الى اسم الجلالة مع التصريح بالتقوى ليفئ غضبه ويسكن روعه ويرده الى الهدى وما أفلح فهو كلام حكيم جامع لغزير المعانى بل انه حديث مثالى غريب لرجل بينه وبين عهد الجنة الطاهر جيل واحد .

---

(٤٤) المائدة : ٥ وراجع الكشاف ١/٦٠٦ وأبا السعود ٣/٢٦ والشهاب ٣/٢٣٣

ـ وقد تتصدر انما حقيقة من الحقائق أو حكمة من الحكم أو مثلا وهو قول موجز يمثل خلاصة الوعي وصدق التجربة الانسانية وشمولها وتلاؤمها الدائم مع مواقف ـ لا بد ـ كائنة متشابهة كآية هابيل وقول يعقوب عليه السلام ، « انما أشكو بثي وحزني الى الله » (٤٥) .

فهو هنا يظهر الضعف ويفوض الى الله أمره طامعا في رد غائبه الحبيب ، وحين تذكر الحقيقة أو الحكمة أو القول الساطع الوضوح لا يهدف الأسلوب الى معناه الأول أو السطحي بل الى معنى آخر يومض به الأسلوب ويدل عليه السياق وهو معنى التعريض، التعريض بمعان ثانوية تختلف باختلاف المقام .

ففي قوله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون » (٤٦) تعريض بالكفار وأنهم أعرضوا لفقدهم مظاهر الادراك والتحقوا بالدواب ذما وتعييرا وقريب منه « انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » (٤٧) : المعنى كما يقول عبد القاهر « على أن من لم تكن له هذه الخشية ، فهو كأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل فالانذار معه كلا انذار » (٤٨) والآية « انما الله اله واحد » « انما هو اله واحد » تعريض بالشرك وكأنه فقد بصره فلم يدله على آيات الله في كونه وبصيرته فلم يحس بحقيقة الوحدانية في أعماقه .

مع الامام عبد القاهر :

قال رحمه الله « نحن نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى « انما يذكر أولو الألباب » أن يعلم السامعون ظاهر معناه ولكن أن يذم

---

(٤٥) يوسف
(٤٦) الأنعام ٣٦
(٤٧) فاطر ١٨
(٤٨) الدلائل ٢٣٠

الكفار وأن يقال انهم من غاية فرط العناد ومن الهوى عليهم — فى حكم من ليس بذى عقل وأنكم اذا طمعتم فيهم فى أن ينظروا ويتذكروا كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب » (٤٩) ٠

وموجز رأيه أن انما تدخل كثيرا على ما لا يجهله المخاطب كالآية السابقة « ولا يراد بالكلام نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه » وقد تدخل على ما ينزل منزلة الواضح (٥٠) ٠

أما الخبر بالنفى والاستثناء فيكون للأمر ينكره المخاطب ويجد الانكار (٥١) ٠

وما قاله الامام وبخاصة حول وضوح المعنى فى الآية « انما يتذكر أولو الألباب » والتعريض بذم الكفار ردده القزوينى وشراح تلخيصه وغيرهم حتى يوم الناس هذا (٥٢) ٠

والواقع أن الجهل أو الوضوح أمر نسبى وما يعد واضحا فى مقام قد ينكر فى مقام آخر لاختلاف المناسبات والاعتبارات والمخاطبين وأحوالهم النفسية ، وتفاوت الأنسقة وبخاصة فى سور متعددة لأن لكل سورة روحا خاصا وتصميما معينا أو درجة خاصة من الأداء بين عنف وقوة على درجاتها وهدوء ولين وترغيب وتحبيب وترهيب وانذار، ومن هنا قد نجد فكرة واحدة خافية أو واضحة أديت بأكثر من أداء بالنفى والاستثناء وانما ٠ ولعل غيبة هذا التصور فى المعالجة القرآنية أوجد بعض التجاوزات فى اطلاق الأحكام دون تقييد أو تحديد وتأمل هذه المجموعات ٠

---

(٤٩) الدلائل ٢٣٠ ٠
(٥٠) المرجع ٢١٦ (٥١) المرجع ٢١٧ ٠
(٥٢) راجع الايضاح ٢٢١ وشروح التلخيص ٢/٢٢٣ وتقرير الامبابى ٣/٨٩ ٠

١ ــ تذكــر أولى الألبــاب :

وقد جاء تذكر أولى الألباب بانما مرتين فى القرآن الكريم .

١ ــ فى قول الله تعالى : « أم من هو قانت آناء الليل ســـاجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الألباب » (٥٣) .

فقد ذكر وصف القنت اثر وصف الجاحدين ثم نبه الى شرف العلم والعمل به كالقانت المذكور نافيا التسوية بين العالم والجاهل المعــاند تكريما وتنديما وأتى بالتذييل المقرر اتعاظ أصحاب العقول الخالصة من شوائب الغفلة بما عددته الآيات السابقات من زواجر لا تتأثر بهـــا قاوب الكافرين لاختلال عقولهم اذ عطلوها عن متابعة الحــق ذما لهم وتهجينـــــا .

٢ ــ جاءت العبارة ثانية بعد ضرب المثل للعلم النافع للمؤمن ذلك الذى يصد عنه الكافر « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقـــدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ... الآية (٥٤) ثم نبه بالاستفهام على نفى المساواة بين الموقن بآيات الله وبين الكافر الأعمى « أفمن يعــلم أنمــا أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق » فقد زكى المؤمنين وجعلهم أولى الباب وبصيرة ينتفعون بما أنزل الله من علم ، ثم مدحهم بفضائل عالية جيانا لأثر التذكر فى قلوبهم وسلوكهم .

وفى الأيتين تعريض بالكافرين المعرضين عن الحق ، وأنهم كمن

---

(٥٣) الزمر ٦ وراجع فى الآية : أبا السعود ٧/٢٤٥ .

(٥٤) الرعد وراجع فيها الرازى ١٩/٣٨ وأبا السعود ٥/١٦ .

أغلق منافذ حسن وفقد قلبه وعقله قال العصام فيها تعريضان بالكفار بأنهم فقدوا الإدراك وتعريض بمن يطمع فى النظر منهم (٥٥) ٠

كما جاءت آية الغاشية خطابا للنبى — صلى الله عليه وسلم — « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » بعدما قدم الله من آياته الكونية مشهدا جليلا « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت » (٥٦) الآية والمعنى : فاقتصر على التذكير وأعرض عنهم ولا يهمك اعراضهم انما أنت مذكر لا تملك هدايتهم ولا التسلط عليهم٠

وفيه تعريضان : الأول بالنبى الكريم عتابا حانيا ورحمة شغوفا ألا يتأثر قلبه الكبير بما يرى من اعراضهم ، وتعريض بليغ بهم لانصرافهم عن الآيات الالهية المبثوثة فى الكون ٠

والملاحظ أن التعبير الأول سبقه العلم مثبتا ومنفيا فى الآيتين الأوليين وأن التعبير الثانى فى خطاب النبى سبقه النظر المنفى وهو وسيلة العلم وهو لون من العلم يمكن أن تهتدى اليه الفطرة لو أقبلوا على الايمان وفقهوا عن الرسول الكريم ٠

تذكر أولى الألباب بالنفى والاستثناء :

جاء ذلك فى آيتين قال الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب » (٥٧) ٠

وعن موقف الراسخين فى العلم من المحكم والمتشابه فى القرآن « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » (٥٨) ٠

---

(٥٥) الأطول ١/٢٢٩ ٠
(٥٦) الغاشية وراجعه أبا السعود ٩/١٥١ ٠
(٥٧) البقرة ٢٦٩ (٥٨) آل عمران ٧

والحكمة عند الراغب (٥٩) اصابة الحق بالعلم والعقل وبحسبه معجم الفاظ القرآن ونقل الرازى وأبو السعود عن مقاتل أن الحكمة فى القرآن على أربعة أوجه : مواعظ القرآن كقوله تعالى « وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به » وبمعنى الفهم والعلم كقوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وبمعنى النبوة كقوله تعالى فى داود : وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ثم القرآن بما فيه من عجائب وأسرار كقوله تعالى « ادع الى سبيل ربك بالحكمة » قال الرازى وجميعها ترجع الى العلم (٦٠) وأدق منه ما فى الكشاف من أنها التوفيق للعلم والعمل به(٦١) ونقل أبو حيان عن ابن عطية أقوالا فى تفسير الحكمة فوق العشرين وكلها ــ ما عدا النبوة ــ ترجع الى اتقان العلم والعمل وأومأ ابن عباس الى لون من ألوان العلم فقال الحكمة : معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره (٦٢) بيد أن هذا فى تفسير الحكمة الانسانية لأن ثم حكمة ثابتة لله تغاير حكمة البشر وهى ــ كما قال الراغب ــ معرفة الأشياء وايجادها على غاية الاحكام .

والحكمة فى الآية الكريمة ما يتعلق بالأحاكم المبثوثة فى تضاعيف الآيات السابقة ٢٦١ ــ ٢٧٩ من الانفاق المخلص وأنه كحبة ذات سنابل ، وتمثيل المنفق المنافق بصفوان عليه تراب وعمل المخلص بجنة ذات ربوة والمرائى بجنة أصابها اعصار فيه نار فهى حكمة بمعنى الفقه والغوص وراء أسرار القرآن وعجائبه وأمثاله الدقيقة التى لا يعقلها الا الحكماء (٦٣) الذين يعرفون أن ما فى قلوبهم من معارف تتكشف بها الغوامض انما هى من عند الله انتقالا الى السبب الحقيقى

---

(٥٩) المفردات ١٢٧
(٦٠) الرازى ٧/٦٧ وابو السعود ١/٢٦٢
(٦١) الكشاف ١/٣٩٦
(٦٢) البحر ٢/٣٢٠ .
(٦٣) البصائر ١/٢٧١ .

وعلى هذا فالتذكر هنا تذكر خاص للون من العلم عال هى الحكمة وهى بضاعة قوم مخصوصين لهم صفات عقلية ونفسية خاصة •

وفى الآية ترغيب فى العمل بحكم القرآن وأحكامه وبخاصة ما يتعلق هنا بقضية الانفاق فى سبيل الله ، وفى الآية الثانية جاءت العبارة مدحا للراسخين فى العلم بجودة الذهن وحسن النظر وتوجيه ذكائهم الى النافع من المعرفة وهو هنا الوقوف على المحكم وتمييز المتشابه فى الكتاب العزيز ومنه فسر ابن عباس رضى الله عنهما الحكمة •

فالتذكر فى الآيتين تذكر خاص بالعلماء فى الوقوف على المحكم والمتشابه وأمثال القرآن وعلومه وغرائبه وقريب منهما آية العنكبوت بعد ضرب المثل للذين أشركوا مع أصنامهم ببيت العنكبوت « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » (٦٤) فقال بعد آية « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » (٦٥) أو الراسخون فى العلم وعنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب معصيته » (٦٦) وفى الآية تعريض بالغافلين •

وعلى هذا فالتذكر اذا جاء اثر آيات كونية أو ضرب مثل منتزع من الطبيعة المنظورة يرونه أبدا كآية الغاشية والرعد أو ما جاء مقصودا به الاعتبار والتأثر ثم الاخلاص فى العبادة كآية السجدة : انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون » (٦٧) •

---

(٦٤) آية ٤٣ (٦٥) آية ٤٥

(٦٦) أبو السعود ٧/٤١ (٦٧) السجدة ١٥ •

فهو تذكر عام أو لون منـــه قريب تقوم به انمـــا وان كان تذكرا خاصا عميقا دقيقا عليما جاء بالنفى والاستثناء ولنلحظذلك فى صـــياغة الفعل «يذكر» والادغام مصدر لمعمق منه وعلى هـــذا فالســـياقات والمقامات هى التى تحدد طريقة النظم وطبيعة الصياغة كما أن قولهم ان تذكر أولى الألباب يجىء بانما لأنه من الوضوح بمـــكان عار عن الدقة لأن للتذكر درجات ومنازل •

كما أن التعريض ليس خاصا بأساليب انما فى الحكم الواضـــح بل تتسع دائرته ليشمل عديدا من أساليب النفى والاستثناء وغيره ، وهو أمر ذوقى يومىء اليه التركيب •

وحتى اذا أردنا اجراء عباراتهم على الصواب لا بد من تقييدها بالقول ن تذكر أولى الألباب من الوضوح بمكان فى هذه الآيةأو هـــذا الســـــياق والله أعلم •

٢ ــ استجابة من يسمع :

قال تعالى من سورة الأنعام « وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتـــأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله » (٦٨) والآيتان فيهما هذا الاشفاق الحنون من نبى الرحمة ــ صلى الله عليه وسلم ــ والعتاب الرقيق والتعريض بما يثقل قلبه الكبير من صدهم والطمع فى ايمانهم راجعـــة بالهداية والتوفيق الى الله تعالى •

---

(٦٨) الأنعام ٣٥ ــ ٣٦ •

وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لو حاول المحال فلن يهديهم السبيل فلو شاء الله لجمعهم على الهدى ثم تصب الآية غضبها وذمها للمشركين معللة كفرهم بأنهم فقدوا السمع فهم بمنزلة الأموات الذين لا يسمعون كقوله ـ انك لا تسمع الموتى ـ ٠

وأن هذا جد واضح فيهم وهذا أبلغ فى الذم ـ وهو التعبير بانما تناسبا مع التعريض والعقاب النبوى ٠

فقول الامام عبد القاهر « كل عاقل يعلم أنه لا تكون الاستجابة الا ممن يسمع أو يعقل ما يقال ويدعى اليه وأن من لم يسمع لم يعقل ولم يستجب » (٦٩) ومن يتبعه كالسكاكى ومدرسته فى أن دخول انما هنا على المعلوم الواضح أفاد التعريض : ينبغى أن يقيد أيضا بالمقام الذى وردت فيه الآية واقتضاه النسق ٠

ذلك أن الاستجابة هنا معناها : الايمان ونفى السمع لنفى ثمرته لأنهم لا يسمعون ما يلقى اليهم سماع فهم وتدبر فهم موتى ـ كما عبر الكشاف وأبو السعود (٧٠) ٠

وانظر حين ينعكس المعنى فى آيات قرآنية فيقصر السماع على المؤمنين كقوله تعالى « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » الآيات من سورة النمل (٧١) وجاءت الآيتان بذات النفى فى الروم بالفاء «فانك» (٧٢) أى ما تسمع سماعا

---

(٦٩) راجع الدلائل ٢٦٧ والمفتاح ٢٩٥ ٠
(٧٠) راجع الكشاف ١٦/٢ وأبا السعود ١٣٠/٣ والاستغناء ٣١٧ ٠
(٧١) الآيتان ٨٠ ـ ٨١ (٧٢) ٥٢ ـ ٥٣ ٠

يجدى نفعا الا من شأنهم الايمان أو من علم الله انهم يصدقون أو المشارفون لذلك وهذا لا يختلف كثيرا عن آية الأنعام لأن الاستجابة تعنى الايمان أى انما يؤمن من يسمع كما أن المقصود المعنى الثانى وهو أنهم موتى (٧٣) .

وعدم تحديد ما سبق وغيره كقضية الانذار عموما أو انذار من يخشى التى سبقت انما هو راجع الى عدم استقصاء الأساليب وهى فكرة منهجية شاعت الدعوة اليها بقوة فى العصر الحديث وان وجدت ـ كما أسلفت ـ أحيانا فى كتب التراث .

انمـا فى الأمر والخفى :

وقد تأتى انما فى الأغراض التى يأتى لها النفى والاستثناء بمعنى أن يكون الأمر ـ من شأنه ـ الانكار والجدل أو يكون خفيا ، أو غيبا مثيرا مكنونا ، أو تأكيد أثر من آثار الصفات الحسنى . أو اثبات النبوة أو مظاهرها ، والفرق أن السياق ـ بانما ـ هادىء ونبرة الكلام خفيضة وظلال المعانى ناعمة دلالة ـ على أن هذه الأمور واضحة فى ذاتها ، بينة عند العقلاء وان خفاءها عند المجادل الأشر والمنكر البطر حال طارئة ، دعوة الى التأمل المتريث والنظر المعتبر ، اذ لا ينبغى أن تكون موضع انكار .

تأمل قول الله تعالى « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا : ثلاثة : انتهوا خيرا لكم ، انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا » (٧٤) .

---

(٧٣) راجع الكشاف ١٥٩/٣ والبحر ٩٦/٧ وأبا السعود ٣٠٠/٦ .
(٧٤) النساء ١٧١

وقد سبق أن فكرة ألوهية عيسى جاءت فى آيات المائدة ٥٣ــ٧٥ بأساليب ترتجف غضبا وهولا بقصرين « وما من اله الا اله واحد » « ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام : فتوالت فى الأول أدوات التأكيد للنفى والعموم والوصف والثانى كان المقصور « المسيح بن مريم » مشتملا على قصر أسلوبى غير اصطلاحى فهو ابن مريم لا ابن الله تعالى الله • ثم عقب بكناية خارقة من أكل الطعام وما يتبعه ضعفا وعجزا واحتياجا بشريا بعيدا عن كمال الاله •

أما فى آية النساء فهنا الهدوء واثارة التأمل ، وتحاور مع النفس والعقل وتلوين الأسلوب بين قصرين طال فيهما المقصور عليه طولا مستوعبا مستقصيا مثيرا مقنعا ، وبين أمر مؤكد بنهى وايجاز جامع : لا تقولوا ثلاثة : أى الآلهة ثلاثة أو الله ثلاثة : انتهوا : عن القول بالتثليث وائتوا خيرا لكم دعوة الى الايمان والتوحيد ونصحا صادقا ثم ختم الآية بهذا التنزيه المتعالى عن الولد والتسبيح المجيد ثم أقام الدليل بأنه مالك الكون كله بآياته المبثوثة المحيطة يحفظها بقدرته وفى الأسلوب تسام وترق واستعلاء على ترهاتهم ، ومثله قوله تعالى « قل انما العلم عند الله وانما أنا نذير مبين » (٧٥) •

« انما أنت منذر » (٧٦) ، « انما أنا لكم نذير مبين » (٧٧) على لسان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ •

وقال على لسان قارون « انما أوتيته على علم عندى » (٧٨) وانظر كيف يصور الأسلوب الصلافة وانتفاخ الصدر وبطء المقاطع وتأتأة

---

(٧٥) الملك ٢٦ •
(٧٦) الرعد ٧
(٧٧) الحج ٤٩ •
(٧٨) القصص ٧٨

المتكبر وعلعلته وايجاز ما يعد صريحا خطيرا بالتعبير الحديث فى الزمن الحديث دلالة وضوحه وسطوعه وعدم طريق لنقاش •

وقال تعالى عن ابعاد المشركين عن بيته الحرام « انما المشركون نجس » (٧٩) وقال جبريل مزيلا هواجس مريم واضطرابها العذرى « انما أنا رسول ربك » (٨٠) فهذا واضح فى نور وجهة وطريقة دخوله محرابها •

وتأمل أخيرا قول السحرة وقد آمنوا برب هارون وموسى لفرعون لما أرعد وتوعد بتمزيقهم وتصليبهم والتمثيل بهم قالوا ، « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات — والذى فطرنا — فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » (٨١) •

انهم بعد أن ذاقوا حلاوة الايمان وسكنت ريح القلق الكافر وجاءت نسمات الايمان الصادق استعذبوا العذاب وهان عليهم فرعون وتهديده وما فرعون الزائل التافه بجانب الخلد الباقى ان الثقة الكاملة بالله هى التى أنطقتهم بهذه الكلمات الخوالد وقد قصدوا تحكم فرعون على امن الدنيا وتذوق الاشارة والوصف « هذه الحياة الدنيا » تجد الايماء الى كل عيوبها قلة وحقارة ومتاعا زائلا ونصبا ملازما فقد قصروه على الدنيا تلك دون الآخرة ، ولم يكن فرعون يبالى بدنيا أو أخرى ، وما كان يدور فى خلده بعث ولا جزاء لكن لما كان استبداده طاغيا نزل منزلة من ظن أنه يملك الدنيا والآخرة دون عقاب من خالقه ملك الناس اله الناس •

---

(٧٩) التوبة ٢٨ •

(٨٠) مريم ١٩

(٨١) طه ٧٢ — ٧٣ •

وتأمل بعد قوله تعالى عن الساعة «فانما هى زجرة واحدة» (٨٢) وقوله « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » (٨٣) والمثير أن تجد شدة الايجاز بأسلوب انما الواضح بالاضافة الى الايجاز المبسوط فى أسلوب النفى الشديد الهائل فالضدان يلتئمان فى القرآن على وجه خارق بديع البيان •

صفوة القول :

أن انما تأتى فى الأمر الواضح الجلى فى نفسه وان كان خافيا عند المخاطب أو المتلقى ومن هنا كان القصر أساسا ، وقد تكون فى الخفى أو المنكر المنزل منزلة الواضح لما يحفه من قرائن وأدلة (٨٤) •

وأن التعريض ليس خاصا بانما ولا انما خاصة بالتعريض فى القسم الأول •

فقد يفيد النفى أيضا التعريض : كما يفيد أسلوب انما الكناية •

وقد يتوارد النفى وانما على معنى واحد ويقتضى المقام والسياق العام والخاص طريقا دون سواه ولا يمكن أن يحل محله لاختلافهما ايقاعا ودلالة ، وصياغة وقوة ووجهة خاصة من الأغراض والمعانى •

الحياة الدنيا وأساليب القصر والتشبيه :

والموازنة هنا خاصة بالحياة الدنيا وزوالها السريع • ومتاعها القليل وهى فكرة أو قضية قدمها القرآن فى معارض عديدة من الألوان البلاغية :

---

(٨٢) النازعات ١٣ (٨٣) النحل ٧٧ •

(٨٤) راجع حاشية عبد الحكيم ٣٠٨ •

وجاء فى معرض انما والتشبيه فى ثلاث آيات :

آية يونس ٢٤ : « وانما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخـــذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصـــل الآيات لقـــوم يتفكـــرون » .

وآية الحديد ٢٠ : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينـة وتفاخر بينكم . وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفـار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شـديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

ومادة التشبيه من دنيا الزرع المنظور الذى تقلـب فى أطـوار خضرة يانعة فارعة ومبهجة آخذة ممرعة يعقبها صفرة شاحبة وجفف حسير وزوال كئيب كما نلحظ فى الصورتين :

١ ــ أوجز فى جانب المشبه فى الآية الأولى وكذلك فى بعض أطوار الزرع فى المشبه به وان أطال فيما يعجب منه مشهدا وأثرا حين تأخـذ الأرض زينتها فترتدى قشيب أثوابها مزركشة الألوان والأضواء فائضة النماء والخيرات حتى يظن الناس أنهم مسيطرون عليها قادرون عـلى استلاب خيرها والتحكم فى أقدارها وهى اطالة مقصودة لأنها أهم مافى الدنيا حين تقبل وانعكاس ذلك على قلوب أهلها طمعا وعثوا .

ثم ان التسلسل فى أحوال الزرع والدنيا محكوم بقوانين الهيـة توجب امعانا فى الفكر والتجريب والافادة من المفيد حكمـا وعلمـا ودلائل عـلى المؤثر .

ولذا أتى فى الآية بمثل « وهو الصفة الغريبة العجيبـة ، وبأداة

التشبيه «الكاف» التى تفيد شيئا من التقارب بين الطرفين مسبوقة بأنما اعلاما بالوضوح فى الحكمة من التمثيل و ذا كن التصوير بالزرع المشاهد أبدا متلائما مع هذا البيان • وهو تصوير ودلالة تامة على زوال الدنيا عظة وعبرة وتوجيها للدنيا الى الخير اقتبالا للثواب والرضا •

أما آية الحديد فقد رتبت فيها أحوال الدنيا خمس مراحل زمنية وقصر عليها الحياة الدنيا بمعنى قصر الدنيا على أظهر أحوالها المتعاقبة التى تمثل مراحل زمنية متوالية •

ثم شبه كل ذلك بهيئة النبات فى أطواره المتعاقبة المتغيرة ، المتدرجة بما يقابل حالات المشبه مع توزيع الزمن بدقة متناهية بما تفيده الفاء وثم المكررة من دلالة خاصة بمعنى أن فترة الاخضرار المعجب تستغرق زمنا وكذلك فترة الاصفرار وهى تقابل اللهو والزينة ثم التكاثر واكتفى بالواو فى جانب المشبه انكاء على التفصيل الزمنى فى المشبه لأنه مرتبط باللون متطور مراقب أبدا •

وقد أخبر بالمصادر عن الدنيا مبالغة وتصويرا فالدنيا ذات اللهو واللعب وما بعدهما كما رشح الفعل : اعلموا والتشبيه بالزرع الوضوح فى الأسلوب والأثر والعبرة والترغيب والترهيب • كما أن الآيتين فى سياق هادىء نسبيا يذكرهم فى آية يونس رحمة الله التى تسير بهم الفلك وتنجيهم من غوائل البحر حين يدعون مخلصين وتعقب ذلك كله بعد أسلوب القصر • بالدعوة ــ فى الاسلام ــ الى دار السلام : الآيات ٢٢ ــ ٢٥ •

وقد ناسب ذلك البسط والتمهل فى العرض وفى آية الحديد الخطاب مع مؤمنين تربية وتوجيها بعد ذكر طوائف منهم هم المتصدقون والصديقون والشهداء ومقابلوهم من الكافر تصويرا بالطباق فى ايجاز وذكر الدنيا هنا لأن سورة الحديد ركزت على غرضين أساسيين :

الايمان بالله الواحد والانفاق فى سبيله ولما كانت الدنيا قد تمثل عائقا فى بعض الأحيان كشفها التشبيه عن حقيقة زائلة لها أثرها فى الأعمال وللجزاء • وفى الانفاق أيضا جاءت آية سورة القتال « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وان تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم » تعالج التكالب على الدنيا الفانية والبخل بها عن الانفاق كسلوك ايمانى • والخطاب أيضا مع المؤمنين •

أما أساليب النفى والاستثناء :

فقد جاء بها قصر الدنيا على اللعب واللهو فى قوله تعالى من سورة الأنعام ٣٢ « وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » وجاء فى سورة العنكبوت « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون ، وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » ٦٣ ــ ٦٤ •

واللعب مقدم فى آية الأنعام على اللهو ترتيبا طبيعيا وزمنيا لأن اللعب زمن الصبا ، واللهو زمن الشباب أما آية العنكبوت فانها تعقد موازنة بين حياة الدنيا (٨٥) •

واللهو زمن الشباب وهو أطول زمنا وأحب الى النفس وفيه مرح القلوب وبهجة الحياة فقدمه لذلك صدقا فى الموازنة بين الدنيا وبين أعجب وأحب مراحلها وبين حياة هى الحياة الحقيقية لا زمان لها ينتهى ولا لغة تصف حقيقة النعيم فيها لأن شبابها وشباب المنعمين له طعم

---

(٨٥) راجع أسرار التكرار للكرمانى ٦٨ ــ ٦٩ •

خاص ودوام أبدى وهذا معنى المبالغة : « لهى الحيوان » قصرا آخر للصفة البليغة فى الحياة على الآخرة دون الأولى والنسق فى الآية يسخر من عقولهم التى تعترف بالله ربا خالقا ولا يتخذه معبودا ووليا وكذلك آية الأنعام جاءت بعد سياق شديد يواجه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله ويحقق أن وراء الدنيا حياة أخرى يلقون فيها خطوبا وأهوالا ثم يعقد موازنة فاصلة بين الأولى وبين الآخرة •

وقد نزل الكافرون فى الآيتين منزلة من ينكر أن الدنيا لعب ولهو فكان الأسلوب الخاص بالنفى والاستثناء مع الايجاز المركز والمبالغة بالأخبار بالمصادر تذكرة قوية تجاذبها الترغيب والترهيب •

موازنات بين طرق القصر

يدل الاستثناء وانما والعطف على القصر وضعا ، بينما يدل التقديم على القصر بالمفهوم والفحوى ثم ان النفى بلا عاطفة يمكن أن يجتمع مع انما والتقديم دون النفى والاستثناء (١) .

تقول : انما أنا شاعر لا كاتب ، وذلك جائز لأنه توقفت دلالتا القصرين مع وضوح المعنى وتعيين المقصور عليه فيهما ، اذ هو فى انما : المؤخر (شاعر) وفى العطف بلا هو المقابل لما بعد الا وهو شاعر ففيه تأكيد مضاعف .

أما اجتماع انما مع التقديم فهما متدافعان فى موضع المقصور عليه لانه فى التقديم هو المقدم وفى انما المؤخر ، فاذا كان التقديم بالخبر نحو قوله تعالى « انما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٢) افيد القصر من انما وإما دلالة التقديم فهى ملغاة كما تبطل فى النفى والاستثناء فى قولك ما عليك الا البلاغ وقال تعالى « ان عليك الا البلاغ » والتقديم لغرض آخر دون القصر كالاهتمام وتحديد المهمة وتقديم ضميره للانتباه والحكم الخاص عليه وفى جملة العطف من الآية « وعلينا الحساب » ان عطف على ما بعد انما كان الحساب مقصورا عليه وهو رأى عبد القاهر ، وان عطف على جملة القصر بانما (انما عليك البلاغ) كان المقصور عليه (علينا) وبه قال الزمخشرى وهو الظاهر من المنطوق والسياق أى الحساب علينا لا عليك ولو أريدت دلالة التقديم فى جملة القصر اكان المعنى : ما البلاغ الا عليك لا على غيرك وهو غير مراد . (٣)

---

(١) راجع الايضاح ٢١٨ وتقرير الامبابى ٣/٧٥ .
(٢) الرعد ٤٠ .
(٣) راجع الدلائل ٢٣٤ والكشاف ٢/٣٦٣ والشهاب ٥/٢٤٧ .

هذا ما قاله المتأخرون فى تقديم الخبر ، ويبدو أنه غير مطرد ففى الآية الكريمة : « فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين » (٤) وقوله ما حمل يعنى ما كلف به من التبليغ والمصابرة وقوة التحمل ومقابلة الأذى بالخير وذكر (ما حمل) بمعنى ما كلف للمشاكلة مع حملتم وقد قصر التحميل بهذا المعنى عليه — صلى الله عليه وسلم — دونهم ، وقصر التحميل الثانى أى العمل الخاص بهم عليهم دونه فالمقصور عليه فيهما هو المقدم « عليه — عليكم » والأدق هو الضمير المجرور المقدم : وعلى هذا فالآية من تقديم الخبر وقد ألغيت دلالة انما على القصر فهى هنا لمجرد التأكيد لا للقصر ، ويمكن القول بأن تقديم الخبر على المبتدأ مع انما حسب المقام والقرائن ان أفاد القصر ألغيت انما والا بقيت دلالتها والى هذا قد يومىء قول الدسوقى فى اجمال محل تأخير المقصور عليه فى انما حيث استفيد القصر منها ، ولم يعرض عارضة لتقديمه (٥) وآية النور تشبه فى المعنى هذه الآية « لكم دينكم ولى دين » .

فاذا اجتمعت انما مع التقديم بالمفعول به والمعروف أن القصر يفهم منه بالذوق السليم وهذا أدخل فى البلاغة ثم هو لا يحتاج الى تأويل — كما نقل الأمبابى — (٦) ألغيت دلالة انما على القصر وبقيت دالة على التوكيد ، كما تبقى دلالة التقديم على القصر فقولك انما زيدا أكرمت يدل ذوقا وفحوى على أن زيدا هو المقصور عليه فى التقديم ،

---

(٤) النور ٥٤ .

(٥) راجع حاشية الدسوقى ومواهب الفتاح ٢/٢٣٢ وحاشية الشهاب ٦/٣٩٦

(٦) راجع الامبابى ٢/٧٧

ولو أعملنا انما من حيث افادة القصر لكان المقصور عليه (أكرمت) فهما متدافعان فتعتمد دلالة التقديم دون انما من حيث افادة القصر لكان المقصور عليه (أكرمت) فهما متدافعان فتعتمد دلالة التقديم دون انما اذ المعنى قصر الاكرام على زيد دون سواه ، وهذا يدرك بالذوق والحس البلاغى ، ومنه قول المتنبى وقد ذكر نسب الممدوح اسمه واسم أبيه وجده مما يدخل تحت الاطراد فى البديع ، وقد يوهم ذلك أنه غير معروف فيعرفه وهذا فادح فى المدح فقال محترسا :

أساميا لم تزده معـــــرفه وانمـــا لذة ذكـ رناها

وهو قصر قلب للذكر على التلذذ والتغنى بها دون تعريفه ، ويبدو أن هذا من حساسية المتنبى فالممدوح كان شهيرا وهذا الأسلوب ورد فى شعر الشعراء قبله بل فى حديث النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : عن يوسف عليه السلام مما سمى بالاطراد فى البديع (٧) • ثم ان النفى فى انما ضمنى يفهم من التركيب ولذا جاز اجتمـــاعها مع النفى بلا العاطفة حينئذ لا يضيف فائدة والمعروف أن القصر فى الوصف الظاهر الاختصاص تنزيلى فينزل المخاطب منزلة المنكر أو الجاهل بالحكـم ليتأتى القصر أساسا ، وواضح أن قولنا : انما زيد عالم لا يحسن أن يقال : لا جاهل لأنه لا حاجة لاجتماع قصرين فى أمر واضح هكذا •

وفى قول الله تعالى : « انما يستجيب الذين يسمعون » فانه يمتنع أن يقال : (لا الذين لا يسمعون) لأنه من الواضح فى المعنى الأول للآية ونزيد بأنه مستحيل لان فى التعريض يلتقى بالرمز واللمح أولا ثم هذا القول (لا الذين لا يسمعون) فيه صرف عن ارادة المعنى الثانى المراد وهو أنهم صم لا يؤمنون : وقد مر •

---

(٧) راجع الايضاح ٥٣٤ •

بخلاف قولك : انما يقوم محمد لا على • اذ القيام ليس خاصا بمحمد ، وقال عبد القاهر لا يحسن ويجوز » (٨) ويعنى بالجواز الصحة اللغوية وتكفى بنفيه الحسن فهو نفى للبلاغة من أساسها •

نفيا للجواز البلاغى من باب أولى على أن بعضهم قال : يجوز عند زيادة التحقيق لغرض بلاغى ، ولست ميالا لذلك لأننا نتحدث عن بلاغة العرب لا بلاغة الانباط والعجم •

موقع المقصور عليه فى انما

والمقصور عليه ــ بعد انما ــ هو الجزء الأخير عمدة ــ بالتعبير النحوى ــ أو فضلة مفردا ــ له موقع اعرابى ــ أو متعددا كالموصوف مع صفته والحال المتداخلة •

شبه جملة أو جملة أو جملا ــ مما مر تحليله قالوا : المقصور مقدم طبعا فقدم وضعا • ولما كانت ــ الا ــ قرينة على المقصور عليه بعد الا فى الاستثناء جعلوا تأخيره بعد انما دليلا عليه خوف اللبس وهذا هو المشهور عند العلماء •

وقد رأى بعضهم ومنهم أبو اسحق الزجاج ــ فيما نقل عنه بهاء الدين السبكى أن المحصور لا يتعين أن يكون هو المؤخر ، بل قد يكون غيره ، بالقرينة ، ثم أورد السبكى شواهد تدعم رأى الزجاج • وهى عديدة ــ ثم انه لم يؤولها ، وقد يفهم من كلامه أنه على رأى الزجاج ــ ويبدو أنه كان لموقف شيخه أبى حيان من انما وتردده فى القول بافادتها الحصر من أساسه مع نقله المتكرر عنه فى عروس الأفراح يبدو أن لذلك أثرا فى موقفه هنا ــ غير المحدد ، ثم ان الامبابى اقتصر على ايراد هذه الشواهد دون نقاش • (٩)

---

(٨) الدلائل ٢٣٨ •

(٩) راجع عروس الأفراح ٢/٢٩٣ والامبابى ٣/٩٣ •

وقد سبق ان دلالة انما على القصر تلغى اذا اجتمعت فى أسلوب مع التقديم بالمفعول وقد احتاط ابن يعقوب المغربى والدسوقى بالتقييد فقالوا : يؤخر المقصور عليه بعد انما اذا استفيد القصر منها فقط ، ولم يعرض عارض لتقديم المقصور عليه • ونقل عبد الحكيم عن الشريفى فى شرح المفتاح انه اذا لم يذكر مع الفعل شىء من متعلقاته نحو : انما قمت جاز انفصال الضمير أى انما قام أنا ، نظرا الى المعنى والاتصال نظرا الى اللفظ وقال الدسوقى يجب الانفصال : اذا أريد الحصر فى الفاعل ، فاذا عرض عارض لتقديمه ، كما اذا أريد قصر الفاعل على الفعل فلا يصح تقديم الفاعل عليه — اذ لو قدم لن يبقى فاعلا • ويبقى على ما هو عليه نحو : انما قمت أى لا خرجت وهذا هو المراد بقولهم اذا لم يعرض عارض لتقديمه •(١٠)

مع الامام بهاء الدين السبكى فى شواهده

يرى السبكى أن من تقديم المقصور عليه قولك : انما قمت اذ لو قصد قصر الفعل على الفاعل لانفصل الضمير وقيل انما قام أنا قياسا على ما قام الا أنا •

وقد سبق تفصيل ذلك والرد عليه ثم أورد السبكى مجموعة من الشواهد القرآنية وحديثا نبويا يبدو من ظاهرها تقديم المقصور عليه بعد انما : وهاك الشواهد والرد عليها :

١ — قول الله تعالى « أو تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل»(١١)

وقوله تعالى على لسان هارون عليه السلام لعابدى العجل «ياقوم انما فتنتم به » (١٢) ومنه حديث النبى صلى الله عليه وسلم « انما

---

(١٠) راجع عبد الحكيم ٣٠٥ والمغربى والدسوقى فى الشروح ٢/٢٣٢، وتقرير الامبابى ٣/٩٣ •

(١١) الأعراف ١٧٣ (١٢) طه ٩٠ •

يأكل آل محمد من هذا المال ليس لهم فيه الا المأكل » والمعنى فى ذلك : قصر الآباء على الاشراك وقصر اليهود على الفتنة والشر دون الخير، وقصر المال على الأكل دون سواه •

أما الآية : « انما فتنتم » كتعبير انما قمت فى أنه عرض عارض لتقديمه اذ لو تقدم الفاعل لما بقى فاعلا ورأى ثان فى الرد عليه هو ما رآه الأمام أبو السعود فى مثل هذه التعبيرات التى يقتضى المقام الحصر فى الفعل وهو مقدم نحو : انما أتبع ما يوحى الى من ربى — انما فتنتم به — أى امتحنتم به : بحل الفعل الى فعل مطلق وقيد له ضرورة اشتمال الأفعال المخصوصة — لا العامة — على ذلك ففى نصر مثلا : فعل النصر بقصر الأول ويكون منفيا على قيده المثبت : أى قصر العقل على اتباع الوحى دون غيره •

وفى : انما فتنتم : أى لم يقع الا فتنتكم ، وفى قوله « انما أشرك آباؤنا : أى لم يقع منهم الا الاشراك وعلى هذا يحمل الحديث النبوى

وفى أساليب الفتنة فى القرآن الكريم نجد ما يؤيد رأى أبى السعود رحمه الله • من ذلك قول الله لموسى « انا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » (١٣) : أى وقعت بهم الفتنة والضلال ، كما جاء على لسان الملكين ببابل « وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة » (١٤) : يقصرهم على الفتنة دون الخير ، ولما لم يوجد عارض يمنع التقديم هنا اذ الجملة اسمية قدم فيها المسند اليه بينما الجملة الفعلية (فتنتم) يمنع فيها تقديم الفاعل صناعة •

— وقال تعالى « اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » (١٥)

---

(١٣) طه ٨٧ (١٤) البقرة ١٠٢

(١٥) مريم ٣٥

مما أورده السبكى • والمراد : لم يقع الا قول كن ، ومثلها آية النحل « انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١٦) : فهو قصر القول العام على قول كن والمعنى : انما ايجادنا لشيء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده فى أسرع ما يكون ، والمنفى (١٧) ما أومأ اليه الطبرى وهو المعاناة والكلفة •

وقد وجدت من قصر المطلق فى الفعل على قيده أو معناه ما يماثل هذه الأساليب فى قوله تعالى « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » (١٨) فاسلوب القصر تعليل للنهى والخطاب على الأرجح ليس خاصا بالنبى الكريم بل للعموم تسلية للمظلومين وتهديدا الظالمين •

والمنفى فى القصر هو التعجيل ذلك أن التأخير مد وامهال تشديدا وتغليظا ، وايقاع التأخير عليهم « يؤخرهم » مع أن المؤخر هو عذابهم لتهويل الخطب فهم مرصودون للعذاب وهم بذواتهم عنوان العذاب كأنهم الوقود وما يوقد عليه وابيان أن التأخير قهرى لهم لا اختيار لهم فيه فمن حقهم الاستئصال •

والمعنى المراد ، ما يقع الا تأخير جزائهم الرهيب المناسب لظلمهم والأسلوب أيضا متلائم مع الآيات القرآنية بشأن الظالمين ومع الحديث المشهور « ان الله ليملى للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته » •

ولعلك تلحظ فارقا بين رأى البلاغيين كعبد الحكيم والمغربى والدسوقى فى تقديم المقصور عليه وهو الفعل العارض وبين رأى أبى السعود فى تأويله المعروف اذ المقصور عليه عنده مؤخر لا مقدم •

---

(١٦) الآية ٤٠ النحل •

(١٧) راجع الطبرى ٧٣/١٤ وأبا السعود ١١٥/٥ والشهاب ٣٣٢/٥ والألوسى ١٤٢/١٤ •

(١٨) الآية ٤٢ ابراهيم •

كالرأى الأول الذي يؤول : انما قمت بقصر الفاعل أى لا خرجت بالقصر على القيام دون الخروج • وهو غير مباين أو متقارب مع رأى أبى السعود أى ما وقع الا القيام منى لا الخروج •

كما اعترض البهاء بالآية على لسان قوم نوح « فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين قال : انما يأتيكم به الله ان شاء » (١٨) فقول البهاء: ان مداول العبارة ليس على القصر بل على النفى أى ما يأتيكم به الله بدليل أنه جواب لقولهم فأتنا بما تعدنا » (١٩) •

وهو هنا ينفى عن انما افادتها القصر من أساسه فى هـذه الآية وقد خالف بذلك أئمة التفسير قال الكشاف « أى ليس الاتيان بالعذاب الى انما هو الى من كفرتم به وعصيتموه ان اقتضت حكمته » (٢٠) بل ان شيخه أبا حيان أتى هنا بما يوافق طبعه ويخالف تردده فى افـادة انما القصر فقال موضحا دلالة القصر فى الأسلوب ومشيرا الى المقصور عليه « انما يأتيكم به الله : أى ليس ذلك الى انمـا هو للاله الذى يعاقبكم عن عصيانكم ان شاء أى ان اقتضت حكمته » (٢١) وبمثل ذلك قال تلميذه تاج الدين الحنفى فى الدر اللقيط (٢٢) ولا تحسـبن أن أبا حيان نقل عن الكشاف نقلا دون اعمال فكر ، فالظاهر من البحر المحيط أنه كان واقفا بالمرصاد للزمخشرى لا فى اعتزاله فحسب بل فيما أورده من قضايا النحو والاعراب وتغير المعنى بتغير الاعراب وتزييف عديد ما أورده حتى فى شئون البلاغة وقد كان يبلغ به الغضب أحيانا ان يرميه بالعجمة ، وحين تجد أئمة أو عقولا كبيرة فى مجال الانتقـاد وتصحيح المفاهيم لن تجد فضولا من القول أو حشوا فى العبـارة أو سهوا فى النقل بل دقة متناهية وهذا لا يعنى رفضه لأقوال الكشاف على

---

(١٩) هود ٣٣ (٢٠) عروس ٢/٢٣٣ •
(٢١) الكشاف ٥/٢١٩ (٢٢،٢١) البحر ٥/٢١٧ ، ٢١٩ •

العموم كلا انه يوافقه فيما يذكره وقد يشيد به الا ما خالف عقيدة لأهل السنة ، أو مذهبا نحويا ، او معنى بلاغيا متبادرا ولا تحسبن أن أبا حيان كان كأحد النحاة الذى وضع نفسه فى دائرة النحو فاطبقت عليه فاذا ما سما الى أفق البلاغة أعياه المطير فأفتى بغير ذوق وهم من عنى ابن الأثير فى مثله السائر بل كان أثير الدين أبو حيان اماما فى التفسير وغريب القرآن والحديث واللغة والأدب وكان أديبا مترسلا له موهبته وذوقه من هؤلاء الذين كانت عندهم علوم اللغة كلا متواصل الأجزاء غير متمزق الأشلاء ،وهذا يحتاج بحثا ضافيا مستقصيا تبين مناهج هؤلاء الاعلام كأبى حيان والرازى والبيضاوى والشهاب بحثا حرا متأنيا يقوم به الشيوخ من علمائنا لا الشباب الذى يستعجلون الثمر قبل ينعه كما يرى المنصفون .

ونعود الى السبكى وآية نوح عليه السلام « فذكر أبو السعود ما ذكره الزمخشرى وزاد أن فيه تهويلا فكأنه قيل الاتيان بالعذاب أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل ، وعلى هذا فقول السبكى انه نفى أى ما يأتيكم به الله انما هو عكس ما تدل عليه الآيات من تهديده لهم وقد صدق الله وعيده فأتاهم بالطوفان يطم وجه الأرض فلم يبق منهم ديارا وأشرقت الشمس لأول مرة منذ آدم على بشر — فى الأرض — كلهم مؤمنون .

— وقال السبكى رحمه الله تعالى :

اذا كان المقصور عليه بعد انما هو المؤخر ، فان هذا المؤخر غير متعين . ويعنى اذا تعددت المتعلقات ففى قوله تعالى « انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » (٢٣) فليس المقصور عليه يوقع ولا العداوة والبغضاء ، بل الخمر والميسر » .

---

(٢٣) المائدة ٩١ .

ومن الواضح أنه اذا كثرت المتعلقات فان القرائن هى التى تعين المقصور عليه المثبت محل النزاع والانكار وتأمل قول الله تعالى عن المنافقين « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » (٢٤)

وقال تعالى : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (٢٥) فالمقصور عليه فى الأولى التعذيب لا التنعيم بما كابدوا من جمع الأموال وحفظ الأولاد (٢٦) وفى الثانية المقصور عليه بغير حساب لأنه الملائم لتكريم الصابرين .

وفى قول الله تعالى « انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة » (٢٧) يرى الرازى وتبعه الألوسى أن المقصور عليه « رب هذه البلدة » ويرى أبو السعود أنه « العبادة » ويؤيده من دلالاته العبادة كما هنا وجملة العطف تأكيد لمفهوم الجملة الأولى أعنى تأكيد المنفى فيها واذن فتحديد المقصور عليه حين تكثر المتعلقات أمر مرهون بالسياق والمقام فى ضوء الدلالة القرآنية . (٢٩)

وفى هذا الصدد أيضا سبق ما ذكره الشهاب من أن الزمخشرى قاس أنما بالفتح على انما بالكسر ثم وضح أنه جاء من أساليب أنما بالفتح ما لا يحتمله كقوله تعالى « وظن داود أنما فتناه » واتكأ على تأويل الكشاف الذى لا يظهر فيه القول بالحصر « ابتليناه لا محالة » وقد وضحنا ذلك ورد أبى السعود وتأويله « فعلنا به الفتنة لا غير »(٣٠)

---

(٢٤) التوبة ٥٥ (٢٥) الزمر ١٠ .
(٢٦) راجع أبا السعود ٤/٧٤
(٢٧) النمل ٩١ (٢٨) الجن ٢٠ .
(٢٩) وراجع الرازى١٥/٢٠٨ وأبا السعود٥/٢٤ والألوسى ١٣/١٦٦
(٣٠) راجع الكشاف ٣/٣٧١ وحاشية الشهاب ٦/٢٧٩ وتفسير أبى السعود ٧/٢٢٢ .

وصفوة القول أن انما للقصر وأن المقصور عليه هو المؤخر أبدا الا اذا عرض عارض فى الصياغة ، ولا تلغى دلالتهـــا على القصر الا اذا أفيد بطريق أقوى وهو التقديم بالمفعول فتبقى دالة على التأكيـــد للقصر ، كضمير الفصل حين يأتي مع تعريف الطرفين مؤكدا للحصر .

الطريق الثالث العطف

وهو العطف بلا وبل ولكن ، ويشترط تقديم النفى فى لكـــن وبل تقول ما جاء زيد بل على أو لكن على وقالوا : ان بل اذا وقعت فى حيز نفى أو نهى قررت حكم ما قبلها ونقلت ضـــده الى ما بعدها فاذا قلت : ما زيد قائما بل قاعد ، فيه تقرير للحكم السابق ، وهو نفى القيـــام عن زيد واثبات ضده وهو القعود له ، فاذا وقعت بل ولكن فى حيز الأمر أو الاثبات أو كان المعطوف عليه فى حكم المسكوت عنه لا تفيد القصر ، اذ المهم : القصد الى ذلك ، ثم ان القصر بالعطف يكون غالبـــا قصرا اضافيا قلبا ـــ كما ذكر عبد القاهر ـــ الا اذا كان المعطـــوف الواقـــع بعدهما بلفظ العموم نحو جاء زيد لا غيره أو ما جاء زيد بل سواه ، أو لكن سواه .

وفى العطف نص على المثبت والمنفى جميعا قال تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٣١) ففيه نص على المنفى (أمواتا) والمثبت (أحياء) فى نســق واحد ولـــذا فان أسلوب القصر يتميز بالأناة والمهل وبطء الايقاع واثارة التعقل الرزين تثبيتا للمعنى ونقشا للصورة فى القلب لأنه غالبا أمر خطير جليل كحياة الشهداء ورزقهم قال تعالى يعلم المؤمنين ألا يقولوا مثلمـــا يقـــول المنافقون ان من يخرج الى الجهاد يقتل فاقدا حياته « ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتا بل أحياء ولكن لا تشعرون » (٣٢)

---

(٣١) آل عمران ١٦٩ (٣٢) البقرة ١٥٤ .

أما لكن العاطفة فلم ترد فى القرآن الا مع الواو كقوله تعالى : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٣٣) « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » (٣٤) .

قالوا : الواو عاطفة لجملة على جملة اذ من أحكام الواو أنها لا تعطف مفردا على مفرد مخالف له فى الحكم فلا يجوز زيد قائم وقاعد ، عالم وجاهل بخلاف الجمل فانها تعطف جملة على جملة تخالفها فى الايجاب والسلب ، وقد رجح السهيلى أن تكون الواو هى العاطفة والواو زائدة لازمة وقيل غير لازمة وهو ضعيف اذ كيف يلجأ الى القول بالزيادة — مع أنه موطن خلاف — مع صحة القول على الأصالة وقد اشترطوا فى لا العاطفة أن تكون بعد ايجاب وأن يكون الكلام قبلها يتضمن بمفهوم الخطاب نفى الفعل عما بعدها تقول : جاءنى رجل لا امرأة ، ولا يقال مررت برجل لا زيد كما لا يبقى بها كلام قد نفى قبلها بغيرها من الأدوات الا اذا سبقتها واو العطف فتكون لتأكيد النفى عن الثانى (٣٥) واذا لم تجىء الواو لا تأت فى كلام منفى ولذا قالوا انه يمكن أن يجتمع العطف بلا مع طرق القصر ما عدا النفى والاستثناء فلا يقال ما جاء الا زيد لا خالد لأنه لم يرد عن العرب فهو خاضع للصحة اللغوية وقد جاء فى العصور المتأخرة التى لا يحتج بأساليبها كقول الحريرى :

لعمرك ما الانسان الا ابن يومه على ما تجلى يومه لا ابن أمسه

فاذا جاء فى مؤلفات العلماء للتأكيد والتوضيح حملت — لا — على عطف الجمل كقولهم ما هى الا شهوات لا غير ، وما هى لا رمية

(٣٣) الحج ٤٦ (٣٤) آل عمران ١١٧

(٣٥) راجع نتائج الفكر ٢٥٧ — ٥٩ ومغنى اللبيب لابن هشام ١/٢٩٣

لا غير (٣٦) ، وللامام بهاء الدين السبكى رأى نافذ هنا فهو يرى أن العطف لا يفيد القصر الذى يكون بسلب جميع الصفات غير المثبت والعطف بلا لا تعرض فيه لنفى صفة ثالثة ، أما العطف ببل ولكن فابعد من ذلك لعدم استمرار النفى أو الاثبات بهـا (٣٧) وهو رأى طيب ارتضاه بعض العلماء المعاصرين ويقويه أن فكرة عموم النفى ثم الاخراج وهو المرتكز الأصلى فى القصر فى النفى والاستثناء وانما والتقديم غير موجودة فى العطف ، ومحاولة حمله على النفى والاستثناء فى ذلك تمحل وتكلف بل هو اثبات فنفى فى لا أو نفى ثم اثبات فى بل ولكن ثم ان افتراض الجهل أو الانكار فى مقامات العطف دائما أمر خارج عن دلالة السياقات .

الطريق الرابع : التقديم

وهو أوسع الطرق انتشارا وشيوعا فى القرآن الكريم لتعدد مناحيه وكثرة فنونه وألوانه فقد كثر فى أساليب الاثبات والنفى والاستفهام كما تعلق بالمسند اليه والمسند والمتعلقات تلاؤما معجزا مع المقامات وما تصوره من معانى عقلية أو وجدانية ولهذا وغيره آثرناه ببحث مستقل نشر منذ سنوات .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

وصلى الله وسلم وبارك على محمد
النبى الأمى وعلى آله وصحبه ومن هدى

مكة المكرمة : ٣ من شهر رجب الاصم ١٤٠٦ هـ

---

(٣٦) راجع : التجريد للامبابى ٣/٧٥ والمطول ٢١٥ .

(٣٧) راجع : عروس الأفراح للامام بهاء الدين السبكى ٢/١٨٧ .

مراجع البحث

١ ــ الابهاج فى شرح المنهاج للامام على بن عبد الكافى السبكى
٢ ــ الاتقان . السيوطى .
٣ ــ أثر النحاة فى البحث البلاغى : د. عبد القادر حسين .
٤ ــ الاستغناء فى أحكام الاستثناء : شهاب الدين القرافى .
٥ ــ أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجانى .
٦ ــ أسرار ترتيب القرآن :
٧ ــ أسرار التكرار : الكرمانى .
٨ ــ أساس البلاغة : الزمخشرى .
٩ ــ الأسس الجمالية د. عز الدين اسماعيل .
١٠ ــ أسس النقد الأدبى د. أحمد بدوى .
١١ ــ الأسلوب : الشايب .
ــ أساليب الاستفهام فى القرآن الأستاذ عبد العليم فودة .
١٢ ــ الأطول : العصام .
١٣ ــ الاعجاز البلاغى : د. محمد أبو موسى .
١٤ ــ الاعجاز البيانى د. بنت الشاطىء .
١٥ ــ الاعجاز فى دراسات السابقين : الاستاذ عبد الكريم الخطيب
١٦ ــ اعجاز القرآن : للباقلانى .
١٧ ــ اعجاز القرآن : الرافعى .
١٨ ــ الأقصى القريب : التنوخى .
١٩ ــ الأمالى الشجرية : ابن الشجرى .
٢٠ ــ أمالى المرتضى .
٢١ ــ أمين الخولى فى مناهج تجديده : د. كامل سعفان .

٢٢ ــ أنوار الربيع : ابن معصوم المدنى .
٢٣ ــ الايضاح/ القزوينى .
٢٤ ــ الايمان/ ابن تيمية .
٢٥ ــ البحر المحيط/ ابو حيان .
٢٦ ــ بدائع الفوائد/ ابن قيم الجوزية .
٢٧ ــ البديع/ ابن المعتز .
٢٨ ــ بديع القرآن : ابن ابى الاصبع .
٢٩ ــ البرهــان : الزركشى .
٣٠ ــ بصائر ذوى التمييز/ الفيروزبادى .
٣١ ــ البلاغة تطور وتاريخ : د. شوقى ضيف .
٣٢ ــ بلاغة العطف فى القرآن د. عفت الشرقاوى .
٣٣ ــ البلاغة القرآنية : د. محمد ابو موسى .
٣٤ ــ البيان العربى : د. بدوى طبانة .
٣٥ ــ البيان والتبيين : الجاحظ .
٣٦ ــ تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة .
٣٧ ــ تحت راية القرآن : الرافعى .
٣٨ ــ تحفة الأريب : أبو حيان .
٣٩ ــ ترجيح أساليب القرآن : محمد بن المرتضى اليمانى .
٤٠ ــ التصوير الفنى ــ سيد قطب .
٤١ ــ تفسير أبى السعود : ارشاد العقل السليم .
٤٢ ــ تفسير الألوسى : روح المعانى .
٤٣ ــ تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب .
٤٤ ــ تفسير الرازى : التفسير الكبير .
٤٥ ــ تفسير سورة النور : ابن تيمية .
٤٦ ــ تفسير سورة الفاتحة : محمد عبده .
٤٧ ــ تفسير الطبرى جامع البيان .

٤٨ ــ تفسير غريب القرآن : ابن قتيبة •
٤٩ ــ التفسير القيم لابن القيم جمع حمد أنيس الندوى •
٥٠ ــ تفسير الكشاف : الزمخشرى بحاشية السيد •
٥١ ــ تفسير النيسابورى : غرائب القرآن •
٥٢ ــ تقـــرير الامبـــابى •
٥٣ ــ جواهر البلاغة : الهاشمى •
٥٤ ــ جوهر الكنز لنجم الدين احمد بن الأثير •
٥٥ ــ حاشية الدسوقى •
٥٦ ــ حاشية السيد على الكشاف •
٥٧ ــ حاشية السيد على شرح الكافية •
٥٨ ــ حاشية الشهاب على البيضاوى •
٥٩ ــ حاشية عبد الحكيم •
٦٠ ــ الحيوان للجاحظ •
٦١ ــ درة التنزيل : الاسكافى •
٦٢ ــ درة الغواص : الحريرى •
٦٣ ــ دفاع عن البلاغة : الزيات •
٦٤ ــ دقائق التفسير لابن تيمية جمع د• محمد السيد •
٦٥ ــ دلائل الاعجاز عبد القاهر •
٦٦ ــ دلالات الالفاظ د• ابراهيم انيس •
٦٧ ــ دلالات التراكيب د• محمد ابو موسى •
٦٨ ــ الرمز والرمزية د• محمد فتوح •
٦٩ ــ الرمزية فى الأدب : درويش الجندى •
٧٠ ــ لروض الأنف : أبو القاسم السهيلى •
٧١ ــ سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى •
٧٢ ــ شرح المفصل لابن يعيش •

٧٣ ــ شرح الكافية للرضى .
٧٤ ــ الصناعتين للعسكرى .
٧٥ ــ الصورة الفنية د. جابر عصفور .
٧٦ ــ ضياء الدين بن الأثير د. زغلول سلام .
٧٧ ــ الطراز لنعلوى .
٧٨ ــ الظاهرة القرآنية : مالك بن نبى .
٧٩ ــ عبد القاهر الجرجانى : د. أحمد بدوى .
٨٠ ــ عباس العقاد ناقدا د. عبد الحى دياب .
٨١ ــ علوم البلاغة : المراغى .
٨٢ ــ العمدة : ابن رشيق .
٨٣ ــ عيار الشعر ابن طباطبا .
٨٤ ــ غريب القرآن: السجستانى .
٨٥ ــ الفن القصصى فى القرآن د. محمد خلف الله .
٨٦ ــ فى النقد الأدبى د. شوقى ضيف .
٨٧ ــ فوائد فى مشكل القرآن : عز الدين بن عبد السلام .
٨٨ ــ قضية الاعجاز القرآنى د. عبد العزيز عرفة .
٨٩ ــ قضايا النقد د. العشماوى .
٩٠ ــ القاموس المحيط .
٩١ ــ الكتاب سيبويه .
٩٢ ــ لسان العرب ابن منظور .
٩٣ ــ اللغة الشاعرة : العقاد .
٩٤ ــ المثل السائر لابن الأثير .
٩٥ ــ المحصــول للرازى .
٩٦ ــ مدخل الى علم الأساوب : د. شكرى عياد .
٩٧ ــ مدخل الى القرآن : د. محمد عبد الله دراز .
٩٨ ــ شــاهد القيامة .

٩٩ ــ المطول سعد الدين التفتازانى •
١٠٠ ــ معترك الأقران : السيوطى •
١٠١ ــ معجم ألفاظ القرآن : مجمع اللغة العربية بالقاهرة •
١٠٢ ــ معجم المصطلحات البلاغية ط د• أحمد مطلوب •
١٠٣ ــ المعجم المفهرس احمد عبد الباقى •
١٠٤ ــ معجم مقاييس اللغة ابن فارس •
١٠٥ ــ معنى لا اله الا الله رسالة الزركشى •
١٠٦ ــ معانى الحروف للرمانى •
١٠٧ ــ مغنى اللبيب لابن هشام •
١٠٨ ــ مفتاح العلوم : السكاكى •
١٠٩ ــ مفردات الراغب •
١١٠ ــ من أسرار اللغة د• ابراهيم أنيس •
١١١ ــ من الاعجاز البلاغى د• صباح دراز •
١١٢ ــ من بلاغة القرآن د• أحمد بدوى •
١١٣ ــ منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن د• الجوينى •
١١٤ ــ من الوجهة النفسية د• محمد خلف الله •
١١٥ ــ النبأ العظيم د• محمد عبد الله دراز •
١١٦ ــ نظم الدرر البقاعى •
١١٧ ــ نظرية اللغة فى النقد العربى د• عبد الحكيم راضى •
١١٨ ــ نقد النثر قدامة بن جعفر •

محتـــويات الـــكتاب

	صفحة
المقـــدمة	٣
القصر والتوكيد	٩
دلالة القصر	١٧
القصر ومنابعه	٢٠
الصفة والموصوف	٢٤
علاقة الصفة بالموصوف	٢٧
الطرفان المتباينان	٣٩
الفعل زاد وأسلوب الاستثناء	٥٥
القصر بين الحقيقى والاضافى	٦١
طول الطرفين	٧١
القصر الاضـــافى	٧٥
موقفنا من قصر التعيين	٧٦
فكرة المخاطب	٧٩
قصر القلب	٨٥
بشرية الرسل عليهم الصلاة والسلام	٩٣
الـــكفر صـــفات وجزاء	١٠٦
قصر الافراد	١١٥
المنفي فى أساليب الانذار	١١٧
صـــفة البلاغ	١٢٥
طرق القصر	١٣٣
ضـــمير الفصـــل	١٣٥

صفحة

النفى والاستثناء	١٤٨
الاستفهام بمعنى النفى والا	١٥٥
النفى الضمنى والاستثناء	١٦٣
مقامات النفى والاستثناء	١٦٦
النفى والاستثناء والنظم	١٧٢
لا اله الا الله والايجاز	١٩٣
من قضايا النظم القرآنى	١٩٥
الرزق	١٩٥
الغيب	١٩٨
موقع المقصور عليه	٢٠٠
القصر على الحال	٢٠٢
تقديم المقصور عليه	٢١٠
انمـــا	٢١١
الأمام أبو حيان وانما	٢١١
انما وأنواع القصر	٢١٦
الأمام عبد القاهر وانما	٢١٧
مقام انما	٢١٨
انما فى الأمر الجلى	٢٢٠
انما فى الأمر الخفى	٢٣٥
موازنات بين طرق القصر	٢٤٣
موقع المقصور عليه فى انما	٢٤٦
مراجع البحث	٢٥٦
محتويات الكتاب	٢٦١

رقم الايداع بدار الكتب ٨٦/٤٢٢١